الطبعة الرابعة

تركي الحمد



ريح الجنة

رواية





تركي الحمد

ريح الجنة

رواية



الطبعة الأولى ٢٠٠٥
الطبعة الثانية ٢٠٠٥
الطبعة الثالثة ٢٠٠٦
الطبعة الرابعة ٢٠٠٧

ISBN 978-1-85516-494-9

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

إلى المسافرين إلى الجنة... أو يعتقدون أنهم إلى هناك مسافرون... هل تعلمون فعلاً إلى أين أنتم مسافرون؟ ضعوا حقائبكم جانباً وفكِّروا... فكِّروا فقط، إن بقي مجال للتفكير...

من الأفضل أن يكون المرء على خطأ من دون قتل أحد، من أن يكون قاتلاً على حق...

ألبير كامو

بدأت عجلات طائرة «أميركان أيرلاينز»، بوينغ ٧٦٧، رحلة رقم أحد عشر، والمتجهة من مطار لوغان في بوسطن إلى مطار لوس أنجلوس، ترتفع عن الأرض في صباح ذلك اليوم المشمس من أيام أيلول/سبتمبر. كان الركّاب قد شدو أحزمة المقاعد، واستعد بعضهم لأخذ غفوة ما أن تستقر الطائرة في السماء، لاستغلال الوقت في لوس أنجلوس، خاصة وأن هنالك ثلاث ساعات فارق في التوقيت بين الساحلين الشرقي والغربي، فقد كان معظم المسافرين من رجال الأعمال وذوي الحاجات العاجلة. ومن بعيد، وإلى الناظر على شمال الطائرة، بدا المحيط الأطلسي يظهر على استحياء براقاً تحت أشعة شمس تبشر بيوم جميل، في ما كانت المدن المتناثرة على طول الساحل الشرقي تبدو وكأنها عقود من اللؤلؤ المنثور بين تلك المساحات الخضراء الشاسعة. كل شيء كان يوحي برحلة روتينية هادئة لا جديد فيها، في ما كانت ضحكات البعض تصل إلى أسماع البعض الآخر فتدفعهم إلى الابتسام، أو تدفعهم إلى التبرم من ضجة مزعجة. كان الجميع في غاية الحبور والحماسة للسفر إلى كاليفورنيا، الولاية الذهبية، وإلى جنوب كاليفورنيا حيث الشمس الساطعة، وحيث

الشواطئ الساحرة، وحيث الانطلاق. خمسة من المسافرين كانوا في غاية الحماسة والسرور والترقُّب أيضاً، فهم مسافرون إلى ما هو أبعد من كاليفورنيا، وما هو أمتع من كاليفورنيا، حيث لا أذن سمعت، ولا عين رأت، ولا خطر على قلب بشر... كانوا عاقدي العزم على السفر إلى الجنة، وهم اليوم على وشك دفع السعر، وهو سعر لا تعرفه هذه الدنيا... سعر لا يقيم بالمال، بقدر ما هو سعر لا يدفع إلاّ بالدم والروح، ولكن هؤلاء القوم لا يعلمون، وكيف يعلمون وقد غرقوا في أدران الدنيا ودنس المادة وحضارة فرعون وعاد وثمود وقوم نوح ولوط...

أخذ محمد ينظر حوله والطائرة تشق طريقها إلى سماء غاية في الصفاء، لولا بعض قطع من غيوم غاية في البياض تتناثر هنا وهناك، متفحصاً كل شيء قبل اللحظة المنتظرة، حتى اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام. فإلى الأمام هنالك الأخوين وائل ووليد على أهبة الاستعداد، وإلى الخلف هنالك سطام ينتظر، وها هو عبد العزيز بينهم، على أتم استعداد لتنفيذ ما انتظروه طويلاً. وإلى جانبه في الجانب الآخر من الممر، كان هنالك المنتج السينمائي المعروف ديفيد انجل، يتبادل الأحاديث مع زوجته لين، ويضحك بصوت مسموع، وهو يرتشف آخر قطرات الشمبانيا التي وزعت عليهم قبل الإقلاع، أو يتبادل حديثاً سريعاً مع فتيات أتين لتحيته، فربما أسعفهن الحظ وأصبحن نجمات في هوليوود بعد حين. وإلى الجانب الآخر من الطائرة كان هنالك شاب وفتاة يتبادلان القُبَل منذ أن احتلا مقعديهما في الطائرة، غير عابئين بأي شيء حولهما، فحوّل محمد عينيه عنهما وهو يشعر بالاشمئزاز، وبحرارة تغزو جسده دون أن يستطيع لمنعها سبيلاً. لو علم هذا الشاب بما في الجنة من نعيم مقيم، وما فيه من حوريات

كأنهن كواكب درية، لما التفت إلى هذه الساقطة بجانبه، ولأقبل على دين الحق لعل الله يشمله برحمته، ويكون من الفائزين بالجنة وحور العين، أخذ محمد يحدث نفسه وهو مستمر في تفقد الأوضاع. وغير بعيد عنه، وفي الصف نفسه، كانت تلك الفتاة التي كانت ترمقه بنظرات الإعجاب حين كانوا ينتظرون في القاعة. ما زالت تنظر إليه بين الفينة والفينة، وهي تمسك بذات ذاك الكتاب السخيف الذي تحتل غلافه صورة لشفتين كبيرتين... ألا قاتلهم الله، فهم في الدنس غارقون حتى في ما يقرأون، ولكنه لم يشغل نفسه كثيراً بالأمر، فقد كان في شغل شاغل عنها، فعما قليل، سيكون هو ورفاقه في عالم آخر، في جنة النعيم، حيث حور عين ولحم طير مما يشتهون، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وعسل مصفى، ولبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وستكون هي ومن معها في العالم الذي يستحقون، في النار وبئس القرار، حيث الصراخ وأنهار الحميم وعرق الأجساد والصديد، وشجرة الزقوم التي لا تسمن ولا تغني من جوع. وإلى الأمام منه، كانت تلك الحيزبون تحتسي كأساً من النبيذ، وتلتفت إلى الوراء بين الفينة والفينة، حتى إذا ما التقت أعينهما، زوت بفمها امتعاضاً، ثم عادت إلى كأسها ترتشفه بلذة. كم يكرهها... ولكن لم العجلة، فعما قليل، سوف تجترع كؤوس الحميم، الكأس تلو الآخر، وسوف يكون هو وأصحابه على الأرائك يتسامرون، على وجوههم نضرة النعيم، يحتسون كأساً مزاجها زنجبيلاً، وسيضحك كثيراً من يضحك أخيراً...

وقبل أن يُطفىء قائد الطائرة إشارة ربط الأحزمة، نهض شخصان واتجها إلى قمرة القيادة، وقبل أن يصلا إليها حاولت المضيفتان المكلفتان بخدمة الدرجة الأولى إعادتهما إلى مقعديهما، فإشارة فكّ الأحزمة لم تطفأ بعد، وبحركة سريعة، أخرج الشابان شفرات حادة،

وأمسكا بالمضيفتين، فجز أحدهما عنقها وهو يكبر ويأخذ خاتماً ذهبياً كانت تضعه في خنصر يدها اليسرى، في ما أمسك الآخر المضيفة الثانية واتجه بها إلى القمرة، وقد وضع شفرته على عنقها بيده اليمنى، في ما كانت اليد الأخرى تمسك بها من شعرها، والمضيفة قد شلها الرعب، فكانت تجر قدميها جراً. ولم يلبث الشاب الثاني أن تبع صاحبه إلى القمرة، وهو شاهر شفرته، وأمسك بالقبطان من شعره وشفرته على عنقه، وطلب منه ومن مساعده التنحي عن عجلة القيادة. وما هي إلاّ ثوانٍ إلاّ وكان شابان آخران قد دخلا قمرة القيادة، واحتلا المقعدين، في ما قام الشابان الأولان بتقييد القبطان ومساعده، ثم عادا أدراجهما إلى حيث الركاب. وما هي إلاّ لحظات، حتى فوجئ الركاب بصيحات حادة متتالية تنادي: «الله أكبر... الله أكبر...»، لم يلبث أن تلتها نداءات أخرى أرعبت الركاب، الذين أخذوا يلتفتون يميناً وشمالاً لمعرفة ما يجري وقد شلتهم المفاجأة، وهم يرون ثلاثة أشخاص بملامح لاتينية أو شرق أوسطية، ينتشرون بين الركاب وهم يشهرون شفرات حادة، ويطلبون من الجميع الذهاب إلى مؤخرة الطائرة، إذا كانوا يريدون السلامة. وقف أحدهم أمام الباب الفاصل بين الدرجة الأولى ودرجة رجال الأعمال، فيما كان الآخران يقفان عند الباب الفاصل بين درجة رجال الأعمال والدرجة السياحية. أخذ الركاب، وخاصة النساء، في الصراخ وهم يتدافعون إلى مؤخرة الطائرة، في ما بقي البعض في مقاعدهم، فأمسك أحدهم بأحد المسافرين وقد وضع آلة حادة على رقبته مهدداً بأن هذا هو مصير من لا يطيع الأوامر، وأن كل شيء سيكون على ما يرام إذا التزم الجميع السكينة والهدوء. كان الراكب يرتجف بشدة ولا يكاد يقوى على الوقوف، وهو يشعر بالنصل يكاد يجري في عنقه، في ما كانت يد

الخاطف اليسرى تمسك بشعره، ويده اليمنى تمسك بالنصل على عنقه بثبات. وران الصمت الرهيب على الجميع، وقد أيقنوا أنهم قد تعرّضوا لعملية اختطاف. وبعد قليل جاء صوت القبطان الجديد للطائرة وهو يعلن بلكنة أجنبية واضحة أن قبطان الطائرة قد تغيّر، وأن كل شيء سيكون على ما يرام إذا التزم الجميع الهدوء، ولم يقدِموا على أي عمل يندمون عليه، فلديهم مطالب يريدون تحقيقها، وهم عائدون الآن إلى المطار، ولن يمس الركاب أي أذى، ثم دوت صيحة «اللّه أكبر» مرة أخرى في أرجاء الطائرة، وردها بقية الخاطفين في الطائرة، بصوت يخترق الأذان وهم ينتفضون حماسة، في ما كان الركاب المتكدسين في مؤخرة الطائرة ينتفضون رعباً...

* * *

أحكم محمد وعبد العزيز قيود قائدي الطائرة واستلما قيادة الطائرة، بعد أن أغلقا جهاز الراديو الخاص بها. أخذت الطائرة طريقها نحو الشمال الغربي لفترة وجيزة، قبل أن تعود لمسارها المخطط له باتجاه الجنوب الشرقي، باتجاه الهدف المنشود... نيويورك... قلب امبراطورية الشيطان، ورمز مادية العصر، وفخر أعداء الإسلام. كان محمد يريد إضاعة بعض الوقت قبل الوصول إلى نيويورك، مع ما في ذلك من مخاطرة اكتشاف أمر الطائرة وإسقاطها من قِبل قوات الدفاع الجوي، وذلك كل لا يكون هناك فارق كبير في الوقت بين إصابة الهدف الذي يريد، والهدف الذي يقصده أبو القعقاع القطري في الطائرة الأخرى المتجهة إلى هدفها في نيويورك أيضاً. كان يشعر بالحماسة والخوف والشوق في الوقت نفسه. لقد اختلطت المشاعر لديه، فهو يحس بقشعريرة الموت تسري في

أوصاله، وصور حياته تمر أمامه بسرعة عجيبة حتى دون إرادة منه، فهو يريد التركيز على الهدف المقدس الذي نذر له نفسه منذ أن هداه الله، في الوقت ذاته الذي كان متحمساً فيه لأداء هذه المهمة التي ستجعل منه شهيداً يأخذ مجلسه في الجنة إلى جانب الأنبياء والصديقين، ويعيش في الجنة أبد الآبدين. . .آه الجنة. . . كم هو بشوق إليها، وقد طال الانتظار، ولكن ما هي إلاّ دقائق معدودة إلاّ ويكون هناك. . . ألا ما أطيب الجنة وما أطيب ريحها، وما أطول هذه الدقائق إلى الجنة. وقبل أن تأخذ الطائرة وجهتها إلى نيويورك تماماً، طلب محمد من عبد العزيز أن يتحكم بالطائرة ريثما يعود بعد أقل من دقيقة. نهض محمد دون اكتراث بنظرات عبد العزيز المستغربة، واندفع إلى مؤخرة الطائرة، وهناك رآها. . . تلك العجوز المتصابية، التي كانت ترتعد فرقاً، في ما وجهها قد تحوّل إلى ليمونة صفراء معصورة بعد أن فارقه الدم. انطلق إليها على عجل، وجذبها من شعرها، وقبل أن تنهض عن المقعد، كانت شفرته قد اجتزت عنقها وهو يصيح بصوت كالزئير: «الله أكبر. . . الله أكبر. . .»، وألقى برأسها بين المسافرين الذين ماتوا قبل أن يموتوا. وقبل أن يعود إلى قمرة القيادة، نزع صليباً ضخماً كانت تعلقه على رقبتها، ورمى به بعيداً وهو يصيح مرة أخرى: «الله أكبر. . . الله أكبر. . .». وقبل أن يعود أدراجه، حانت منه التفاتة، فتلاقت عيناه بعيني فتاة المطار، التي كانت تبكي وهي ملمومة على نفسها، وإلى جانبها ذاك الكتاب الإباحي. فكّر لبرهة في نحرها هي الأخرى، ولكنه استدار وعاد بسرعة إلى القمرة، وشيء من الشك ينخر صدره. . . هل كان نحره لتلك الحيزبون من أجل الله وفي سبيله، أم هو انتقام شخصي؟ لم يطل التفكير كثيراً، فها هو الشيطان يحاول أن يوسوس في صدره مرة

أخرى، فتعوّذ باللّه من الشيطان الرجيم في ما هو يدخل قمرة القيادة. . .

وفي اللحظة ذاتها، كان عزمي يفكّر بأنه لا بدّ من سفك الدم واستلاب شيء ما، كي تكون الغزوة كاملة، فها هو الأمير يبدأ ولا بدّ أن يتبعوه، فالتقط إحدى المضيفات، التي أخذت ترتعش كورقة في مهب الريح، ونحرها من الوريد إلى الوريد، وهو يرجو أن يكون هذا العمل في ميزان حسنات والديه، ثم يكمل عمله بأن ينزع قرطيها من أذنيها وهو يُكبّر ويهلّل، في ما كان أبو سلمان ينتزع المنتج من بين أحضان زوجته ألين، وهو يبكي ويرجوه أن لا يقتله، ولكنه لا يستجيب، بل كانت البسمة تحتل كل فيه وهو يرى هذا الجبان يرتجف بين يديه. . . فدم الكافر حلال، وفي قتله حسنة تُضاف إلى حسناته إن شاء اللّه. أمسك بعنقه وجره بقوة، ثم ألقاه على الأرض، ونحره كما تنحر الشاة أمام زوجته التي كانت تصرخ بشدة، ثم لم تلبث أن أغمي عليها وهي ترى دماء زوجها تتفجر من عنقه، وسط تكبير وتهليل وائل المخيف أكثر من النصل الذي يحمله. ثم انتزع صليباً كان ديفيد يضعه على صدره، وهو يصرخ: «اللّه أكبر. . . اللّه أكبر. . .»، ولم يستطع أبو مصعب إلاّ أن يفعل ما فعله شقيقه وعزمي، فَجَزّ أسمن راكب رآه أمامه، واجتز عنقه وهو يكبّر، ويسلبه ما في جيوبه، في ما أخذ بقية الركاب في البكاء واحتضان بعضهم البعض، وقد أدركوا أن الموت قادم لا محالة. . .

وبدأت نيويورك تظهر في الأفق، غابة من ناطحات السحاب، تُذكّرك بغابات أفريقيا، ولكن أفريقيا صناعة الرب، وهذه صناعة من يريدون أن يحتلوا مكان الرب. أخذ محمد يهبط بالطائرة تدريجياً، حتى كادت تلامس ناطحات السحاب المشرئبة بأعناقها إلى السماء،

مما اختطف بسمة سريعة من فم محمد، وهو يحدث نفسه: «يا لهم من مستكبرين... يريدون الوصول إلى السماء كما سبق للنمرود أن فعل، ولكن هيهات لهم... فالسماء لا يصلها إلاّ رب السماء، أما هؤلاء الكفرة فليس لهم إلاّ سقر وأودية جهنم الملتهبة... سندك أبراجهم هذه، ونجعلهم أضحوكة للعالمين... أميركا بكل هيبتها وجبروتها سوف تدفع الثمن غالياً اليوم لتحديها الإسلام وأهله... لم يمت خالد وعكرمة، ولم يفنى أبو عبيدة وصلاح الدين... نحن أحفادهم... نحن حملة الراية من جديد... سنريهم ما يمكن أن يفعله ورثة رسالة محمد...»، ثم أخذ يهزج بصوت عال:

جهاداً يا أحبتنا جهاداً ... فما دون امتطاء الهول بدُّ
أعيدوا سيرة العظماء فينا ... فأنتم للعلا والمجد ند
وما بسوى الجهاد يعز ركن ... وترتجع الحقوق وتسترد
فإما أن نعيش بظل دين ... نعز به وبالدين الرشيد
وإما أن نموت ولا نبالي ... فلسنا نرضى عيش العبيد

وأحسّ في تلك اللحظة أن حياته كلها لا تساوي شيئاً أمام الدفاع عن الدين وأمام كل تلك النِّعم التي وعد اللّه بها عباده الصالحين، وخاصة المجاهدين منهم، فأخذ ينشد من جديد:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي جنب كان في اللّه مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم أخذ يتلو: «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم

من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين...».

ومن بعيد بدأ برجي مركز التجارة العالمي يظهران كنابي أفعى سامة، أو كصنمين ضخمين يمثلان أميركا المستكبرة وحضارتها المادية، فأخرج محمد هاتفه المحمول واتصل بسرعة:

ـ أخي أبو القعقاع... نحن على مقربة من الجنة... ثوان ونحن فيها إن شاء الله... أين أنتم؟

وجاءه صوت مفعم بالحماس يقول:

ـ نحن وراءكم يا أبا عبد الرحمن... دقائق ونكون معكم في الجنة إن شاء الله... الله أكبر... الله أكبر...

ـ الله أكبر... الله أكبر...

ثم ألقى بالهاتف حيثما اتفق، واستدعى بقية الإخوان إلى قمرة القيادة على عجل، وتصلبت يداه على المقود، في ما لم تعد عيناه تريان غير النابين. وبين البرجين، كان محمد يرى فتاة غاية في الحسن والصفاء، ترتدي غلالة رقيقة تشف ما تحتها من بشرة بيضاء نقية، حتى ليكاد يرى ما وراء البشرة، ورائحة عطرة يكاد يشمها، وقد نشرت شعرها الفاحم حتى غطى كامل ظهرها، فاغرة فاها عن أسنان كاللؤلؤ المنضود، ناظرة إليه بعينين ناعستين اشتد سوادهما وبياضهما، وفاتحة ذراعيها وهي تناديه: «طال ما انتظرتك يا محمد... أنا الراضية فلا سخط، والمقيمة فلا ظعن، والخالدة فلا أموت... أنت حبي وأنا

حبك، ليس دونك تقصير ولا وراءك معدل»، وصوت يرن في أذنه: «إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة... بأن لهم الجنة...»، فقبض محمد على مقود القيادة بشدة واتجه إليها وهو يصيح: «اللّه أكبر... اللّه أكبر... أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه... أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه...»، ودوت الصرخة ذاتها من حناجر متعددة في قمرة القيادة، في الوقت ذاته الذي كان فيه الصراخ في مؤخرة الطائرة يذكر بجحيم دانتي وأبي العلا، حيث الصراخ والبكاء وصرير الأسنان. وفي ما كانت مقدمة الطائرة تقترب من أعلى البرج، كان محمد يردد في نفسه: «وعجلت إليك رب لترضى... وعجلت إليك رب لترضى... اللّهم خذ من دماءنا حتى ترضى... اللّهم خذ من دماءنا حتى ترضى... أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه...»، في الوقت الذي كانت فيه فتاة المطار تقول لوالدتها وداعاً على هاتفها المحمول... وكان ذلك آخر العهد بالدنيا...

* * *

«اللّهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً وتحتي نوراً، وأمامي نوراً وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً... أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق اللّه... أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق اللّه... أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق اللّه... لا إله إلاّ اللّه الحليم الكريم، سبحان اللّه وتبارك رب العرش العظيم، والحمد للّه رب العالمين... توكلت على الحيّ الذي لا يموت، والحمد للّه الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في المُلك، ولم يكن له ولي

من الذل، وكبره تكبيراً... الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر...». أخذ محمد وعبد العزيز يرددان بعجلة ومحمد ينظر إلى ساعته السويسرية ذات الموانئ المتعددة، مسرع الخطى، حاثاً رفيقه على سرعة الحركة إلى بوابة الصعود إلى الطائرة، في مطار لوغان خارج مدينة بوسطن. كانت الساعة تشير إلى بضع دقائق بعد السابعة صباحاً، فأدرك أن الوقت، والحمد لله، لم يخذله رغم التأخر، ولا زال هناك مجال للحاق بالرحلة، فما زال هناك ما يقارب الخمس وأربعين دقيقة على موعد الاقلاع، خاصة وأنهما غير مضطرين للوقوف في طابور المسافرين، فهما يحملان تذكرتي سفر على الدرجة الأولى، وقد حصلا على بطاقات صعود الطائرة من مطار بورتلاند، ولا يحملان عفشاً فقد شحناه إلى لوس أنجلوس مباشرة من مطار بورتلاند والحمد لله. لقد كان قلقاً من أن لا يسعفه الوقت في اللحاق بالرحلة، فرغم دقة الرحلات ومواعيدها، إلاّ أنه أحس بأنه كان من الأفضل لو أنهما باتا ليلتهما تلك في بوسطن بدل أن يأتيا إليها من بورتلاند في ولاية مين.

وبالفعل فإن رحلة «كولغان أير» من بورتلاند إلى بوسطن كانت قد تأخرت سبع دقائق عن موعدها، وكاد محمد يفقد أعصابه والثواني تمر قبل أن تتحرك الطائرة في الطريق إلى بوسطن. كانا مضطرين للمبيت في بورتلاند ـ ميريلاند. فهناك كان عليهما أن يقابلا أحد الأخوة قادماً من كندا كي يستلما منه آخر التعليمات المتعلقة بالعملية، كما أن فكرة المبيت في مكان آخر غير بوسطن أكثر أماناً، وخاصة بالنسبة لشخص لديه حس أمني عال جداً مثل محمد بالإضافة إلى أن تعليمات القيادة تحذر من التهاون في أبسط الأخطاء، إذ إن ذلك قد يقود إلى إجهاض الغزوة برمتها. فمجموعتان من المجموعات الأربع التي ستنفذ الغزوة

المباركة، ستنطلقان من بوسطن باتجاه لوس أنجلوس، وهذا مما قد يثير بعض الشكوك. أن تأتي كل مجموعة من مكان مختلف أكثر أمناً من ناحية، وأكثر سهولة للمرور من أجهزة المراقبة، فليسا مضطرين للمرور عبر البوابات الإلكترونية، أو التفتيش عن طريق حراس المطار. ففي مطار محلي مثل مطار بورتلاند، تكون الإجراءات أقل صرامة، وليس عليهما الخضوع لإجراءات أمن مشددة في مطار لوغان، طالما أنهما من ركاب الترانسيت. كم كان محمد يود أن يسأل لماذا لا يقابلهما الأخ الكندي في بوسطن، ولكنه تعلّم منذ أن نذر نفسه للجهاد أن لا يسأل عما ليس له به علم، فعليه التنفيذ فقط، وكان يتعامل بالطريقة ذاتها مع الأخوة الذين أصبح أميراً عليهم، «لا تقف ما ليس لك به علم» السؤال ممنوع، والتنفيذ واجب. فكل النقاشات تتمّ في مجلس الشورى، وبعد اتخاذ القرار ما على الآخرين إلاّ التنفيذ، والتنفيذ فقط. فالعمل الجماعي مثل الصلاة في المسجد، كل يصلي لنفسه، والإمام وحده هو الذي يقود حركات الجميع، وفي النهاية تكون الصلاة صفاً واحداً. والله سبحانه وتعالى هو المهتدى به في هذا الكون، ومن تحته تتعدد القيادات.

وطاعة الشريعة دون نقاش هي جزء من عمل جماعي، وصلاة كونية، لا يعرف أسرارها وأصولها إلاّ خالق الكون نفسه، وما علينا نحن إلاّ التنفيذ. وما زالت كلمات أبو عبد الله ترن في أذنه بعد آخر لقاء لهما في قندهار: «من أطاعنا فقط أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله»... «لن نخذلك يا أبا عبد الله... لن نخذلك...»، أخذ محمد يحدث نفسه، «بل لن نخذل الله ورسوله...». وافتر ثغره عن ابتسامة رضا، وشعر براحة عميقة تسري في جسده كما حرارة المرض، ولكنها برودة العافية... بعد أقل من

ساعتين سوف يكون في جنة الخلد مع الشهداء والصديقين... بعد أقل من ساعتين سوف يكون مع زوجته في الجنة... بل زوجاته من الحور العين، حيث النعيم المقيم... اللهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة... اللهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة... ودون شعور منه، وجد نفسه ينظر إلى السماء ويردد بصوت خافت، لم يفت على أذن عبد العزيز الحادة: «وعجلت إليك رب لترضى... وعجلت إليك رب لترضى...»، فابتسم عبد العزيز وقد اجتاحته ذات النسمة الباردة من الطمأنينة وأخذ بدوره يردد بصوت خافت: «وعجلت إليك رب لترضى... وعجلت إليك رب لترضى»...

* * *

كان الوقت مهماً في المهمة التي هم مقدمون عليها، وكان يجب أن تكون حساباته أكثر دقة وحذراً، وهو لا يريد أن تفشل العملية التي خططوا لها لسنوات بسبب حادثة بسيطة مثل هذه لم تكن في الحسبان، ولكن الحمد لله، فهاهما يصلان في الوقت المناسب، مما جعله يتفاءل أكثر بأن الله يبارك هذه الغزوة التي سوف تهز عرش الطغيان، بل عرش الشيطان، ويكلؤها الرحمن بعينه التي لا تغفل ولا تنام، وأن الملائكة تحف بهم كما كانت تقاتل في بدر والأحزاب مع المسلمين. تأكد له الآن، وبعد كل ما مر به وفيه من ظروف، أن الله فعلاً راض عن العملية، وهو يسهّل لهم السُبُل ويفتح لهم الأبواب. فقبل عدّة أشهر ارتكب مخالفة مرورية في فلوريدا، وكان عليه المثول أمام المحكمة، ولكنه لم يذهب، فصدر أمر بالقبض عليه، ولكنه لم يُنفذ. وعندما عاد إلى ميامي من مدريد في رحلته الأخيرة، كان خائفاً أن يُمنع من دخول الولايات المتحدة، فقد تجاوز مدة الإقامة المؤقتة

الممنوحة له في التأشيرة بما يتجاوز الثلاثين يوماً، ولكنهم تركوه يدخل، رغم أنه قال لموظفي دائرة الجوازات والهجرة أنه قادم لتعلم الطيران وليس السياحة كما هو واضح من نوع تأشيرته. ولكن الطامة الكبرى كادت أن تحدث في أيلول/ سبتمبر من العام الماضي، عندما ترك هو ومروان طائرة التدريب الصغيرة المُعطلة في مدرج ميامي الدولي، دون أن يزيحاها جانباً، أو يبلغا برج المراقبة. كان من الممكن أن تحدث كارثة في ما لو أنهما اعتقلا، أو حصلت كارثة تعطل الإعداد للغزوة، ولكن الله كان وليهم وحليفهم، وهو نعم الولي ونعم الحليف. كان في شك من الأمر بعد نجاته من كل هذه المعوقات، فاعتقد أنها خطة مرتبة من مخابرات الزبانية للإيقاع به وإخوته من المجاهدين، فكان شديد الحذر في حركاته واتصالاته، حتى إنه أكثر من الذهاب إلى الحانات وأماكن اللهو لإبعاد أي شبهة ممكنة، ولكنه أدرك في النهاية أن الله هو الذي يمهد له السبيل ويبعد عنه أعين الشياطين. نعم، إن الله قد أعمى أبصارهم عنه حتى يُنفذ ما كُتب له أن ينفذه، كما أعمى عيون قريش عن النبي ليلة الهجرة، عندما كان هو وصاحبه في الغار يقول له: «لا تحزن إن الله معنا». أميركا بكل جبروتها لن تستطيع الوقوف في وجه الله الكلي القدرة، فليدعوا ناديهم، سيدعو الله الزبانية التي ستتخطفهم كما تتخطف الجوارح من الطيور لحوم الجيف في الأودية السحيقة. وابتسم بحبور وهو يتذكر تلك المكالمة التي دارت بينه وبين الأخ شهيد نيكلز، الألماني الذي هداه الله لدين الحق:

ـ إن المسلمين ضعفاء إلى حد العجز عن القيام بشيء ضد الولايات المتحدة الأميركية. . .

قال شهيد وهو في غاية الأسى:

ـ كلا يا أخي... يمكن القيام بشيء ما... هناك وسائل كثيرة... والولايات المتحدة الأميركية ليست كلية القدرة... اللّه وحده هو الكلي القدرة...

قال محمد، وكانت فكرة هذه الغزوة المباركة لا تزال نطفة في الأحشاء... كم يتمنى أن يكون الأخ شهيد معهم اليوم كي يرى ما يمكن أن يفعله المسلمون الصادقون، ولكنه سيرى كل شيء على التلفزيون، ويعلم أن المسلمين قادرون على استخدام تقنية الأميركان التي طالما تبجحوا بها ضدهم... سيستخدمون طائراتهم لتدميرهم، وسيستخدمون إعلامهم لفضح ضعفهم... أين أنت يا شهيد... أين أنت... وهنا نظر إلى صاحبه عبد العزيز، رفيقه في الرحلة من بورتلاند، وكان قد نسيه في خضم هواجسه، وابتسم، وهو قليلاً ما يبتسم، وحثه على الإسراع رغم أنه لا يزال هناك متسع من الوقت...

* * *

لم يكن هنالك الكثير من المسافرين إلى لوس أنجلوس في تلك الساعة المبكرة من صباح يوم الثلاثاء، الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، آخر أيام الصيف الجميلة في بوسطن، بل لم يكن هنالك أحد تقريباً، فقد كانت المقاعد أمام بوابة الصعود إلى الطائرة تكاد تكون خالية إلاّ من بعض المسافرين المتناثرين على المقاعد الوفيرة. تكون الطائرات مزدحمة عادة في أيام الأعياد وعطلات آخر الأسبوع، أما في بداية الأسبوع فإن المسافرين هم من رجال الأعمال أو ممن لهم مصلحة ضرورية يقضونها. كم كان يود محمد لو أن الرحلة صادفت يوم عيد، أو عطلة نهاية الأسبوع، فقد كان يود أن يكون هناك أكبر عدد من الكفار مستقلاً الطائرة، ولكن الحكمة لا تقتضي ذلك رغم

الرغبة. فعندما يكون عدد الركاب قليلاً، فإن السيطرة على الطائرة ستكون أسهل، مما يدعم نجاح الغزوة، بالإضافة إلى أن عدد القتلى سوف يكون كبيراً حين الارتطام بالأهداف، وهذا سيعوض النقص في عدد الركاب. ابتسم باقتضاب وهو يرى الشقيقين وليد (أبو مصعب) ووائل (أبو سلمان) يجلسان على مقعدين متجاورين، فيما الأخ سطام (عزمي) يجلس بعيداً عنهما، وقد بان السرور في أعين الجميع حين شاهدوا الأخ أبو عبد الرحمن المصري (محمد) والأخ أبو العباس الجنوبي (عبد العزيز) قد قدما أخيراً، وكانوا خائفين أن يكون قد حدث لهما أي مكروه قد يُجهض هذه الغزوة المباركة. اتخذ محمد مجلسه على أحد الكراسي وبجانبه جلس عبد العزيز، متجاهلين الجميع وكأنهما لا يعرفانهم، على كرسيين في وسط القاعة بين الشقيقين وعزمي، وأخذ الجميع يتلون القرآن ويرددون الأدعية في أعماقهم..

لم يكن يوم الثلاثاء يوم حركة طيران كثيفة في الساحل الشرقي، وخاصة بالنسبة لرحلة طويلة تربط الساحلين الشرقي والغربي للولايات المتحدة. «يتهمنا الكفار بالتخلف وقلّة الذكاء ونقص التخطيط، يا لهم من متغطرسين مستكبرين» أخذ محمد يحدث نفسه... «التخطيط لهذه الغزوة بتفاصيلها، حتى تحديد يوم التنفيذ لأسباب تتعلق بحركة الطيران في أميركا، سوف تثبت لهم أننا لسنا بذاك الغباء الذي يفترضون كذباً وتضليلاً، فالذين استطاعوا أن يسودوا العالم ذات يوم ليسوا بالأغبياء، وبالإيمان والذكاء ذاته سوف يدمرون إمبراطورية الشر ويسحقون الشعبان، ويعود الإسلام والسلام إلى عالم استولوا عليه بالقوة والقهر... كم كان الإمام الشهيد حسن البنا صادقاً حين قال: ها هو ذا الغرب يظلم ويجول ويطغى ويحارب ويتخبط فلم يبق إلاّ أن تمتد يد شرقية قوية يظللها لواء الله وتخفق رأسها راية القرآن ويمدها جند

الإيمان القوي المتين فإذا بالدنيا مسلمة هانئة. . . لم يتغيّروا منذ ذاك الحين، فما زالوا على ظلمهم وغطرستهم وغيهم، ولكن الإسلام قادم كما تقدم الشمس في صباح يوم جديد، أو يقدم الصباح ذاته من بعد ليلة مظلمة». أحس بالحماسة تلتهب في أعماقه، ولم يعد التفكير في نفسه يشوب تفكيره بأي شكل من الأشكال، فهو ذاهب إلى الجنة ونعيمها إن شاء اللّه، والإسلام سوف يسود إن شاء اللّه، فما قيمة النفس مقابل ذلك؟». . . ما قيمة النفس أمام إحدى الحسنيين، فإما النصر وإما الشهادة. . . وغاب في الجنة ونعيمها. . .

أحس بالراحة تجتاح كل خلية في جسده، ولم يفطن إلى نفسه وهو يدندن: «آخر أيام الصيف الجميلة. . . آخر أيام الصيف الجميلة. . . يا وردة حزينة في باقة جميلة. . . اللّه. . . يا سلام. . . تصلح كلمات لطقطوقة لطيفة من طقاطيق الشيخ عبده الحامولي، أو صباح فخري. . .». انتبه لنفسه، ترك حديث النفس وهو يستغفر، فما له ولهمزات الشيطان هذه، فهو مقبل على عمل كبير، وهو يستسلم لآخر محاولات الشيطان لثنيه عن عمله الكبير هذا، والتعلق بهذه الدنيا التي لا تساوي جناح بعوضة في عين الرحمن. . . عمل سيدخل من خلاله الجنة من أوسع أبوابها إن شاء العزيز القدير. . . بل لن يكون ميتاً على الإطلاق، فهو منطلق إلى الخلود، إلى الحياة الحقيقية. . . سيكون شهيداً حياً عند رب رحيم. وأخذ يرتل بصوت خفيض: «ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل اللّه أمواتاً، بل هم أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما أتاهم اللّه من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من اللّه وفضل وأن اللّه لا يُضيع أجر المؤمنين. الذين استجابوا للّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر

عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا اللّه ونعم الوكيل»... اللّهم رضاك والجنة... اللّهم رضاك والجنة... أليس هذا هو وعد اللّه؟ أليس هذا ما تقوله كلمات الأخ أبو العباس الجنوبي، أحفظهم لكتاب اللّه وأفقههم في دينه، في منشوره الذي وزعه عليهم قبل أيام، والتي حفظها عن ظهر قلب؟ بعد قليل... نعم بعد قليل سيزف إلى حوريات لا مثيل لهن في هذه الدنيا، خلقهن اللّه من أجله هو فقط، ويتمتع بشراب الجنة وطعامها، ويطير بين مروجها، ويتمتع بالسكينة والراحة اللتين كان يبحث عنهما طوال حياته في هذه الدنيا الزائفة. لقد أحب أمل كما لم يحب أحد أحداً من قبل، وبقي رفضها له جرحاً لا يندمل في نفسه، ولكن ها هو ذاهب إلى مكان لا تصلح فيه أمل أن تكون جارية لجارية من جواري الجنة. كم كانت تأسره تلك النشوة التي تعتريه عندما يحتسي الفودكا في البارات العامة، وذلك كجزء من التضليل الذي يجب عليه القيام به كي لا يكشفه أعداء اللّه، وكم كان يشعر بالذنب لأنه كان يتمتع بتلك النشوة المفروضة عليه، مثل تلك الليلة التي شرب فيها هو ومروان حتى الثمالة في أحد مطاعم هوليوود في فلوريدا. كانت ليلة جمعة، أي قبل ساعة الصفر بأربعة أيام، ولم يكن يريد أن يتطرق الشك في نواياهم إلى أي مخبر من أجهزة الأمن الأميركية قد يكون متابعاً لهم. شرب الكثير من الفودكا، وشرب مروان الكثير من الروم مع الكولا، وكاد مروان أن يفضحهم بعد أن لعبت الخمر برأسه، إذ وقف وسط المطعم وأخذ يهدد الموجودين بالويل والثبور وعظائم الأمور، وأنهم سيرون يوماً أسود كسواد قلوبهم التي أماتها الجهل والمرض والكفر والبعد عن اللّه. حمداً للّه أنه كان يهدد بالعربية، وإلاّ كانت الأمور قد ساءت أكثر. اضطر محمد لأن يطلب

فاتورة الحساب بسرعة، وافتعل شجاراً مع المضيفة حول قيمة الحساب، وذلك لتضييع ما قد يكون لافتاً للانتباه في خطبة مروان العصماء، وأخيراً دفع مبلغ خمسين دولاراً للمضيفة طالباً منها الاحتفاظ بالباقي وهو يقول: «المعلوماتك... أنا طيار في شركة أميركان أيرلاينز، وبمقدوري شراء المطعم كله لو أردت، فالمال لا يهمني، ولكن أسعاركم غالية جداً، لا تتناسب مع الخدمة التي تقدمونها»، ثم وهو يهم بالنهوض في ما مروان بالكاد يقف على رجليه، قال باسماً للمضيفة: «أرجو المعذرة يا باتريشا، فابن أختي قد أفرط في الشرب الليلة... ليست عادته، ولا أدري ما الذي جرى له»، ثم وهو يضحك: «من المؤكد أنه تعارك مع صديقته، بعد أن اكتشفت أنه يغازل فتاة أخرى»، ثم غادرا إلى شقتهما القريبة، وهو يدعو الله أن تمر المسألة بسلام، وها هو الله يرعاهم من جديد، والملائكة تحميهم من كل شر، وكل شيء يسير حسب الخطة... خطة الرب قبل خطة العبد...

* * *

وابتسم بطرف فمه وهو يحدث نفسه ساخراً... «أرعبونا بالأمريكان وتقنيتهم ودقتهم وجبروت مخابراتهم، لو أن الأمر صحيح، الكانوا كشفونا منذ زمن، فقد ارتكبنا الكثير من الأخطاء التي في مجموعها قد تقود إلى إجهاض غزوتنا، منذ الإعداد وحتى اللحظات الأخيرة، ولكن الله معنا وليس معهم، ولذلك كانت يده دائماً من ورائنا»... فرغم دقتهم ومخابراتهم، حصل أبو العباس وأبو سلمان وأبو مصعب على تأشيراتهم من السفارة الأميركية في السعودية، رغم أن المعلومات التي قدموها كانت ناقصة وغير دقيقة، وهو نفسه دخل أميركا بتأشيرة منتهية. كلا... ليس الأمر أنهم كانوا مهملين أو

عابثين، ولكن الله يسر كل شيء لهذه الغزوة المباركة... ثم وهو يضحك في سره... «ولعل تقنيتهم الموهومة مثل أفاعي سحرة فرعوة، مجرد خداع وتضليل، ولكن عصا موسى سوف تتلقف ما يلقون... الحمد لله... الحمد لله...» ها هو اليوم ذاهب إلى مكان سوف يعب فيه الخمر عباً، من نهر لا ينضب، دون إحساس بذنب أو إثم أو خوف من عقاب، بجوار حورية عذراء على الدوام، حسناء لا يبهت جمالها مع الوقت، بل هن اثنتين وسبعين وأكثر، كما ورد عن المصطفى عليه السّلام. ولكن قبل ذلك عليه أن يدفع المهر، والمهر هو الجهاد في سبيل الله، فكما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت واحدة من نساء الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريح، ولأضاءت ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها...»، صدق رسول الله... اللّهم رضاك والجنة... اللّهم رضاك والجنة. ها هو ذاهب إلى مكان يتوقف فيه الزمن، ويذبح فيه الموت ولا يبقى إلاّ الخلود، فالخالد خالد سواء في جنة أو نار... لا شيخوخة ولا مرض، ولا ألم ولا حرمان، ولا جوع ولا عطش، بل نعيم مقيم، ورؤية لوجه الخالق الذي إنما يقومون بهذا العمل من أجله وفي سبيله. وصدرت منه في تلك اللحظة زفرة عميقة لفتت انتباه صاحبه، ولكنه لم يكترث، فقد كانت الجنة تملأ عليه كل كيانه، وحوريته المنتظرة في الجنة قد خلبت ما بقي له من لب، وهو يستعجل اللحظات الباقية كي يسافر إليها. وأحس في تلك اللحظة أنه يشم رائحة جميلة آتية من مكان لا يمكن أن يكون من هذا العالم، ولا يمكن وصفها بكلمات البشر... انتابته حالة من الوجد لا يمكن التعبير عنها،

بمثل ما تنتاب الصوفي حالة من الحلول لا يستطيع لها وصفاً بكلمات البشر الناقصة والمحدودة، فأغمض عينيه وفتح أنفه على اتساعه للعب من مزيج من رائحة مروج في أول أيام الربيع، ولكنها ليست كالمروج، وراحة أنثى معطرة بشذا لا مثيل لها ولا مثيل له، فأحس بأنها مرسلة من هناك... من الجنة، بشرى بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر... ألا ما أحلى الجنة وريحها...

وأخذته رعدة خفيفة، وحلّت سكينة صافية في نفسه، فأخذ يقرأ بخشوع وبصوت غير مسموع، إلاّ أن صداه كان يتردد في كل كيانه: «إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل اللّه فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من اللّه فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم...».

وتولجته نشوة صافية لم يشعر معها بزمان ولا مكان للحظات، وأخذت حبات من عرق لؤلؤي بارد تتساقط على جبينه بغزارة، رغم أن الجو لم يكن حاراً على الإطلاق، مانحة إياه لذة كاملة بكل معانيها في ذلك اليوم المشرق الصافي من أيام أيلول/سبتمبر، أفاق منها وهو أشد عزماً على دفع ثمن الجنة ومهر الحورية... فمن يخطب الحسناء لم يغلها المهر، وحسنائه ليست كأي حسناء... إنه اليوم يدفع سعر الجنة ومهر حوريته التي تنتظره على أحر من الجمر... الجنة التي لم يعد بينه وبينها سوى دقائق ما أثقلها على النفس التواقة إلى رؤية وجه ربها... ولكن الطقطوقة لا تريد تركه وحاله، فاستعاذ باللّه من الشيطان مراراً وتكراراً، وقرأ آية الكرسي والمعوذتين، حتى بدا أنه قد استطاع قهر الشيطان في النهاية، وعاد إلى اللازمان واللامكان...

* * *

كانا قد أنهيا إجراءات السفر بالكامل في مطار بورتلاند، وحجز الجميع مقاعدهم مقدماً عن طريق الإنترنت. كان مقعده رقم 8D، وإلى جانبه عبد العزيز في المقعد 8G. كان حجز المقاعد مقدماً ضرورياً من أجل إحكام القبضة على الطائرة، فيجب أن ينتشر المجاهدون في الطائرة على شكل حرف L أو حرف H. أما أبو سلمان فكان على المقعد 2A، وأبو مصعب 2B، وعزمي 10B، وكاد أن يفتعل مشكلة مع موظفة الخطوط الأرضية حين أبلغته بهدوء أن أغراضه المشحونة من بورتلاند، لن ترافقه في هذه الرحلة، إذ إنهم لم يستطيعوا شحنها من بورتلاند بعد أن حجزوها في غرفة العفش بعد أن أطلقت بوابة الأمن إنذاراً، ولكنها ستشحن على أقرب رحلة للشركة بعد ذلك. لم يجدوا شيئاً غير عادي في حقيبته، ولكنهم حجزوها كي يتأكدوا من صعوده إلى الطائرة، وأنها لن تكون حقيبة بدون مسافر، ولكنهم تأخروا كثيراً فلم يستطيعوا شحنها. لم يكن حقيقة بحاجة إلى أية أغراض، فكل ما يحتاجه هو وزميله موجود في حقيبة الكتف التي يحملها، ولكن كان ذلك نوعاً من التضليل المتعمد كي لا يثيرا أي نوع من الشكوك حين يسافران مثل هذه المسافة الطويلة دون عفش. أخذ يصرخ ويحتج بغضب في وجه المضيفة، وهو في داخله غير مهتم، فهي بالنسبة له رحلة من الدنيا دون عودة، ولكنه كان يفعل ذلك إمعاناً في التضليل. لم تكن موظفة الخطوط غاضبة من جلبته تلك، بل على العكس من ذلك كانت تبدو وكأنها تريده أن يبقى واقفاً أمامها لمدة أطول، وهي تنظر إليه بنوع من الإستسلام والخدر، وقد نعست عيناها الزرقاوان إلى أبعد مدى. لقد كان محمد شاباً في الثالثة والثلاثين من عمره، بهي الطلعة رغم العبوس، وسيم القسمات رغم القسوة، رياضي الجسد رغم الميل إلى القصر، لولا ذلك التجهم الذي لا يريد

أن يفارق ذلك الوجه الوسيم، وتلك النظرة الجامدة التي توحي بالصقيع لمن يتأمل فيها، أو بالموت كما كان يصفها بعض زملائه من الطلاب في هامبورغ. لقد كانت رائحة طيب المسك تتضوع من كل جزيئة في جسمه وجسم رفيقه، وكان واضحاً أن موظفة الخطوط قد استسلمت لرائحة الشرق الجميلة هذه، وكانت فتحتي أنفها الدقيق تتسعان بشكل واضح لاستيعاب ذلك الأريج القادم من هذا الغريب الذي يلفه سحر ليالي ألف ليلة وليلة التي استولت على كيانها حين قرأتها لأول مرة، فتشعر بالحرارة والإثارة تجتاحان جسدها في أعماقه. كم سمعت وقرأت عن الشرق وسحره، وها هو هذا السحر يقف اليوم مجسّداً أمامها. . .

اختفت البسمة التي حاول اغتصابها أمام المضيفة، وعادت إلى وجهه تلك الصرامة وذلك الجمود، بل تلك القسوة، التي أصبحت لا تغيب عنه منذ أن هداه اللّه إلى الطريق القويم، وهو الذي عُرف بالمرح ونشر روح المرح أينما حل أو ارتحل، كما يتذكر أصدقائه القُدامى. فالمزاح يذهب الهيبة ويميت القلب، وهو لا يريد أن يموت قلبه، إذ كفاه موتاً تلك السنوات الجاهلية قبل أن يمنّ اللّه عليه الهداية. وهو لا يزال يذكر كيف أنه صرف النظر عن تجنيد أحد الأخوة السودانيين في هامبورغ، رغم ورعه وتقواه ومقته لأميركا وإسرائيل وكل بلاد الكفر في المغرب والمشرق، إلاّ أنه كان كثير المزاح، مما أسقطه من عينه، فمن كثر مزاحه كثرت زلاته وسقطاته. وغادرت المضيفة المكان وهي شبه مخدرة، في ما كانت عيناها لا تزالان تتابعان محمد، الذي تشاغل بقراءة صحيفة ملقاة أمامه، وعاد الصمت يلف المكان، وصوت المذيع الداخلي يعلن عن قرب إقلاع رحلة الأميركان أيرلاينز إلى مدينة الملائكة. . .

* * *

قبل أن يصلا إلى بوابة الصعود إلى الطائرة، توقفا قليلاً في دورة المياه، حيث دخل محمد إلى أحد دورات المياه، في ما بقي عبد العزيز خارجاً يغسل يديه ويراقب. لم يكونا بحاجة فعلية لدورة المياه، ولكن هي مكالمة مهمة يجب أن تؤدى. أخرج محمد تلفونه المحمول، ونقر عدة أرقام، وانتظر الرد وهو يسمع دقات الجرس هناك، في مكان ما على هذه الأرض، ولكنها بدت كأنها آتية من بُعد آخر لا علاقة له بالأرض ومَنْ عليها...

ـ السّلام عليكم... الأخ أبو بكر؟

وجاءه الرد بعد لحظات بدت وكأنها دهراً، وصوت كأنه قادم من أعماق بئر مهجورة...

ـ وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته... نعم، هو بذاته...

بلع ريقه، وصمت لبرهة في ما الجانب الآخر من الخط ما زال منتظراً...

ـ أنا أبو عبد الرحمن... أبو عبد الرحمن المصري... الجو في غاية الجمال... والسماء صافية، والشمس ساطعة، وبعد قليل سأغادر إلى مدينة الملائكة... دعواتكم...

ـ في رعاية الله... أعانكم الله على وعثاء السفر... ولكن مدينة الملائكة جميلة وستنسون وعثاء السفر هناك... رزقنا الله بما رزقكم...

ثم وهو يغالب غصة في الحلق، وحزناً واضح من صوته المتهدج:

ـ أمانة في عنقك يا أخي أن تُبلّغ سلامي للحبيب المصطفى

وصحابته والتابعين بإحسان، عندما تقابلهم في الحقيقة... أمانة أسألك عنها يوم القيامة...

ـ يصلهم سلامك بإذن واحد أحد... بإذن واحد أحد...

وأغلق المحمول، وهو يشعر بشعور غريب... ممتع ولذيذ، وكأن نسائم من الأعلى تهب عليه... «اللّهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة... اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة... الجنة... ما أطيب ريحها... هذي بساتين الجنان تزينت، للخاطبين فأين من يرتاد...»، ثم أخرج الشريحة وألقاها في السيفون، وأغرقها بالماء، ووضع شريحة أخرى مكانها، ثم دس الجهاز في حقيبة اليد قبل أن يخرج. جال بنظره في أنحاء المكان قبل أن ينطلقا، ولم يلفت نظره شيء مريب، فالكل مسرع ومنشغل بشأنه، عدا عامل نظافة أسود من عمال المطار بدا وكأنه يراقبهما في ما هو ينظف المكان. توجس خيفة من نظرات العامل، ولكنه ضبط أعصابه وسار وهو يلتفت بطرف عينه، حتى إذا ما أحس بأن العامل بات بعيداً، أسرع الخطى نحو البوابة، وخيال العامل يحتل ذهنه... «سوف ننتقم لكم...»، كان يُحدث نفسه، «سوف ننتقم لكم ولسنوات العبودية التي أذلكم فيها الأمريكان، فلستم معتبرين من الأمريكان رغم أنكم من عمر ديارهم، وزرع غذائهم... بل سننتقم لكل البشرية المظلومة، وستنعمون يوماً بعدل الإسلام... ولكنكم لا تعلمون...» وعندما أوشكا على الوصول إلى البوابة، توقفا لبرهة وأخذا يدعوان بحرارة وبصوت هامس كأنه رعد بعيد: «إن ينصركم اللّه فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون.. لا إله إلاّ اللّه وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده... الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً

وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل... اللّهم إني أعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء... اللّهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم... اللّهم ثبتني واجعلني هادياً مهدياً... اللّهم اجعل بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً، وأغشهم فهم لا يبصرون... اللّهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللّهم اهزمهم وزلزلهم... اللّهم اكفنيهم بما شئت... اللّهم باسمك أحيا وباسمك أموت...».

ثم جمع كل منهما كفيه ونفث فيهما، وقرأ سور الصمد والفلق والناس، ومسحا بعد ذلك رأسيهما ووجهيهما وما استطاعت أيديهم أن تصل إليه من جسديهما ثلاث مرّات، ثم انطلقا وقد أيقنا أنه لا شيء يقف الآن بينهما وبين الجنة ونعيمها المقيم، غير عابئين بنظرات الاستغراب التي احتلت عيون المسافرين العابرين وهم يرونهما يقومان بهذه الحركات غير المفهومة...

* * *

أخذ يتفقد المكان من حوله بطرف عينه التي أكسبها التدريب والذكاء خبرة لا تعادلها أي خبرة، ثم أخذ يتمشى قليلاً بين البوابات، فأفلتت منه ابتسامة رضا وهو يرى الأخوة من المجموعة الأخرى وقد جلسوا متفرقين أمام بوابة الصعود إلى رحلة «يونايتد» رقم 175 إلى لوس أنجلوس: الأخ مروان (أبو القعقاع القطري)، والأخ حمزة (جليبيب الغامدي)، والأخ مهند (عمر الأزدي)، والأخ أحمد (عكرمة الغامدي)، والأخ فايز (أبو أحمد الإماراتي)، عاد إلى بوابته وجلس وهو ينظر بطرف عينه إلى المجاهدين في مجموعته، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض بنظرات خفية، وبسمة جذلى تتراقص في النفوس، فقد

أصبحت الجنة قاب قوسين أو أدنى، ممزوجة بقلق يفرض نفسه، ولكنهم يحاولون إبعاده بقراءة آيات من القرآن الكريم وبعض الأدعية المأثورة عن النبي وهو يستعد لغزوة من غزواته. أما محمد، فقد أشغل نفسه طوال الوقت بقراءة سورتي التوبة والأنفال، وبعض الأدعية المأثورة من الكتاب والسنة، غائباً عما حوله في عالم غير هذه الدنيا الدنيئة، وهو يتصور نفسه وقد دخل الجنة، وكانت زوجه أول من يستقبله هناك وهي تحمد اللّه على أن رزقها بمجاهد شهيد مثله، وهو يحمد اللّه على أن رزقه الشهادة، ومنحه حورية مثلها. يا إلهي ما أطول هذه الدقائق الباقية فكأنها الدهر كله، وما أثقلها على النفس... حياته الماضية كلها لا تعادل هذه الدقائق القليلة المتبقية في طولها، فمتى يطيرون حتى يذهب إلى ما أُعد له في الجنة من نعيم مقيم... لم يكن يفكّر بأنهار الخمر والعسل والماء واللبن، بقدر ما كان كل تفكيره عن تلك التي سوف تستقبله حال دخوله الجنة... كم هو مشتاق إليها، وكم هي مشتاقة إليه، وأي نعمة أكبر من ذلك، أن يكون الشوق مشتركاً... كم يتمنى لو أن الأخ أبو بكر اليماني والأخ أبو عمرو المغربي كانا معهم، فقد كانا يتمنيان دائماً أن يموتا في سبيل اللّه، وكان من المفروض أن يكونا معهم في هذه الغزوة، ولكن الأمريكان لم يمنحوهما تأشيرة دخول، وحرموهما من الجنة التي طالما حلما بها، ولكن الجهاد لا يتوقف، والجنة لا تزول، فسينتظرونهم في الجنة إن شاء اللّه. أما عزاؤه في هذه اللحظة فهو أن أبو بكر الآن في أفغانستان، حيث النقاء والجهاد، وأبو عمرو في فرنسا يتهيأ لعمل ضد طواغيت العصر من الأمريكان، ولا بدَّ أن يأتي يوم يكونان فيه من الشهداء كما تمنيا، وساعتها سيكون أول مستقبليهم في الجنة إن شاء اللّه.

زفر بشدة، ثم أخذ ينظر إلى رفاقه من طرف عينه نظرة أخيرة قبل الإقلاع، متفحصاً كل شيء بسرعة وكأنه لا يعرفهم، وهم لا يعرفونه، رغم أن العلاقة بينهم أقوى من علاقة الأخر بأخيه، بل والأم بوليدها. تأكد من محتويات حقيبته للمرة الألف ربما، وخاصة ذلك المشرط الحاد. كان خائفاً كل الخوف من أن يصادرونه عند اكتشافه، ولكن الحقيبة مرت من تحت الجهاز في مطار بورتلاند دون أن يقولوا له شيئاً، وهذا دليل آخر على رعاية اللّه لهم، وأن تقنيتهم الفخورون بها لا تضر ولا تنفع إلاّ بإذن اللّه... فاللّه هو سبب كل شيء، ولكن الناس لا يعلمون. أدرك ذلك منذ أن قرأ «المنقذ من الضلال» للغزالي، فرغم أنه يعتبر الغزالي من الصوفية التي خالفت المحجة البيضاء، إلاّ أنه في كتابه هذا قد أزال كل التباس في أن اللّه هو سبّب الأشياء وليست الأشياء بذاتها... النار لا تحرق لأن فيها قوة الحرق، ولكن لأن اللّه أراد لها ذلك، فهي لم تحرق إبراهيم عليه السّلام... والهواء ليس سبباً للحياة لو أن اللّه لم يجعله كذلك، وإلاّ لمات يونس في بطن الحوت وقد سجن فيه أربعين يوماً... كل شيء بالإرادة... ولا شيء إلاّ بالإرادة، ولكن الكفرة لا يريدون أن يعلموا. كم كان بوده لو أن تلك السكين التي اشتراها من مطار زيورخ، عندما توقف في رحلته الأخيرة إلى مدريد، هي التي كانت معه الآن، فقد تفاءل بها منذ أن رآها معروضة في ذلك المتجر، وتصورها وهي تجز عنق كافر لا يأبه بوجود الرحمن الرحيم، ولكنه خشي أن تُثير الشكوك، فألغى فكرة استخدامها، والخيرة في ما اختاره اللّه في كل حال... الخيرة في ما اختاره اللّه...

أخرج تلفونه المحمول من جيب بنطاله، واتصل على رقم معيّن، وجاءه الصوت من الطرف الآخر.

ـ السّلام عليكم يا أخ أبو عبد الرحمن. . .

ـ وعليكم السلام يا أخي أبو طارق. . . كيف الأجواء عندكم في نيوأرك؟

ـ جميلة. . . كل شيء تمام. . . يوم صيفي جميل حقاً. . . يذكرني ببيروت. . .

ـ سترى ما هو أجمل من بيروت إن شاء اللّه. . . برعاية اللّه وتوفيقه. . . نراكم قريباً في مدينة الملائكة. . .

ـ إن شاء اللّه. . . إن شاء اللّه. . . في رعاية اللّه. . .

ثم ضرب أزرار النقال مرة أخرى:

ـ السلام عليكم يا أخ عروة. . .

ـ وعليكم السّلام يا أبا عبد الرحمن. . .

ـ كيف الأجواء عندكم في واشنطن؟

ـ جميلة جداً، لولا بعض المنغصات التي وقانا اللّه شرها. . .

ـ مثل ماذا؟

ـ كادوا يعطلونني عن الرحلة لمجرد الشك، لولا أن شغلتهم فتاة جميلة كانت مسافرة على الرحلة نفسها. . . فقد انشغلوا بمفاتنها ونسوني. . .

ـ حسناً. . . لقد فهمت. . . نلتقي قريباً في مدينة الملائكة إن شاء اللّه. . .

ومرة أخرى:

ـ السّلام عليكم يا أخ أبو القعقاع. . .

ـ وعليكم السّلام أخي أبو عبد الرحمن. . .

ـ على موعدنا؟

ـ على موعدنا إن شاء اللّه. . .

ـ نلتقي في مدينة الملائكة إن شاء اللّه؟

ـ نلتقي هناك بإذن واحد أحد. . .

ـ في رعاية اللّه. . .

ـ في رعاية الكريم. . .

أغلق الهاتف ثم استرخى على مقعده. مطمئناً بأن كل شيء على ما يرام، فأخذ يملس على ذقنه بهدوء وهو مستغرق في تفكير عميق، وهي عادة اكتسبها منذ أن ترك العنان لِلحيته أن تنمو بعد رحلته إلى حلب، قبل أن يحلقها قبل عدة أشهر تضليلاً للمتابعين، واستعداداً للغزوة. كم كان متألماً من حلق لحيته، فهي سنة نبوية، وزينة الرجال، وعنوان الهوية التي اكتشفها وهو على غير استعداد أن يتخلى عنها أبداً، ولكن للضرورة أحكام. فلو أنه كان مضطراً لحلق كل شعرة في جسده من أجل نجاح العملية لما تردد. ألم يشرب الخمرة من أجل نجاح الغزوة، وهو الذي لم يكن يشربها حتى قبل أن يهديه اللّه إلى جادة الحق، وهو يرى من يشربونها يفقدون عقولهم التي ميّزهم اللّه بها من بين كل خلقه، فيصبحون كالبهائم والأنعام، بل وأضل سبيلاً. بل لو أن نجاح العملية كان معتمداً على نحر نفسه بيده لما تردد، رغم أن قتل النفس من أكبر الذنوب المخلدة في النار والعياذ باللّه. وابتسم ابتسامة باهتة بالرغم منه حين تذكر أنه إنما يقتل نفسه فعلاً، ولكن شتان بين قتل النفس عبثاً، وقتلها في سبيل اللّه، في سبيل من فطرها لأول مرة. . . في سبيل من اشتراها منهم بأغلى الأثمان، والتمتع بالخلود في جنة عرضها السماوات والأرض. بل إنه لا يقتل نفسه، فهو يُضحي بها من أجل خالقها، كما كان إبراهيم يريد التضحية بابنه الوحيد تنفيذاً لأمر

الله، وشتان بين الانتحار والتضحية. بل إنهم لا يفعلون أكثر من تسليم سلعة مشتراة إلى مشتريها... ولكنه أحس بوخز عابر في صدره، وانقباض في المعدة، مع ألم طفيف في الحلق وهو يرى كل هؤلاء المسافرين الذين لا يعلمون أنهم ميتون بعد دقائق معدودة... ما ذنبهم؟ أخذ يفكّر... ولكنه سرعان ما سيطر على نفسه المترددة، وأخذ في قراءة المعوذتين وآية الكرسي والتعوذ بالله من الشيطان الرجيم... إنه الشيطان الرجيم الذي لا يكف عن محاولاته ووسوسته لثنيه عن العمل المقدس الذي هو مقدم عليه. إنهم يستحقون الموت والتعجيل بأرواحهم إلى جهنم وبئس المصير، أليسوا ممن يدفعون الضرائب إلى حكومتهم، وبتلك الأموال يقهرون الإسلام والمسلمين؟ أليسوا كلهم يخدمون في الجيش، أو خدموا في الجيش؟ أليسوا يرون الظلم ولا يستنكرونه، بل ويعينون عليه؟ هم محاربون إذاً، والمحارب ليس له إلاّ القتل، بل والذبح من الوريد إلى الوريد. وحتى لو لم يكونوا من المحاربين، فإنهم من الكافرين، عبدة الأوثان والدرهم والدينار، لا يهمهم من هذه الحياة إلاّ إشباع فروجهم وبطونهم، فهم كالأنعام أو أضل سبيلاً. لو لم يكونوا إلاّ كذلك، لكان ذلك كافياً لقتلهم وتطهير العالم من حضارتهم الجاهلية. بلادهم دار حرب، ودار الحرب يجوز للمسلمين أن يضربوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ودماء أهلها وأعراضهم وأموالهم حلال للمسلمين، تأسياً بسيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع المحاربين، وخطف رعاياهم كما فعل مع بني عقيل، وقطع الطريق على قوافلهم كما فعل مع قريش، واغتال رؤسائهم كما فعل مع قريش وكعب بن الأشرف وسلمة ابن أبي الحقيق، وحرق أرضهم كما فعل مع بني النضير، وهدم حصونهم كما فعل في الطائف. أحس بارتياح لهذا التبرير والتفسير، وأخذ ينظر حوله

منتظراً اللحظة التي يقود فيها هذه البهائم إلى نار السعير، ويذهب هو وأخوته إلى جنة الخلد وسعادة لا تفنى.

لعن الله الشيطان، فهو لن يتركنا حتى لو كانت الروح قد بلغت الحلقوم، أعوذ بالله منه... لو أن كل المؤمنين كانوا بعزم الشيطان على تحقيق كلمة الله على الأرض، لما كان المسلمون بهذا الوضع الذليل، الذي جعلهم ضحية كل جلاد، ومطمعاً لكل طامع، من كافر ومدع إيمان على السواء... نعم... لن يعود المسلمون أسياداً للدنيا إلاّ بالعودة إلى الجهاد... هذه الفريضة الغائبة والمغيبة... ذروة سنام الإسلام... فما ترك قوم الجهاد إلاّ ذلوا... وأحس بالراحة تسري في سراديب نفسه من جديد، فأخذ نفساً عميقاً وهو يستعرض المسافرين من جديد... ما ذنبهم؟ ذنبهم أنهم سادرون في هه الحياة كالأنعام، لا يفكرون إلاّ في الطعام والشراب والنكاح، كالحيوانات تماماً، وهم من نفخ الله فيهم من روحه، ولذلك حق عليهم أن يموتوا كالحيوانات دون رأفة أو شفقة... بل إن الحيوانات أفضل منهم، إذ يستفاد من ركوبها وأكلها، وقد جعلها الله كذلك، أما هؤلاء... فقد خلقهم الله بشراً، وأخذ عليهم الميثاق قبل أن يخرجوا من ظهور آبائهم،ولكنهم رفضوا نعمة الإله فحقت عليهم النقمة كما حقت اللعنة على بني إسرائيل من قبل... ليسوا أبرياء... بل كلهم مشتركون في مؤامرة إذلال المسلمين وحربهم، فليأذنوا بحرب من الله ورسوله إذن... وراودته نفسه المتحمسة لأن يصدح بالتبكير والتهليل، ولكنه أدرك أين هو، فأرغم نفسه على الصمت، فما هي إلاّ دقائق ويدوي التكبير في أرجاء الدنيا كلها...

كان غارقاً في أفكاره، حتى أنه لم ينتبه لتلك العجوز المتصابية التي جلست إلى جواره، بل إنها تكاد تلتصق به وتكاد تحتك به، وقد

انبعثت منها رائحة عطر رخيص نفاذ، وارتدت «تي شرت» أبيض، و«شورت» أحمر فاقع اللون، ضيق يلتصق بعظامها التصاقاً، وقد بدت سيقانها وقد انتشرت عليها حبيبات سمراء وبقع بيضاء. اقتحمت الرائحة خياشيمه دون استئذان، وذكّرته برائحة المومسات اللاتي يتسكعن على أرصفة الشوارع في لاس فيغاس وفي فنادقها، أو قرية لوط كما كان يسميها، كان واضحاً أن المتصابية تحاول فتح باب الحديث والتعارف، ولكنه كان في شغل شاغل عنها، بل وأثارت اشمئزازه بعطرها الرخيص، حتى إنه بدأ يشعر بالغثيان. أما تلك الفتاة الشقراء التي تجلس قبالته وهي تمسك كتاباً، فقد كان واضحاً أنها غير متابعة لحروفه أمامها، كانت الأخرى تود التعرف إليه، إذ إن عينيها لما تفارقاه، وكانت ابتسامة جميلة تلوح على شفتيها في دعوة صريحة للتعارف، منتظرة بسمة منه أو تحية عابرة كي تردها بأحسن منها، ولكن محمد كان في عالم آخر، رغم أن هيئته لا توحي بأي شيء من تلك المشاعر التي كانت تتأجج في صدره، والتي لا علاقة لها بفتيات هذا العالم، إذ كيف يفكّر بهن وهو مزفوف إلى من لو أنها كشفت عن جزء من ساقها لأضاءت له الدنيا، أو حتى لو بصقت في سبعة أبحر، لعذبت البحار من عذوبة ريقها، كما ورد عن سيد الخلق، عليه صلوات الله وسلامه... النحلة لا تبصق إلاّ العسل، والحورية لا تبصق إلاّ كل شهد... شهد ليس كشهد الدنيا، وكيف له أن يكون؟

***

لم يكن لديه ميل كبير نحو الفتيات حتى قبل أن يهديه اللّه للصراط المستقيم، رغم أنه عاش بين الفتيات طوال حياته. فهو الابن الوحيد بين فتاتين، وطوال أيام صباه كان لا يرى إلاّ الفتيات في منزله:

أخواته وبنات خالته وبنات الجيران، ولم يكن يعبِّر عن مشاكله إلاّ لوالدته، فقد كان والده شديداً رغم حنانه الذي يشعر به يعتمل في داخل صدره. وعندما أصبح في الثانوية ومن بعد ذلك الجامعة، كان لا يجد تلك المتعة التي يجدها أترابه في معاكسة الفتيات ومغازلتهن، رغم أنه كان يفعل ذلك أحياناً مجاراة لأصدقائه ليس إلا. وعندما أدى فريضة الحج قبل ستة أعوام تقريباً، كان يُحس بأن عليه أن يُكمل دينه، وازداد هذا الإحساس بعد انضمامه إلى قافلة الجهاد، فمن غير المستحسن أن يموت وهو أعزب، ولكنه لم يجد الفتاة التي تلائم مقاييسه. فهو لا يثق بالألمانيات، حتى وإن كن من المسلمات، رغم أن زوجتي صديقيه المصريين نادر وأيمن قدمتا له الكثير من الفتيات الألمانيات الجميلات، وبعضهن كن من المتحولات إلى الإسلام، والأخريات كن على استعداد للدخول في الإسلام، ولكنه كان يرفض بشدة. بل إن أصدقائه وأخوته في مسجد القدس عرضوا عليه بعض الفتيات التركيات والعربيات التقيات، ولكنه كان يرفض بشدة أيضاً. كانت الزوجة التي يبحث عنها تحمل صفات أمه، أو يجب أن تكون قريبة منها في حشمتها وأخلاقها وتقاها وطيبتها. كثير من الإخوان تزوجوا من عربيات أو ألمانيات مسلمات أو تركيات، وكانوا يحثونه على الزواج، مذكرينه بأنه لا يجوز أن يقابل ربه أعزباً، خاصة بعد أن وضع روحه على كفه مجاهداً، ولكنه كان يرفض أشد الرفض، حتى أنه كره صديقه زياد لفترة من الوقت عندما أخبره بأنه تزوج من صديقته أسيل التركية. لم يكن راضياً عن علاقة زياد بأسيل قبل الزواج، وأصبح أكثر سخطاً بعد الزواج. لم يكن يهمه الجمال كثيراً إذا توفرت بقية الصفات، ولكنه لم يجد أمه في كل الفتيات اللاتي تعرف بهن، أو عُرف بهن. وطافت أمل في ذهنه، فأفلتت منه ابتسامة بالرغم منه. لقد

كانت كاملة الأوصاف حتى في جمالها الهادئ، وأحس معها بأن قلبه يخفق بحب حقيقي لأول مرة في حياته، ولكنها أبت أن تتحجب حجاباً إسلامياً كاملاً رغم حشمتها، فداس على قلبه في سبيل الله.

وطافت في ذهنه الليلة الأخيرة التي اجتمع فيها الخمسة لآخر مرة قبل العملية في فلوريدا... هو وأبو سلمان، وأبو مصعب، وأبو العباس، وعزمي... كانوا يقرأون القرآن كثيراً تلك الليلة، وقد عرفوا أن سعر الجنة قد أزف موعد سداده. وفي تلك الليلة فقط أطلعهم على معظم تفاصيل العملية، فهو وأبو العباس الذين كانا يعرفان كل التفاصيل قبل ذلك. بل إن أبا العباس نفسه لم يعرف كل التفاصيل إلاّ قبلها بليلة واحدة، في ما عرف أبو طارق وأبو القعقاع وعروة، بكافة التفاصيل في آخر اجتماع لمجلس الشورى في لاس فيغاس قبل عدّة أيام لا تتجاوز السبعة. كان لا بدّ لمجلس الشورى المكوّن من قادة الطائرات أن يعرفوا كل التفاصيل من أجل التنسيق، رغم أن محمد كان يحبذ أن لا يعلم أحد بالتفاصيل قبل ليلة واحدة على الأكثر من الغزوة. في تلك الليلة فقط أبلغهم بأنه بعد يومين سيكون الموعد الذي سيرضى عنهم فيه الرب الذي من أجله يفعلون ما يفعلون، سيدخلون الجنة من أوسع أبوابها. أصبح الجميع يعرفون كل التفاصيل تقريباً، وأنهم سيقومون بخطف طائرة من مطار لوغان، وأنه خطف بلا مطالب، وسفر بلا عودة. بل إنه حتى الشيخ (أبو عبد الله، أسامة بن لادن) لم يعرف بموعد الغزوة إلاّ قبل خمسة أيام من التنفيذ، عن طريق الأخ أبو بكر. وفي غرفتهما المشتركة في فندق «كومفورت إن» في بورتلاند، وبعد أن أنهيا جولة في المدينة أنهياها بوجبة من البيتزا في مطعم «بيتزا هوت». كان أبو العباس في غاية السعادة والإثارة وهو يقول جذلاً: «غداً... وفي مثل هذا الوقت، سنكون في جنان الرحمن إن شاء الله...

ناعمين راغدين بصحبة الحور العين، حيث لا نسمع فيها لاغية... كم أنا مشتاق للقاء ربي أيها الأمير...»، ثم وهو يأخذ نفساً عميقاً، «يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما من عبد يدخل الجنة إلاّ ويزوج ثنتين وسبعين زوجة، ثنتان من الحور العين، وسبعين من أهل ميراثه من أهل الدنيا، ليس منهن امرأة إلاّ ولها قُبل شهي، وله ذكر لا ينثني، ويقول صلّى الله عليه وسلّم: «يزوج إلى كل رجل من أهل الجنة أربعة ألف بكر، وثمانية ألف أيم، ومائة جوار، فيجتمعن في كل سبعة أيام، فيقلن بأصوات حسان لم يسمع الخلائق مثلهن، ويقلن نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبؤس، ونحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن، طوبى لمن كان لنا وكنا له»... عسى أن يكن لنا ونكون لهن... عيل صبري أيها الأمير...» وابتسم محمد وهو يسمع أحب الألقاب إلى نفسه، وهو اللقب الذي كان الإخوان ينادونه به، وقال: «إن شاء الله يا أخي... إن شاء الله... إن غداً لناظره لقريب...»، وكان هو ذاته في أشد الشوق للانعتاق من الدنيا والذهاب إلى الجنة، فمنذ أن انخرط في الجهاد في سبيل الله، وهو يتمنى أن يرزقه الله الشهادة في سبيله، وها هي تأتيه على طبق من ذهب، فشكر الله وأثنى عليه، وقضى الاثنان ليلتهما في الصلاة والدعاء، ومراجعة كافة التفاصيل من جديد...

* * *

كان عبد العزيز يعلم أن هذه المهمة تختلف عن أي مهمة أخرى أُوكلت إليه، سواء في أفغانستان أو غيرها، وكان لديه إحساس بأنها المهمة التي طالما حلم بها طوال حياته. فمنذ تلك اللحظة التي صوّره فيها الإخوان في قندهار وهو يدعو شباب المسلمين إلى الجهاد، وينتقد

فيها شيوخ السلاطين الذين باعوا دينهم بدنياهم، ونفاقهم وتكالبهم على الدنيا على حساب دينهم، وهو يعلم أنه مقبل على عملية ليست كأي عملية أخرى قام بها في حياته. كانت عيونه تتوقد كالجمر بعد تصوير تلك الكلمة في الفيديو، وكان يُحس بأنه قنبلة متفجرة تود أن تنفجر في أي لحظة، لتأخذ معها أعداء اللّه في كل مكان، فكان يسأل عن موعد العملية ومتى تكون، ولكن نظرات الإخوان الهادئة، ومباسمهم الجذلى بكل هذه الحماسة، كانت تدعوه إلى الصبر، ولكنه كان عجلاً للوصول إلى الجنة. وهو إن نسي فلن ينسى تلك البسمة الهادئة والمشجعة التي ودعه بها الشيخ أسامة عندما رآه لآخر مرة قبل عدة أشهر في أحد بيوت الضيافة في قندهار. ربت على كتفه، وهو ينظر إليه بعينين ملؤهما السكينة والثقة، ويقول: «بمثلك يعود الإسلام عزيزاً... هنيئاً لك الجنة... هنيئاً لك الجنة يا أبا العباس»، ثم عانقه وانصرف مع حراسه وتركوه وحيداً، تمتلئ نفسه بمشاعر متمازجة من الحب والفخر والحماسة... وشيء من الخوف، وصوت في داخله يصرخ به مشجعاً: «تبسم لوجه الرضا يا فتى، فإنك ماض لجنات الخلد»...

كان الجميع في المجموعات الأربع يعلمون بشكل ما أنهم سيقومون بعملية استشهادية، وإن لم يعلموا كنهها. فمنذ أن صورت وصايهم على أشرطة فيديو في قندهار، أدركوا أنهم مقبلون على الموت، وكان ذلك منتهى أملهم، فقد سئموا الحياة الدنيا، ويريدون الجنة بأسرع وقت ممكن. وعندما سأل الإخوان محمد عن المطالب التي سيطرحونها بعد الخطف، أبلغهم أن كل شيء في ميعاده، وأنهم سوف يعرفون كل شيء في الوقت المناسب، وما عليهم سوى السمع والطاعة حتى يصبح الوقت ملائماً، ثم قرأ: «وأطيعوا اللّه ورسوله ولا

تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن اللّه مع الصابرين»، وابتسم الجميع، إذ أدركوا أن الجنة قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى، كما ابتسم محمد باقتضاب، فهو يعلم أنهم يعلمون بطريقة ما، فقلب المؤمن دليله، ولكنه لا يستطيع إخبارهم بأي شيء قبل الموعد المخطط له حفاظاً على أمن الغزوة. وفي الصباح الباكر، وقبل أن تشرق الشمس على عالم لا يدري ما يخبئ له القدر في جوفه، صلّوا الفجر جماعة، وتعاهدوا من جديد على الجهاد والموت في سبيل اللّه، ثم احتضنوا بعضهم البعض والدموع تجاهد للخروج من المآقي، وأخذوا يقرأون بصوت واحد: «آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف اللّه نفساً إلاّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربما ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين...».

ثم حزموا أمتعتهم القليلة، واستقلوا السيارة المستأجرة إلى المطار، حيث انقسموا إلى ثلاث مجموعات، أبو عبد الرحمن وأبو العباس في مجموعة، وأبو سلمان وأبو مصعب في مجموعة، وعزمي وحده. وانطلق محمد وعبد العزيز إلى بوسطن، بينما ذهب الشقيقان إلى نيويورك، وسطام وحده إلى بوسطن، على أن يلتقوا في مطار لوغان صباح يوم الثلاثاء. في المطار... مطار ميامي، وقبل أن يتفرقوا، بيّن لهم أبو عبد الرحمن تفاصيل ما هم مقدمون عليه، وأن مهمتهم هي خطف الطائرة من أجل إطلاق سراح بعض المعتقلين من المجاهدين، ولكنه لم يخبرهم حتى في تلك اللحظة بأن الموت هو

النهاية. كان يعرفهم، ويعلم أنه حتى لو قال لهم إن الموت هو النهاية، فلن يتراجعوا، ولكن التعليمات لديه كانت صارمة بهذا الخصوص. كان هناك شيء ما في داخله يؤنبه على هذا الكذب، فهو في قرارة نفسه يشعر بأنه غش هؤلاء الشباب ودفعهم إلى موت لا يدري هل يقبلون به أم لا، رغم قناعته بصدق إيمانهم واستعدادهم للتضحية بكل شيء في سبيل الله، ولكن هناك وخز خفي لم يستطع إبعاده إلاّ بقمعه بشدة، وتبرير كل ذلك بأنه نوع من الخدعة في الحرب، وهي خدعة جائزة، وقد مارسها رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، في كثير من غزواته. تعاهدوا على الوفاء والإخلاص قبل أن يغادروا السيارة، ودخلوا المطار من أبواب متفرقة، بمثل ما فعل أبناء يعقوب، ولكن خشية الأمن لا خشية الحسد هذه المرة، وفرداً فرداً كي لا يلفتوا الانتباه في اللحظات الأخيرة. وفي الليلة الأخيرة، انشغل محمد بإرسال رسائل إلكترونية للمجموعة مذكّراً، ولقيادة التنظيم مؤكداً يوم الغزوة. وقبل ذلك بفترة وجيزة، كان قد أرسل رسالة إلكترونية إلى بعض الإخوان في هامبورغ ولندن يقول فيها إن: «الوجبة المقبلة ستكون كبيرة جداً، ولن يكون هناك أي شخص قادر على الصمود أمامها إلاّ صاحب إيمان. ولن يكون هناك أي شخص قادر على كشفها». تأسف كثيراً بعد إرسال هذه الرسالة، فقد أخذته الحماسة والعاطفة أكثر مما يجب، فقد تقع الرسالة في يد خائنة وتنكشف العملية قبل الأوان لو فسرت، وعاش على أعصابه لفترة طويلة بعد هذه الرسالة، ولم يهدأ إلاّ بعد أن ركب الطائرة وبدأت محركاتها في الدوران...

* * *

بدأت المتصابية تضايقه فعلاً، فبعد أن رشت شيئاً من العطر الرخيص بين أذنيها، التفتت إليه وهي تقول:

ـ أنت من الشرق الأوسط؟ واضح أنك كذلك... شكلك ورائحتك ينمان عن بلدك... رائحتك تستهويني... تعود بي إلى أجواء شهرزاد... آه... كم أعشق الشرق وأهل الشرق...

بقي محمد غارقاً في صمته، وهو يحاول الاقتصاد في أنفاسه، وبسمة بلهاء ترتسم على فيه. ثم أخذت في الحديث عن أيامها الجميلة في لوس أنجلوس، عندما كانت لوس أنجلوس جميلة ومدينة ملائكة فعلاً، وليس كالآن، مجرد مجموعة من المباني والاسفلت. لقد قضت هذه الحضارة الإسمنتية والزفتية، كما أسمتها، على خضرة الأرض وزرقة البحر وهواء الجبل ودفء الشمس الذي كانت تتمتع به كاليفورنيا على أيامها. وروت له كيف أنها تعشق الشرق وأهل الشرق، وكيف أنها قرأت رباعيات الخيام وألف ليلة وليلة فهامت بها حباً، وتمنت لو أنها مجرد جارية من جواري ذاك الزمان، فيما هي تقترب منه أكثر، فتشمه وهي مغمضة العينين، ثم تغرق نفسها في كل حين بذلك العطر الرخيص الذي يكاد يخنقه. وأخذت تقرأ على مسامعه أبياتاً من رباعيات الخيام حفظتها عن ظهر قلب، وكانت بادية النشوة وهي تقرأ تلك الأبيات، في ما كان محمد يستمع كارهاً لهذه الأبيات الكفرية الصادرة عن كافر أشد كفراً من الحيزبون التي بجانبه. وحذرته من أن ينتهي أمر الشرق إلى ما آل إليه أمر الغرب، وهي تهز سبابتها في وجهه وكأنها تعرفه منذ زمن: «إياكم ووهم الحضارة... الحضارة عندكم، حيث البراءة والبساطة... لقد قضينا على سكان هذه البلاد الأصليين، ولكننا نعاقب اليوم بكل هذا البرود، وكل هذه المادية التي كسبنا بها كل شيء، ولكننا فقدنا أنفسنا... أضعنا أرواحنا... وما الفائدة في أن نكسب عالماً بأسره ونخسر أنفسنا، كما قال مخلصنا وربنا يسوع المسيح».

كان مستغرقاً في السماع، وكأن كلماتها كانت تمس شغاف قلبه،

وإن استفزته عبارة «ربنا يسوع المسيح»، وود لو أن الوقت غير الوقت، فربما دعاها إلى الإسلام حيث تجد الطمأنينة والحياة الكريمة، بعيداً عن الكفر وهذه القذارة التي تعيش فيها، فتكسب الدنيا والآخرة معاً، ولكن هذا العطر الرخيص وذاك الصليب الذي يتدلّى من عنقها يجعلانه يشعر بالغثيان، ويجعلانه يحس وكأنه غارق إلى قمة رأسه في برميل قمامة لا يعرف كيف يخرج منه. وفي الوقت ذاته، كانت الشقراء لا تريد أن تتركه لأفكاره، فهي تلاحقه بعينيها تارة، وتعبث بشعرها بحركة مثيرة تارة أخرى، وقد وضعت ساقاً على ساق مما جعل فخذها الأبيض المشرب بحمرة مكشوفاً أكثر مما هو مكشوف من خلال الشورت الأصفر الذي يكاد يكشف ما تحته. أحس بالحرارة تسري في جسده، والعرق يتفصد كتلاً من كل أجزاء جسده، وتوتر يعرفه يغزوه من الداخل، فاستعاذ باللّه من الشيطان الرجيم عدّة مرّات، ونهض حيث جلس على مقعد آخر، معطياً ظهره للفتاة والعجوز التي أبدت امتعاضها من نهوضه دون كلمة ود أو استئذان، حين رددت عدّة مرّات: «متخلفون... متخلفون... التخلف في جيناتهم مهما حاولوا أن يتحضروا...». شعر بمقت شديد نحوها، وود لو كان بإمكانه صفعها والبصق في وجهها، ولكن تمالك نفسه، فنجاح الغزوة أهم، وعما قليل ستكون هي ومن معها في الدرك الأسفل من النار. أما الفتاة فقد أغلقت الكتاب بقوة وهي تضعه جانباً وتنخر بغضب: «لقد مللنا الانتظار... متى نصعد إلى الطائرة؟»، في ما بقي عبد العزيز في مكانه منشغلاً بقراءة «الواشنطن بوست»، رغم أنه لا يعرف من الإنجليزية إلاّ بعض المبادئ، وينظر إلى الفتاة بنظرات فقدت كل معنى، فهو يراها ولا يراها في الوقت ذاته، بل إنه لم يكن في المكان رغم أنه في المكان. فهو في انتظار الزفاف إلى عروسه السماوية، وما هذه الفتاة

إلاّ قذارة من قذارات الدنيا، ومأواها جهنم بعد دقائق معدودة، ولعل اللّه يجعل قومها من غنائم المسلمين في هذه الحرب المقدسة ضد الكفر والمشركين. . .

كان المكان الذي اختاره محمد أقرب إلى الواجهة الزجاجية التي تشرف على ساحة المطار، فرأى العمال وهم يشحنون العفش في الطائرة. حدّق في الطائرة لبرهة، وزاد وجهه صرامة وهو يفكّر. . . يا لها من قنبلة لم يفكر الأعداء بخطرها، وسهولة الحصول عليها. . . كم أنت عظيم يا أبا عبد اللّه، وكم أنت دقيق يا أبا حفص، وكم أنت ذكي يا خالد، فقد أثبتم لهم أننا لسنا من الأغبياء، إن تقنيتهم سوف تكون سلاحنا في حرب ظلمهم وعدوانهم واستهانتهم بنا. كم كان يتمنى لو أن مروان وزياد هما رفيقاه في هذه الرحلة، ولكن ما الفرق؟ فهما الآن في مهمات شبيهة وما هي إلاّ دقائق معدودة ويكونون في الجنة جميعاً إن شاء اللّه، يضحكون فرحين بما أتاهم. إنه يعلم طبيعة المهمة الموكلة إليهم بالضبط، والأهم أنه يعلم أن عرش الشيطان الأكبر، عرش أميركا ذات الشرور سوف يهتز في هذا اليوم الأغر من شهر جمادى الآخرة، وسوف تعرف أميركا أن عباد الرحمن الصادقين لن يخنعوا أبداً، وهم يحبون الموت كما يحبون هم الحياة، وهذا هو الفرقان بين عباد الرحمن وعبيد الشيطان. . . عباد الرحمن يريدون الآجلة، وعبيد الشيطان يريدون العاجلة. . .

* * *

كم يحب مروان وزياد، فمنذ أن التقاهما وتوطدت العلاقة بينهم، وهو يشعر بأنهما توأمي روحه، رغم فارق السن بينهم، ورغم اختلاف الجنسية. فهو قد تجاوز الثلاثين من العمر اليوم، وزياد في السادسة

والعشرين، بينما مروان في الثالثة والعشرين، ولكن ماذا يهم؟ فالعلاقة التي تجمعهم هي علاقة عقيدة وإيمان تسمو على كل نوع آخر من العلاقات. وقد توفي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وكان أسامة بن زيد، وهو ابن السابعة عشرة، من صحابته وقواد جيوشه، بل ألم يتوفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، وعبد اللّه بن عباس لم يتجاوز التاسعة من العمر؟ ورغم ذلك يُعد من كبار الصحابة، وله من الأحاديث ما تؤسس عليه العقيدة والشريعة. فكل شيء في العقيدة ينتهي، وكل شيء في الإيمان يذوب. بالفعل كان يحس بحب جارف لهما، ويكاد يعانقهما في كل مرة يراهما فيها، وإن كان حبه لزياد يخالطه شيء من النفور، ولكنه لم يكن يبيّن لهما ذلك الحب مهما كانت الأسباب، وكم من مرة اتهماه بجمود العاطفة، وكاد يُفصح لهما عن شغفه بهما، ولكنه كان يتماسك في آخر لحظة، ويعود «الأمير» كما كان وكما يجب أن يكون. يذكر ذات مرة أنه كاد ينهار، ولكنه صمد، ولكنه لم يستطع أن يمنع دموعه من التساقط عندما خلا بنفسه. كان يوم زواج الأخ سعيد في مسجد القدس قبل سنتين تقريباً وقد تجمع كل الإخوان في هامبورغ تقريباً، وفجأة أتاه مروان وقد غامت عيناه بالدموع وهو يقول: «واللّه أنا أحبك في اللّه يا أبا عبد الرحمن... فلولا اللّه ثم لولاك لما اهتديت، ولكان مصيري جهنم والعياذ باللّه منها». نظر إليه محمد، وقد فوجئ بعاطفة مروان الجياشة، فلم يتمالك نفسه وهو يقول: «وأنا كذلك يا أبا القعقاع... واللّه إني أحبك في اللّه... ما كنت أنا إلاّ وسيلة، فالهادي هو اللّه... وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه...»، وفجأة، اعتنقه مروان، في ما كان محمد يغالب نفسه... هل يبادله الشعور ذاته فيضمه إليه، أم ماذا يفعل... بقي التردد لدقائق، ما لبث محمد بعدها

أن أزاح مروان عنه وهو يقول: «دعك من هذه الرقة يا أخي... فالمسلم لا بدَّ أن يكون خشناً... رعاك اللّه». انفصل عنه مروان وهو يغالب دموعه، في ما بقي محمد واقفاً، وهو يحس بحنجرته وقد تورمت لدرجة الانفجار...

عندما عاد إلى غرفته في ذلك المساء، ترك لنفسه العنان، وأخذ يبكي ويبكي، حتى إذا ما جفت الدموع، تناول المصحف الذي لا يفارق سريره وأخذ يقرأ: «آمن الرسول بما أنزل إليه...»، ولم يكمل. وابتسم وهو يتذكر كيف كاد رمزي يفضحهم في ذلك العرس، فقد كان متحمساً وهو يدعو إلى الجهاد على أساس أنه فرض عين على كل مسلم، وهاجم أميركا وإسرائيل، ثم قال وقد وصلت حماسته إلى مداها: «نحن ما زلنا في بداية الفصل الدراسي، وفي نهاية المطاف سيكون هناك اختيار بمشيئة اللّه». يا له من أرعن ذلك اليوم، فلو أنه كان من بين الحضور جاسوس أو خائن، فإن الخبر كان سيصل بالتأكيد إلى أجهزة أمن الكفار وتتعثر الغزوة، ولكن اللّه ستر، وانتهت الأمور إلى خير. عاتب رمزي على رعونته بعد انتهاء حفل الزفاف، فاعتذر رمزي بأن الحماسة أخذته أكثر اللازم، وأفلتت تلك الكلمات من فيه بالرغم منه، وقال نادماً: «قاتل اللّه اللسان، ففيه تكمن آفات الإنسان... صدق الصادق الأمين، صلّى اللّه عليه وسلّم حين قال بأن الناس يكبون على وجوههم في النار بما قالوا... غفرانك يا رب... غفرانك يا رب...». ثم عادت به الذكرى إلى يوم التقى زياد ومروان لأول مرة... يا له من زمن، وكأنه كان قبل ألف عام، رغم أنه لا يتجاوز في عدد سنيّه أصابع اليد الواحدة.

* * *

كان ذلك منذ خمسة أو أربعة أعوام تقريباً، وفي مدينة هامبورغ بالذات، حين قابل زياد لأول مرة. كان زياد شاباً لتوه قادم من لبنان، وكان في سنته الجامعية الأولى آنذاك، فيما كان محمد يواصل دراساته العليا في مجال هندسة المدن في الجامعة نفسها. لم يعجبه أول الأمر، حين رآه يغشى المسجد أحياناً، وخاصة صلاة الجمعة، فمن غير الجائز أن لا يؤدي كل فروضه في المسجد. فرغم تدين زياد وحماسته الدينية الواضحة، إلاّ أن مظهره وحياته الاجتماعية لم تكن تعبّر عن تلك الحماسة وذاك التعلق بالدين، فقد كان من محبي التدخين والفتيات والحفلات الصاخبة وشرب الخمور. أرجع محمد هذا الأمر إلى كون زياد من لبنان، ومثل هذه السلوكيات قد لا تكون من الأمور المستهجنة هناك، ولكن مهما كان الأمر، فليس ذلك بالمبرر الكافي، فالإسلام جاء ليغير العالم، ويغيّر النفوس، فينقلها من الظلمات إلى النور، ومن جاهلية الشيطان إلى نور الرحمن. فالإسلام كل واحد، إما أن يؤخذ كله، أو يترك كله، ولا وسط بين الموقفين. وهو نفسه كان أكثر تفسخاً أخلاقياً من زياد، وتشهد نوادي القاهرة وشواطئ الإسكندرية على مغامراته التي يتوجع لها قلبه كلما تذكرها، ويستغفر اللّه كثيراً على تلك الضلالة التي كان يعيشها. فكم كان يحب أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وفريد وأسمهان، ولكن الإسلام يجب ما قبله، وهو يحمد اللّه كثيراً على أن هداه قبل أن يأتيه الممات، وجعله ممن هداهم وهو القادر على إبقائه على جاهليته المقيتة. كل ما يذكره اليوم عن أسمهان هو: «عليك صلاة اللّه وسلامه، شفاعة يا جد الحسنين»، وأم كلثوم... ما زال يذكر أغنية «حديث الروح» لإقبال، حيث تصيح بقوة دافقة من الداخل: «ولا دنيا لمن لم يحي دينه»، ويذكر كيف كان جسمه يرتجف وهي تصل إلى هذا المقطع من

الأغنية. ولكن الأغنية التي كانت تؤثر فيه فعلاً هي أغنية «سلوا قلبي»، لأحمد شوقي، حين كانت الست تنادي بأعلى صوتها: «وما نيل المطالب بالتمني، ولكن تأخذ الدنيا غلاباً»... ليتها بقيت... لربما أسلمت وحسن إسلامها... وكان يتمنى لها الهداية... لقد كان يحبها كثيراً رغم كل شيء...

كان يوم جمعة مباركاً حين التقى زياد بعد صلاة الجمعة في جامع القدس في هامبورغ، حيث اعتاد أن يُصلي أغلب الأحيان، فهو يشعر فيه بالراحة والسكينة أكثر من مسجد شتايندام. وقد كانت عادته أن يجلس لبعض الوقت بعد الصلاة، يتناقش في أمور الدين والدنيا مع بعد الأخوة من المصلين، بعد أن اكتسب سمعة طيبة طوال السنين الماضية، في سعة العلم وحُسن الخُلُق، رغم أن البعض كان يأخذ عليه تجهمه الدائم الذي لا مبرر له، فالمسلم بشوش ودود، ولكنه لم يستطع مسح تلك القشرة من القسوة، والتي فسّرها البعض بحزن دفين يحاول أن يخفيه تحت ذلك القناع من القسوة، التي كانت تعلو محياه دائماً، فقد كان يتذكّر قول الرسول، صلّى اللّه عليه وسلّم، لأصحابه: «لو علمتم ما أعلم، لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً». وكان الحديث في تلك الجلسات غالباً لا يتجاوز الصراع العربي الإسرائيلي، والجبروت الأميركي الذي يزدري المسلمين ويقف ضد قضاياهم دائماً. كم يكره إسرائيل، وكم يكره أميركا، فهما في النهاية شيء واحد. فاليهود يظنون أنفسهم أصحاب هذا العالم وشعب اللّه المختار، اختارهم إله خاص بهم ولهم وحدهم دون بقية خلق اللّه أجمعين، وما علموا أنهم لا شيء. والأمريكان أخذهم الغرور وغطرسة القوة، فظنوا أنفسهم الشعب المختار الجديد، وما علموا أنهم لا شيء أيضاً، فما قوتهم إلاّ لضعف الآخرين، وخاصة المسلمين الذين هم الأمة التي اختارها في

النهاية لتبليغ رسالته، وهو القائل: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»، ولكنه الجبن والبعد عن الجهاد، الذي هو سنام الإسلام، هو الذي جعل من المسلمين أذلة بعد أن كانوا أعزة. بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أصدقك حين قلت: «ما ترك قوم الجهاد إلاّ ذلوا». لقد عاد الإسلام غريباً اليوم كما بدأ وكما قال رسول الله، والقابض على دينه كالقابض على الجمر. ولولا ثلة من المؤمنين، لضاع الإسلام في عالم فيه مسلمون ولكن أين الإسلام؟

سلام عليك يا شيخ أسامة، لقد جددت العهد وبعثت الروح، وسلام عليك يا شيخ أيمن، فقد وعدت وصدقت، وسلام عليك يا أبا حفص، فقد كنت خير مجاهد في خير دين، وسلام عليك يا أمير المؤمنين عمر، فها أنت تُعيد أيام المدينة وصحابة رسول الله في كابول. كما يتمنى العيش في أفغانستان هذه الأيام، في الدولة الوحيدة التي تطبق شرع الله حقاً، ولكنه ذاهب إلى الجنة اليوم، فما أطيبها وما أطيب ريحها. وطاف في ذهنه خيال أمه وأبيه في القاهرة، وأحس بشيء كالقبضة القاسية يجتث معدته من الداخل، وشيء كالماء الدافق يحاول أن يتسلل من مقلتيه الجامدتين، ولكنه تماسك وأعاد قراءة: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم...»، فعادت السكينة تحتل مجامع قلبه، فمن يرد الله لا شيء يثنيه، ولكنها همزات الشيطان ومحاولاته غير اليائسة في الغواية والصد عن سبيل الله بكل الطرق، فأعوذ بالله منه... أعوذ بالله منه... وأخذ يقرأ: «قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلاّ عبادك منهم المخلصين، قال هذا صراط عليّ مستقيم، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين، وإن جهنم لموعدهم أجمعين...».

* * *

رغم انشراح صدره لزياد منذ أول وهلة، إلاّ أن ذلك لم يمنعه من النفور منه بعدما عرف ما كان عليه من الموبقات، فبعد الصلاة، جلس كعادته يقرأ القرآن، وما هي إلاّ لحظات حتى اجتمع حوله الإخوان. كانت الوجوه مألوفة في معظمها، ولكن لفت انتباهه وجود وجه غريب بين تلك الوجوه لم يره من قبل لشاب معتدل القامة، شديد البياض وكأنه من أهل هامبورغ. ظنه ألمانياً أسلم أول الأمر، ولكن طبيعته المرتابة في كل شيء جعلته يعتقد أنه ربما كان جاسوساً مدسوساً من قِبل زبانية الشيطان وأعوان الطاغوت، فأوجس خيفة، فقد اعتاد على الحذر منذ أن أدرك أن الجهاد هو السبيل، وأن من لا يغزو، ولا تحدثه نفسه بالغزو، فإنه يموت ميتة جاهلية، فأعداء اللّه لا ينامون، وهم يجب أن لا يناموا إذا أرادوا أن تصبح كلمة اللّه هي العليا. لم يتحدث كثيراً ذلك اليوم، وحاول أن يُبقي الحديث دائراً حول السياسة العدوانية الإسرائيلية، ولكنه شعر بارتياح غريب لهذا الشاب لم يستطع له صداً بعد ذلك، رغم كل الموبقات التي كان يُمارسها، ورغم أنه كان يحاول إجبار نفسه على عدم الإكتراث به.

عرّفه الإخوان بالشاب، وتبادلا أرقام التلفونات، رغم أن ذلك لم يكن مهماً، فهم يدرسون في جامعة واحدة، ويتقابلون غالباً في كافتيريا الجامعة، ويصلّون الجمعة في جامع واحد، ويسكنون في مساكن متقاربة في ضاحية هامبورغ. في الأيام التالية، لاحظ محمد أن الشاب الجديد لا يصلي كل الفروض في المسجد الذي أنشأه الإخوان بالقريب من الجامعة، بعد أن رفضت الجامعة منحهم غرفة فيها لتصبح مصلى، إسوة بالطلبة من البروتستانت. كم هم كارهون للإسلام هؤلاء النصارى، فرغم كل حديثهم عن التسامح والحرية، إلاّ أنهم يجدون غضاضة في أن يسمحوا للمسلمين بالسجود للواحد القهار في أروقة

جامعتهم. كلهم خبث ومكر، فهم يدعون العلمانية، ولكنهم يمارسون الاضطهاد الديني، ويستخدمون العلمانية والدين كيفما يشاؤون وحسب الظروف... قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون... وابتسم بمرارة... لو كنا من اليهود، لربما عرضوا علينا كنيساً دون أن نطلب... ولكن كلمة اللّه هي العليا، واللّه غالب على أمره ولو كره الكافرون. لم يستطع انتظار صلاة الجمعة القادمة كي يراه، فاتصل بزياد بعد تردد لم يطل كثيراً، وواعده في كافتيريا الجامعة بعد صلاة الظهر من اليوم التالي مباشرة...

* * *

نظر إلى شرائح اللحم الوردية اللون في طبق زياد، وخشي أن تكون شرائح من لحم الخنزير، فالذي يشرب الخمرة ويعاشر الفتيات ويستمع للموسيقى، لا مانع لديه من أكل لحم الخنزير. لم يستطع إلاّ أن يحذر زياد من لحم الخنزير، وأخبره بأنه لا يأكل أي نوع من اللحوم في الخارج، في ما عدا السمك إذا كان مضطراً، ولكنه يأتي به طازجاً من محلات اللحم الحلال في المدينة، ويذبح بنفسه إن كان ذلك ممكناً. طمأنه زياد بأنه أشد حرصاً منه على التأكد من نوعية اللحم المقدمة، وأن ما يراه هو شرائح لحم بقر ليس إلاّ. إلاّ أن محمداً نصحه بالابتعاد حتى عن لحوم الأنعام غير المحرمة، فهي غير مذبوحة بالطريقة الإسلامية، والبعد عنها أحوط لدين المرء، حتى وإن كان طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين، رغم أن نصارى اليوم ليسوا أهل كتاب، فقد حرفوا كتابهم، ولا يمارسون ما جاء به ابن مريم وإلاّ لكانوا من المسلمين، وإذا كان ولا بدٌ، فعليه بالأسماك حين يأكل خارج المنزل، أو الذهاب إلى المطاعم الحلال التي تملأ المدينة. هز

زياد رأسه موافقاً، في ما بدأ محمد في الحديث عما جاء لأجله:

ـ يا أخ زياد... أنت لا تصلي معنا في المسجد... أم تظن أن صلاة الجمعة كافية؟

نظرا إلى بعضهما البعض، ولم يحير زياد أي جواب، في ما واصل محمد حديثه:

ـ نحن لسنا من النصارى حتى نكتفي بعبادة الواحد القهار يوماً واحداً في الأسبوع...

ثم وهو يبتلع ريقه:

ـ أنت شاب مسلم طيب...

ثم وهو يبتسم:

ـ سيماهم في وجوههم... أعلم ذلك في داخلي، فقلب المؤمن دليله... ولكن...

وصمت لبرهة وهو ينظر إلى حبيبات الزيتون في طبق السلطة أمامه قبل أن يقول:

ـ ولكن الإسلام قول وعمل... والإيمان ليس مجرد الإقرار بالقلب دون عمل، كما تقول المرجئة قاتلهم اللّه... الإسلام «ون باكيج»، كما يقولون في الإنكليزية... تأخذه كله، أو تتركه كله والعياذ باللّه... وأي تقصير هو ترك للإسلام...

قال ذلك وهو يبعث بواحدة من تلك البسمات النادرة التي ما لبث أن استعادها بسرعة، وهو ينظر حوله وكأنما يخشى أن يكون أحد قد رآه مبتسماً، قبل أن يواصل:

ـ نعم... ون باكيج يا أخ زياد... إما أن تأخذه كله أو تتركه

كله... أم أنكم تريدون أن تأخذوا بعضاً وتتركوا بعضاً، كما كان يفعل منافقوا ذاك الزمان ومنافقو هذا الزمان؟

ثم أخذ يتلو مرتلاً بصوت رخيم: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما اللّه بغافل عما تعملون...».

ثم أخذ نفساً عميقاً بسرعة وهو يقول، غير عابئ بنظرات من حوله الذين لفت انتباههم صوته:

ـ يا أخي... الطعام اللذيذ لا يكتمل دون الملح... مهما كانت الأطايب موجودة... والصلاة ملح الدين قبل أن تكون عموده... وأنت لا تصلي... فكيف تكون من المسلمين؟ وأنا أقول لك هذا الكلام لأنني ارتحت لك، وأحببتك في اللّه، فلا أريد أن تبقى على ضلالاتك...

وضغط على مخارج الحروف في كلماته الأخيرة، وقد اتسعت عيناه دون أن تفقدا جمودهما، وقد اكتسى وجهه بكل علامات الجد والقسوة. كان زياد ينظر إليه وقد تلاطمت المشاعر في نفسه. شيء من الإعجاب ممزوجاً بشيء من الرهبة، مع قليل من النفور من هذا الدخيل الذي يحشر أنفه في ما لا شأن له فيه، وإحساس بالذنب، مع الكثير من شعور دفين بأنه مقبل على مرحلة جديدة من حياته. وبعد صمت قصير، لم تفارق فيه عينا محمد وجه زياد، قال زياد بصوت واضح التلعثم:

ـ معك حق... ولكني أصلي في البيت... ليس كل الفروض، ولكني لا أترك الصلاة تهاوناً، بل كسلاً، وقد أجاز كثير من الفقهاء الصلاة في المنزل منفرداً، كما أنهم لم يُخرجوا من لا يصلي تكاسلاً

من الملة... والله غفور رحيم في كل الأحوال...

وهنا استشاط محمد غضباً، واحمرت وجنتاه وهو يقول بصوت لفت انتباه الطلبة إلى الموائد المجاورة:

ـ ولكنه شديد العقاب أيضاً... أم أنكم تريدون أن تحولوا الدين إلى نصرانية محرّفة لا تدري عما تتحدث؟ تؤمن بالمسيح وبذلك تدخل الجنة دون أن تدفع ثمناً لها؟ كل لا يا أخي... الإسلام قول وعمل، والجنة عروس غالية ومهرها أغلى...

وقبل أن يتفوه زياد بكلمة واحدة، واصل محمد الحديث بعد أن هدأ غضبه قليلاً، وعاد إلى هدوئه المعتاد:

ـ كما أن الصلاة المفردة في المنزل لا تجوز طالما كان هنالك مسجد قريب، ودعك من كلام الفقهاء، فأنا أحدثك عن هدي محمد لا هدي الفقهاء... لقد أوشك النبي، صلّى اللّه عليه وسلّم، أن يحرق على أناس بيوتهم عندما وصله خبر أنهم يسمعون النداء ولا يلبون... يقول المصطفى عليه السّلام: «لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم أخالف لمن لا يشهد الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم»... لم يعذرهم بالصلاة في بيوتهم... بل لم يأذن لابن أم مكتوم بذلك وهو الأعمى، فكيف بالمبصرين؟ ثم...

وابتلع محمد ريقه، ثم مرر لسانه على شفتيه قبل أن يقول:

ـ ثم... الصلاة هي الفيصل بين الكفر والإيمان... العهد الذي بيننا وبينهم هو الصلاة... هكذا قال المصطفى عليه السّلام... هكذا قال إمامنا، ودعك من فذلكات الفقهاء والمشايخ...

كان زياد مأخوذاً بهذا الشخص الذي يأمره وينهاه بهذه الصرامة، وكأنه أباه أو أمه أو شقيق أكبر له، فتفاعل خليط المشاعر في داخله،

من حب وبغض وغضب وتمرد، ولكنه لم يستطع إلاّ أن يخفض رأسه بخضوع أمام هذه الشخصية الآسرة التي لم يقابل مثلها في حياته. أحس بشيء من الإهانة وبعض من جرح الكرامة، ولكنه مع ذلك لم يملك إلاّ أن يقول لهذا الدخيل:

ـ معك حق يا أخ محمد... معك حق... أنا بالفعل مقصر في حق ديني...

ـ عظيم... الاعتراف بالحق فضيلة، والإقرار بالخطأ هو طريق التوبة...

قال محمد وهو يتناول كوب الماء أمامه:

ـ أنت رجل صالح يا أخ زياد... سيماؤك تدل على ذلك، وقد ارتحت لك كثيراً، وقلب المؤمن دليله، فلا تجعل للشيطان طريقاً عليك... لا تجعل له طريقاً عليك...

قال جملته الأخيرة وهو يهز سبابته في وجه زياد، وقد اقترب منه بوجهه، حتى أحس زياد بحرارة أنفاسه، وخضع تماماً لعينيه اللتين ذكرتاه لوهلة بعيني كوبرا تستعد للإنقضاض على فريستها. شرب محمد ما تبقى في كأسه من ماء، ثم حمد اللّه بصوت مسموع، ثم نهض مغادراً دون أن يقول أكثر من «السّلام عليكم». ولكنه قبل أن يتجه خارجاً، استدار فجأة وهو يقول:

ـ على فكرة يا أخ زياد... لا يجوز لمسلم يؤمن باللّه ورسوله أن يكون أمرداً... اللحى زينة الرجال وعنوان الهوية، ولنا في رسول اللّه وصحابته أسوة حسنة... ثم شعرك الطويل هذا... إنه نوع من التشبه بالنساء والكفار أيضاً، وقد نهانا رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، عن التشبه بالنساء أو الكفار...

أراد زياد أن يقول إن شعر رسول الله كان طويلاً ومجدولاً، ولكن محمد لم يمنحه الفرصة للرد، فقد استدار مغادراً دون أن ينتظر جواباً. بقي زياد في مكانه لا يريم وهو يتابع هذا الشخص غير العادي وهو يختفي بين الطاولات وجموع الطلبة في طريقه إلى الخارج، وكأنه شبح من الماضي، ظهر فجأة واختفى فجأة...

* * *

توطدت العلاقة بين محمد وزياد، حتى إنهما كانا لا يفارقان بعضهما البعض كلما سمحت الظروف بذلك، وأصبح زياد منقاداً بحبل خفي لهذا الغريب الذي دخل حياته دون إعداد مسبق، وربما كان هناك إعداد مسبق من قوة لا يراها، ولا يرى الحبل. لم يكن مرتاحاً كثيراً لوضعه مع محمد، وضع التابع للمتبوع، ولكنه غير قادر على الانفكاك منه. بل إن محمد دعاه للإقامة معه في شقته، ولكن زياد لم يكن راغباً في ذلك رغم انصياعه لكل رغبات محمد، والذي كان يزداد يوماً بعد يوم، فهو لم يعتد الإقامة مع أحد، ولا يريد الإقامة مع أحد مهما كانت علاقته به. أصبح زياد بعد ذلك شخصاً منضبطاً تماماً في أداء واجباته الدينية، وخاصة الصلوات الخمس في المسجد إن أمكن، وكانت عينا محمد تراقبه خلال ذلك بسرور بالغ. ولكن رغم ذلك لم يستطع أن يتخلص من ولعه بالموسيقى والحفلات والفتيات. لقد ترك شرب أي نوع من أنواع الخمور، حتى البيرة التي كان يعشقها، وترك عبثه السابق مع السجائر التي لم يكن مدمناً عليها في أية حال، ولكنه لم يستطع أن يتخلى عن الموسيقى التي لا يعرف كيف ينام بدونها، ولا الفتيات اللواتي كان لا يملك نفسه أمام الجميلات منهن، وهامبورغ مليئة بالجميلات من كل جنسية. والحقيقة أنه لم تعد لديه تلك العلاقات المتعددة الكثيرة مع الفتيات منذ أن تعرف على أسيل،

الفتاة الألمانية التركية التي تدرس الطب في مدينة «بوخوم» القريبة. فعندما جاء من لبنان، سكن في غرفة صغيرة في إحدى البنايات في «غريفسفالد»، وكانت هي جارته في الغرفة المقابلة. ومن أول مقابلة لهما بحكم الجيرة، أحس كل منهما أنه وجد نصفه الآخر منذ أول لحظة، ووقعا في الحب منذ النظرة الأولى. إنه يشعر بحب جارف نحوها، جعله يكره حتى النظر إلى أي فتاة أخرى. لم يكن والدها راضياً عن علاقتهما، بعد أن عرّفته أسيل بالعائلة، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، فهم الآن من الألمان ويعيشون في ألمانيا، وكلا الشابين تجاوز الحادية والعشرين من العمر، فلا سلطان لأحد عليهما. ولكنه كان مرتاحاً إلى حد ما من أن رفيق ابنته مسلم على الأقل، وهو واثق أن علاقتهما سوف تنتهي نهاية شرعية، والحقيقة أن هذا ما كان زياد يفكّر فيه، فقد آن له أن يستقر، ويحقق أمنية والدته في أن ترى أولاده قبل أن تموت...

لم تطعه نفسه على تدمير كل تلك الأشرطة والإسطوانات الموسيقية التي كانت تملأ شقته الصغيرة، والتي جلب بعضها من لبنان، حين طلب منه محمد أن يفعل عندما زاره لأول مرة. فالموسيقى مخدرة للنفس، وهي رسول الزنى، كما كان يقول محمد. وبالفعل كان عازماً على التخلّص منها، ولكنه كان يتوقف عند كل إسطوانة وشريط، وتعود ذكريات حميمة إلى ذهنه مع كل شريط أو إسطوانة. هذا شريط لفيروز يحتوي بعض أغنياتها القديمة: عهدير البوسطة، بكتب اسمك يا حبيبي، أنا والقمر جيران، قمرة يا قمرة... كلا... إنه لا يستطيع تدمير هذا الشريط، فكل أغنية فيه مرتبطة بذكرى معيّنة جميلة. هذه الأغنية تذكره بنزهات الأحد إلى قرية المرج في البقاع مع والديه وأبناء عمومته، وخاصة ابن عمه سالم الذي يحبه كثيراً وكأنه

توءمه، فلم يكن الفرق بين عمريهما أكثر من أربعين يوماً، في ما بيروت تشتعل بأتون الحربِ غير بعيد عنهم، وتلك بصديقته «روزاليندا» في المدرسة اليسوعية، وهذه بأول قبلة تبادلها مع «جوبل»، وتلك بأول مرة يقابل فيها «رويدا» بعيداً عن أعين الرقباء... كلا... لا يستطيع أن يتخلص من كل هذه الذكريات، رغم أنه يجب أن يترك ذلك كله ويبدأ حياته وكأنه قد وُلِد من جديد، كما قال محمد، وكان مقتنعاً بذلك أشد القناعة، ولكنه لا يستطيع. وضع الشريط جانباً، وأخذ مجموعة من الأشرطة... آه... هذه لأم كلثوم. أراد أن يدمر المجموعة، ولكنه ألقى نظرة على الأغاني المحتواة: أراك عصي الدمع شيمتك الصبر، الأطلال، رباعيات الخيام، الصب تفضحه عيونه، ذكريات، أنت عمري... ولم يكمل الاستعراض، فألقاها في صفيحة الزبالة إلى جانبه وسحب شريطاً آخر، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى صفيحة الزبالة وأخرج الأشرطة ووضعها جانباً، وعاد إلى استعراض أكوام الأشرطة والإسطوانات... هذا لفايزة أحمد: أنا قلبي إليك ميال، بتسأل ليه عليا، ياما القمر علىباب... تلك السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، وهذه سونات لموزارت، وتلك بحيرة البجع... وهذه سيمفونية لشتراوس... آه... محمد عبد الوهاب، كم يحب كليوباترا والجندول، والنهر الخالد، ومجنون ليلى... يا سلام... هذه أهواك وأتمنى لو أنساك، وأول مرة تحب يا قلبي لعبد الحليم... في النهاية لم يستطع أن يتخلص من أي شيء، فجمع الأشرطة والإسطوانات ووضعها في دولاب داخلي داخل غرفة نومه بعيداً عن الأنظار، وعقد العزم على ألا يستمع إليها حتى وهي موجودة... يكفي أن تكون موجودة ليشعر بموسيقاها تملأ المكان...

* * *

نظر إلى ساعته وهو يرى المضيفات يدخلن جوف الطائرة، في ما استعد الموظفون للبدء في إركاب المسافرين، وعاد بنظره إلى داخل ذاته، وأخذت صور عديدة تفرض نفسها عليه دون إرادة منه، وبسرعة عجيبة وكأنها شريط سينمائي يجري تشغيله بسرعة هائلة. قابل مروان لأول مرة في بون، وبعد أشهر قليلة من تعرفه بزياد. كان في زيارة لبون للإستماع إلى شيخ أزهري مشهور يقوم بجولة في أوروبا. ورغم عدم اقتناعه بمثل هؤلاء المشايخ، فهم أذناب للسلطة، وطلاب دنيا، إلاّ أنه أراد أن يعرف ماذا بقي لديهم ليقولوه بعد أن فضحهم اللّه. كان واثقاً أن الشيخ سيفعل ما هو مأمور به من السلطة في الأساس، تمييعاً للدين، ومحاولة للالتفاف حول الصريح من القرآن والسنة في نبذ الكفر والكفار والبراءة منهم وعدم موالاتهم، فنحن اليوم في زمن أصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر، والإسلام فيه غريب كما كان أول مرة. كان اللقاء مع الشيخ في قاعة فسيحة من قاعات جامعة بون، وانتهى اللقاء بمشادة بين بعض الشباب المتمسك بدينه وبين شيخ السلطان الذي قبل بعرض الدنيا، وباع دينه بدنياه، حول فتواه بجواز التعامل مع إسرائيل، وتفسيره المنحرف لقول اللّه تعالى: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها»، وكذلك فتواه الأخرى بعدم جواز العمليات الإستشهادية وأنها نوع من الانتحار المُخلد في النار، فليس في الكتاب ولا في السنة ولا في ما فعله السلف الصالح ما يبرر مثل هذه العمليات.

أما ما أثار الشباب فعلاً فهو تحريم ما أسماه الشيخ الاعتداء على الآمنين وغير المقاتلين في المهجر، واستند في تحريمه إلى قول الحق: «وقاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللّه لا يحب المعتدين». لم يستطع الشيخ بعد ذلك إكمال محاضرته التي كانت

تدور أساساً حول جواز عمل المسلم في أوروبا في أماكن تتعامل بالمحرمات، من حيث إنه نوع من الاضطرار، ولكن معظم الحضور من الشبان هبوا في وجهه، وأوقفوه عند حده، بعد أن فاض بهم الكيل، وكان هو أحدهم إذ لم يستطع صبراً أمام كل هذه المغالطات والتحريفات لدين الله، فخرج الشيخ مذموماً مدحوراً، كما وصف محمد الحادثة بعد ذلك لجمع من الإخوان في مسجد القدس، بحراسة أفراد من شرطة الجامعة... «قاتله الله... أيحتمي من أخوته في الدين بقوات من الكفار؟!»... صدق رب العباد جلّت قدرته وهو يقول في وصفهم: «اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون...»، كان يحدث نفسه وهو خارج من القاعة، متأسفاً على مجيئه من هامبورغ من الأساس، مقارناً بين هذا الشيخ والشيخ صالح الذي جاءهم من أرض الحرمين في رمضان الماضي كي يؤمهم ويتحدث إليهم. لقد كان الشيخ صالح يتحدث عن معاناة أشقائهم من المسلمين في فلسطين والشيشان، وكيف أن أميركا وإسرائيل وراء كل مصائب المسلمين في هذا العالم، وما لم يتم إعلان الجهاد ضد أميركا وإسرائيل، فإن المسلمين سيبقون في ذلهم وهوانهم... لله درك يا شيخ صالح، صادع بالحق لا تأخذك فيه لومة لائم. أما هذا المتمشيخ الأزهري فهو ناعق بالكفر داعية له. كان قد عقد العزم على العودة إلى هامبورغ من لحظته، لولا أن اقترب منه أحدهم بابتسامة واسعة على محياه وهو يقول دون مقدمات:

ـ كان ردك على الشيخ غي غاية التوفيق... جزاك الله خيراً، وأكثر من أمثالك... بمثل شيخ السلطان انتكس الإسلام، وبمثلك يعود الإسلام إن شاء الله...

نظر إلى مصدر الصوت، فإذا به يرى شاباً في مقتبل العمر، طويل

القامة، أسمر البشرة، خفيف شعر الرأس، بلحية صغيرة تزين ذقنه، ونظارة طبية أعطته وقاراً رغم صغر سنه، يرتدي بنطال جينز أزرق، وقميص حريري وردي اللون، في ما يتدلى من عنقه سلسلة ذهبية تحمل في نهايتها آية الكرسي، وحذاء براق من جلد التمساح. كان واضحاً من ملابسه الفاخرة أنه ثري، أو ميسور الحال على الأقل. كان محمد لا يزال في قمة الغضب والثورة من محاضرة الشيخ، ولكن ما إن وقع نظره على وجه صاحب الصوت، حتى اختفى كل ما به من توتر فجأة، وأحس بارتياح غريب يجتاح روحه:

ـ جزاك اللّه خيراً... جزاك اللّه خيراً... كل شيء يجوز العبث به، إلاّ دين اللّه... أم حسب لأنه شيخ فإنه يجوز له ما لا يجوز لغيره؟

قال ذلك وهو يواصل سيره وينظر إلى ساعته بقلق، فهو يريد اللحاق بالحافلة المغادرة إلى هامبورغ بعد أقل من ساعة، ولكن صاحب الصوت أوقفه وهو يمد إليه يده مصافحاً:

ـ أنا أخوك مروان... من الإمارات... من رأس الخيمة...

ثم وهو يضحك:

ـ ولكن أخوالي من المصريين... مثل إسماعيل عليه السّلام، وإبراهيم ابن الرسول، صلّى اللّه عليه وسلّم...

ثم وهو يضع يداً على كتف محمد:

ـ أكون لك من الشاكرين لو تفضلت وتناولت فنجاناً من القهوة معي...

ودون أن يترك لمحمد مجالاً، أمسك بيده وهو يجره نحو باب الخروج من الجامعة:

ـ شقتي ليست بعيدة من هنا، خطوتان ونحن هناك، فأنا لا أحب الكافتيريا، كما أن صاحبك يصنع أفضل قهوة يمكن أن تشربها في ألمانيا. . .

قال ذلك وهو يطلق ضحكة رنانة جعلت محمد ينظر إليه بنوع من العتاب، ولكنه لم يملك نفسه من الابتسام وهو يسير مع مروان إلى حيث يقوده، وكأنه قدر لا راد له. . .

* * *

كان مروان شاباً ميسور الحال جداً مقارنة ببقية الطلبة، وكان يحب الحياة المرفهة رغم أنه من أسرة متدينة، فوالده إمام مسجد وداعية لطريق اللّه. أحس محمد بنوع من القربى مع مروان، فأمه مصرية مطلقة، وذلك مما كان يدعو مروان إلى القول مازحاً بعض الأحيان بأنه أشبه ما يكون بإسماعيل ابن إبراهيم الخليل، فأمه مصرية وإن لم تكن جارية، ثم وهو يضحك بأسى كان يقول بأنها وإن لم تكن جارية، فقد كانت أقرب إلى الجارية في معاملة والده لها، قبل أن يطلقها عندما كان صبياً لم يبلغ سن الحلم بعد. كان أكثر ما يضايق مروان عندما يتذكر سنوات حياته الماضية، هو مناداتهم له في البيت «بابن المصرية»، حتى والده كان يناديه بهذا اللقب، مما كان يثيره ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال الأمر. ورغم أنه كان الأكثر نجاحاً بين أخوته في المدرسة، وفي الالتزام بأداء فروضه الدينية، إلاّ أنه كان دائماً الأقل شأناً بين أخوته من زوجات أبيه في معاملة الوالد له، فهو يبقى دائماً «ابن المصرية». لم يكن مروان يشرب ولا يدخن، ولكن الرفاه من الأمور المنكرة التي يجب أن لا يعتاد عليها المسلم، فقد قال رسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلّم: «إخشوشنوا، فإن النعم لا تدوم».

في المساء، وهو عائد إلى هامبورغ، أخذ يتذكر يومه في بون. . . لم يكن سيئاً على الإطلاق، فقد تعرف على مروان رغم نكد الشيخ. . . فعلاً. . . صدق الله الجليل وهو القائل: «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم». عرف أنه قادم لتوه في بعثة حكومية عسكرية لدراسة الهندسة البحرية، ولكنه الآن يتعلم الألمانية في معهد غوتة للغات. كان واضحاً أنه شاب صالح، ولو لم يكن كذلك، لما مال إليه قلبه بهذه السرعة، فقلب المؤمن دليله. وحول فناجين القهوة السوداء، وذاك التمر الذي لم يذق له مثيلاً في حياته، حاول محمد إقناع مروان بالانتقال إلى هامبورغ، فهناك معهد للغة تابع للجامعة، كما أن قبوله في الجامعة سيكون أيسر لو أنه درس اللغة فيها. لم يكن مروان بحاجة إلى جهد في الإقناع، إذ وافق بسرعة على الانتقال، مما انتزع بسمة نادرة من تلك البسمات التي لا ترتسم على محيا محمد إلاّ في المناسبات النادرة، كيوم تفجيرات مركز التجارة العالمي في نيويورك، ويوم دخول طالبان إلى كابول. لا ريب أن مروان شاب طيب، بل خامة رائعة، ولكنه بحاجة إلى كثير من التعديل. فهو يقود سيارة مرسيدس فارهة، وشقته في غاية الرفاهية، تتناثر الأشرطة الموسيقية وأفلام الفيديو في كل جزء منها، وهو يلبس الذهب والحرير. من خلال حديثه مع مروان، اكتشف فيه تلك الروح الوثابة، وتلك النفس المتعلقة بربها، ولكنه لا يزال جاهلاً بدينه، غير مكترث كثيراً بآخرته. في هامبورغ سوف يتاح له وقت أطول مع مروان، وسيجعل منه مسلماً حقيقياً بإذن الله، فإن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمر النعم. . . وأن يهدي الله بك رجلاً، خير مما طلعت عليه الشمس. . . خير من الدنيا وما حوت. . . خير من الدنيا وما حوت. . . ترددت هذه الجملة في ذهنه وهو يعود القهقرى إلى أزمان قد خلت، تبدو من

بعدها وكأنها دهور ضائعة في أعماق تاريخ ما قبل التاريخ. . .

* * *

رحم الله صديقه القديم أحمد بسطاوي إن كان ميتاً أو حياً، الذي لولاه بعد الله، لاستمر في فسقه وجاهليته، ومات كافراً وهو من أراد الله له الخير حين كتب له أن يُولد من المسلمين، ولكنها النفس الأمارة بالسوء، بل هو الشيطان الرجيم لعنه الله وابتسم بالرغم منه وهو يتذكر أحمد. . . من كان يصدق أن يصبح أحمد من المجاهدين! لقد كان طائشاً، جباراً، وضالاً بكل معنى الكلمة، ولو كان يعيش في زمن الفتوات، لربما أصبح فتوة الحارة كلها، متفوقاً على شوشة الحنش وحدقة أبو الروس، وهيمة أبو كف، أشهر الفتوات في تاريخ القاهرة القديمة. ولكن سبحان مُغير الأحوال، لقد انقلب حال أحمد بشكل كامل، وأصبح شديداً في الحق لا تأخذه فيه لومة لائم. كان الانقلاب في حياة أحمد سريعاً وجذرياً بحيث إن الجميع استغربوا كيف حدث ذلك وبهذه السرعة، ولم يعلقوا إلاّ بالقول «سبحان مُغير الأحوال. . . قادر على كل شيء. . .». لم تتغيّر شخصية أحمد عن السابق، إذ بقي شديد المراس، ولكن في اتجاه الحق هذه المرة، بمثل ما كان عمر بن الخطاب شديد البأس في الجاهلية والإسلام، فكان بأسه كفراً في الجاهلية، وكان بأسه إيماناً في الإسلام. كان أحمد صديقه وقريبه من بعيد، وقد نشأ سوياً تقريباً، منذ أن انتقلت عائلة أحمد إلى القاهرة من كفر الشيخ، واستقرت غير بعيد عنهم في منطقة الهرم، وكان أحمد ساعتها في سنته الثانية من الدراسة الابتدائية، أي ذات السنة التي كان محمد فيها، رغم أن أحمد كان يكبره بسنتين، ولم يفترقا منذ ذلك الحين، حتى أن جميع من يراهما كان يظنهما شقيقان، وهو لا ينسى مغامراتهما النسائية العابرة في صيف الإسكندرية، منذ أن بلغا سن

الحلم، أو منذ أن بلغ هو سن الحلم. فقد كان أحمد سابقاً له في ذلك. لم تكن مغامرات نسائية بمعنى الكلمة، بقدر ما كانت نوعاً من «شقاوة» الشبان مع الشابات، غزل وجلسات «حبيبة» على الشاطئ، أو في منتزه على النيل في القاهرة، ولا أكثر من ذلك. كانت مغامرات بريئة وعادية، كما كانا يعتقدان تلك الأيام، ولكنه يرى اليوم كم كانت آثمة تلك المغامرات، فمجرد الجلوس مع أنثى من غير المحارم، هو مخالفة لشرع اللّه. يحمد اللّه مرة أخرى على أن هداه قبل أن يضيع في هذه الفانية، ويترحم من جديد على صديقه أحمد. لقد بدأ أحمد يتغيّر بعد نجاحهما في الثانوية العامة وسفر أحمد إلى لندن. في صيف ذلك العام، لم يسافر معه أحمد إلى المعمورة كالمعتاد، فقد طار إلى لندن وكله أمل في أن لا يعود، فقد كان شديد الإعجاب بكل ما في الغرب. كما أنه هو لم يلبث كثيراً هناك، فالإسكندرية لا طعم لها دون أحمد. كان أحمد يمنّي النفس أن يجد عملاً في لندن، ويتزوج إنكليزية بيضاء كالثلج، ويهرب من «القرف» الذي يعيشونه، كما كان أحمد يردد. كانت لندن بالنسبة لأحمد هي جنة عدن التي يحلم بها في صحوه ويقظته.

عاد إلى القاهرة بعد علمه بعودة أحمد من لندن، التي لم يقضِ فيها أكثر من شهر واحد، وهو الذي كان عاقداً العزم على قضاء إجازة الصيف كلها هناك، طامعاً أن يقضي بقية الإجازة في السهر والمرح مع أحمد، ولكنه وجد أحمد آخر لا يكاد يعرفه. فبدل أن يقضيا كل الوقت في الأماكن التي اعتادا السهر والمرح فيها، إذ بأحمد يتنقل من مسجد إلى مسجد، بحثاً عن خطيب ذُكر له أو قيل له إنه هناك، حتى إنهما لم يذهبا إلى أماكن لقاؤهما المعتادة بالأصدقاء إلاّ بضع مرّات أقل من أصابع اليد الواحدة ذلك الصيف، رغم أنهما كانا أول من يأتي

وآخر من يغادر هذه الأماكن كل ليلة في الأيام الخالية، كان أحمد يبحث عن الأسماء الشهيرة بالصدع بالحق، على حد قوله، فلا يكاد ينتهي من خطبة الشيخ عبد الباري محمود، المشهور بهجومه الدائم على التطبيع مع إسرائيل، حتى يذهب إلى مسجد المؤمنين، حيث الشيخ محمود حتحوت الشهير بمهاجمة أميركا بوصفها الشيطان الأكبر. أما أهم شيخ بالنسبة لأحمد، فكان الشيخ خالد الأسيوطي، الذي اعتقل عدّة مرّات لانتقاده الانفتاح، والذي كان يسميه الانبطاح، وتكاثر «القطط السمان»، بالإضافة إلى تهجمه على الدولة واتهامه إياها بالوقوف إلى جانب الفاسدين وتخليها عن الجائعين والمحرومين، وموالاة الكفار والمشركين، وأعداء الله من اليهود. لم يكن أحمد يترك مناسبة يتحدث فيها الشيخ إلاّ وحضرها، كما كانت أشرطته وأشرطة الشيخ كشك تملأ غرفته التي أصبحت خالية من أشرطة أفلام الفيديو وأشرطة الموسيقى والأغاني، لتزدحم بأشرطة جديدة وكتب جديدة، كلها تدور حول الجهاد والولاء والبراء وأشراط الساعة وعذاب القبر وبعض المصنفات لابن حنبل وابن تيمية وسيد قطب.

قضى محمد ذلك الصيف متابعاً لأحمد في تنقلاته، ولم يكن متضايقاً على الإطلاق، فقد كان يشعر أن عليه أن يكون أكثر تديناً منذ زمن، فكل من في بيته من المتدينين، وكان تأنيب الضمير يستحوذ عليه كلما جلس أمام التلفزيون لمتابعة أحاديث الشيخ الشعراوي الذي كان يحبه كثيراً، ويعقد النية على العودة إلى الله، ولكن سرعان ما ينسى بعد أن تهدأ العواطف، ويتوه في عالم التائهين، كما أصبح يصف تلك الفترة من حياته... قاتل الله الشيطان، فهو لا ييأس ولا يكل ولا يمل. ولكنه لم يكن راضياً عن هذا الاندفاع الذي يبديه أحمد، ويخشى عليه من مغبته، خاصة وأن الحكومة أصبحت شديدة الوطأ

على المتدينين تلك الأيام، تحت مسمى مكافحة الإرهاب. ويبتسم محمد وكلمة الإرهاب تدور في ذهنه... إرهاب؟ نعم إرهاب، فهؤلاء لا يعتدلون إلاّ بالإرهاب... ألم يذكر اللّه الإرهاب في كتابه العزيز على أنه وسيلة مشروعة لتحقيق غايات الدين؟ ألم يمارس المصطفى الإرهاب من أجل نشر الدعوة، وهو الذي أُيد بالرعب على مسيرة شهر، فكيف أصبح الإرهاب محارباً اليوم، وهو الذي ما انتشرت الدعوة إلاّ به؟ لقد باعوا أنفسهم لأعداء اللّه، فوالوهم وحالفوهم، وتركوا دين اللّه واعتنقوا دين الشيطان، وهم يدّعون أنهم من المسلمين، في ما أسلموا عقولهم ومقاليد أمورهم للكفار والمشركين، يفعلوا بها ما يشاؤون...

نعم... لم يكن التغيُّر في شخصية أحمد، فالاندفاع كان جزءاً من شخصيته منذ أن عرفه. فعندما كان يذاكر، كان لا يفعل أي شيء غير المذاكرة. وعندما كان يلهو، كان لا يفعل شيئاً غير اللهو، وعندما كان يعارك فإنه يُعارك وكأنه لا يهمه ما يصيبه. لقد كان دائماً مثار استغراب أسرته وأساتذته حين كان ينجح بعض الأحيان بتقدير ممتاز، وأحياناً بتقدير مقبول قريب من الرسوب. وهو إن نسي، فلن ينسى ذلك اليوم الذي جاءه فيه أحمد وقد أطلق العنان للحيته، وقد بدت سحنته غير تلك التي اعتادها...

* * *

كان يوماً من أيام شهر تموز/يوليو، وفي العام ذاته الذي انتهت فيه حرب الخليج الثانية، وكان قد أنهى لتوه امتحانات البكالوريوس في الهندسة في جامعة القاهرة. كان يستعد للسفر إلى الإسكندرية كعادته كل عام، قبل أن يستعد للسفر إلى الخارج للدراسة كما وطد العزم منذ

زمن، وهو في حيرة من أمره عما يمكن أن يكون قد جرى لأحمد، صديق الطفولة والمدرسة والجامعة. فقبل حوالى خمسة أشهر، كان أحمد قد اختفى، فلم يعد يحضر إلى الجامعة رغم أنها سنته الأخيرة في الكلية، وبحث عنه في المساجد التي اعتاد ارتيادها مؤخراً، وفي تلك الأماكن التي اعتادا أن يلتقيا فيها قبل ذلك، رغم أنه كان واثقاً أنه لن يجده هناك، ولكنه الأمل الذي يجعل الإنسان متعلقاً به مهما كان ضئيلاً. بحث عنه في نادي الجزيرة، وفي حديقة المينا هاوس، وفي مقهى النجوم الساطعة في المهندسين، حيث اعتادا على الالتقاء بأصحابهما كل ليلة تقريباً، وفي ويمبي، وفي سينما روكسي حيث أفضل أفلام «الأكشن» الأميركية، التي كان أحمد يحبها كثيراً، رغم كراهيته الشديدة والغريبة للأميركيين مؤخراً، وهو الذي كان يعشق كل ما هو غربي.

حاول طوال تلك الأشهر الخمسة أن يعرف أين اختفى أحمد، ولكنه قطع الرجاء أخيراً، فلا أحد يعلم أين أحمد، حتى والديه وأخوته، الذين قتلهم قلق الخوف من أن يكون قد حدث له أي مكروه، ووالدته التي لا تنفك عن البكاء ليلاً ونهاراً، وهي تطلب من أبيه وأخوته أن يأتوا لها بأحمد، ولكن الكل كانوا من العاجزين. بل إنه بحث عن صديقته السابقة هدى، أو دودو كما كانت تدلع نفسها، في كلية الآداب، إذ لعل لديها خيراً لا يعلمه أحد، ولكنه اصطدم بذات الجهل الذي يلف الجميع، وقد أخبرته أنها لم تر أحمد منذ أن تركها قبل أكثر من أربعة أعوام، ثم أخذت تبكي وتشكي له الظروف النفسية السيئة التي مرت بها بعد أن تركها أحمد، فتركها محمد وهو يشعر بسخافتها المتناهية، حيث لم تهتم كثيراً بأخبار اختفاء أحمد. كان يعلم أن أحمد ترك المغامرات النسائية بعد فترة وجيزة من تحوله، رغم حبه

الشديد للنساء، ولكنه ذلك الأمل الذي يجعل الغريق يتعلق بقشة عائمة، هو الذي دفعه إلى الذهاب إلى هدى. وأخيراً استسلم، وهل له غير الإستسلام، وهو ينتظر لعل الفرج يأتي من حيث لا يحتسب أحد، ولكن القلق على مصير أحمد بقي يلف حياة الجميع. لا أثر له في مخافر الشرطة أو المستشفيات أو أخبار الحوادث في الصحف والمجلات، فأين يكون قد اختفى؟ وأخيراً اهتدى والد محمد إلى فكرة لم تخطر لأحد على بال: لِـمَ لا يسألون في مجمع التحرير عن المسافرين إلى الخارج، فلعل الجواب هناك؟

* * *

لم تلقَ الفكرة استحساناً من الجميع، فأحمد لم يسافر في حياته إلى الخارج إلاّ مرة واحدة، ومنذ سنوات حين سافر إلى لندن في الصيف الذي أعقب نجاحه في الثانوية العامة، ولكنه سرعان ما عاد قبل أن يُنهي شهراً، وهو الذي كان مصمماً على المكوث ثلاثة أشهر على الأقل، إن لم تكن الهجرة الدائمة. فقد عاد وهو ثائر على أولئك الإنكليز العنصريين القذرين، الذين يهدرون كرامتهم ويعاملونهم معاملة الحيوانات، بل إن الحيوانات أفضل منهم. لم يقل لأحد ما جرى له في لندن بالتفصيل، حتى لصديقه محمد الذي كان يُلح عليه بالحديث عن لندن ومباهجها ونسائها، ولكنه كان يتوتر كثيراً حين يأتي ذكر لندن، وينهي الحديث بسرعة وهو يقول بعصبية: «بلاش السيرة دي والنبي يا محمد... أنا عاوز أنسى لندن وأولاد الكلب هناك...». ومع الوقت، توقف محمد عن سؤال صديقه عن رحلته إلى لندن، ولكنه بدأ يحس أن أحمد قد أصبح أكثر عبوساً بعد عودته. لا يزال مرحاً يثير الضحكات حيثما حلّ، وخاصة عندما يكون هناك فتيات،

ولكن محمد أخذ يلاحظ أن هنالك نظرة حزن دفين، ممزوجة بقسوة لا ترحم تحتل عينيه، وتقطيبة غريبة عليه تحتل وجهه حين يسرح بعض الأوقات. أدرك محمد أن هنالك سراً يخفيه أحمد عنه، وأن هنالك شيء حدث في لندن لا يريد الإفصاح عنه، ولكنه لم يعد يُلح في معرفته، رغم أنه «يدفع نصف عمره» ويعرفه، كما كان يردد بينه وبين نفسه كلما رأى تقطيبة أحمد، وتلك القسوة في عينيه. أما المفاجأة الكبرى في حياة أحمد بعد العودة من لندن فهي شربه للبيرة، وارتياده المساجد في الوقت نفسه. لم يكن قبل ذلك يتعاطى أي نوع من المكيفات، ولم يكن قائماً بالفروض الشرعية، ولكنه الآن يشرب البيرة، ويدخن بعض الأحيان، في الوقت نفسه الذي لا تفوته فيه صلاة واحدة في المسجد، مما أكد لمحمد أن هنالك سراً في حياة أحمد القصيرة في لندن. لقد كان العبث بالشيشة أقصى ما كان يمكن أن يصل إليه من مكيفات، أما أن يشرب ويدخن السجائر ويصلّي!، فهذه مسألة لا بدّ أن لها سراً... وعن طريق ضابط من معارف الوالد في قسم السفر في مجمع التحرير، عرفوا أن أحمد قد غادر القاهرة في يوم ٢٥ شباط/فبراير إلى دبي، أي في اليوم الذي أعلن فيه طرد القوات العراقية من الكويت. فوجئ الجميع بالخبر، فماذا يفعل أحمد في دبي؟ ربما كان قد حصل على عقد عمل هناك، تساءل البعض. ولكن، كيف يسافر أو يعمل وهو في السنة النهائية في كلية الهندسة، وهندسة الكمبيوتر تحديداً؟ لو كان قد سافر من أجل العمل فعلاً، لانتظر أشهراً قليلة، وسافر وهو مهندس. كلا، لم يسافر أحمد من أجل العمل، فلماذا سافر إذن؟ ويزداد اللغز غموضاً، فأحمد لم يؤدِ خدمة العلم بعد، ولا يُسمح لمن لم يخدم في الجيش بالسفر بأية حال، فكيف سُمِح له بالسفر؟ وعندما استفسر والد محمد عن الأمر

من صديقه، استغرب كثيراً، فقد كان يحمل الإذن بالسفر وإلاّ لَمَا سُمِح له بالمغادرة على الإطلاق. حاولوا كثيراً أن يعرفوا مكانه في دبي بشتى الوسائل، حتى إن دائرة الجوازات والهجرة في دبي ليس لديها سجلات بدخوله البلاد، وقالوا إنه ربما كان مسافر ترانزيت. ولكن، ورغم أن الغموض والخوف والقلق ما زالت محيطة بمصير أحمد، ورغم أن أمه لم تتوقف عن البكاء، إلاّ أن الجميع اطمأنوا بأن أحمد ما زال حياً في مكان ما، وربما يأتيهم الفرج بين لحظة وأخرى، وتركوا أمرهم وأمره لرب عليم...

* * *

في ذلك اليوم من شهر تموز/يوليو، كانت الاحتفالات بذكرى الثورة تعم البلد، طُرِق باب شقتهم الفارهة المطلة على أهرامات الجيزة، غير بعيد عن فندق المينا هاوس الشهير، وجاءه صوت والدته وهي تصرخ بفرح مرحبة بأحمد، وتسأله وسط دموعها عن غيبته الطويلة، وكيف هانت عليه والدته حتى يتركها فريسة القلق. كان محمد يعد حقيبته للسفر إلى إحدى القُرى السياحية على الساحل الشمالي لقضاء بضعة أيام قبل ظهور النتيجة، فترك الحقيبة وقلبه يدق بعنف، وقد أحس بشوق عارم لاحتضان صديق الطفولة ورفيق الأيام. عرف من اللحظة الأولى التي رأى فيها أحمد أن أحمد لم يعد أحمد. فقد كان يلبس جلباباً أفغانياً أبيض اللون، وعمامة بذيل طويل يصل إلى منتصف الظهر، وقد ترك العنان للحيته حتى أصبحت أطول من لحية ذلك الدرويش الذي كان يطوف بالمصلين ورُواد المقاهي في الحسين، وهو يحمل سبحته الطويلة، ويبخر رؤوس الموجودين ببخور رخيص، ويتلقى منهم ما تجود به أنفسهم وهو يصيح «حي... قيوم... قدوس... حي...».

فقد كانت عائلتا محمد وأحمد قد انتهجتا تقليدياً أصبح نوعاً من الطقس المقدس لدى العائلتين، حيث كانت الأسرتان تذهبان في مساء أول يوم خميس من كل شهر إلى حي الحسين، حيث يصلي الجميع هناك صلاة المغرب، ثم يجلسون في المقهى يحتسون اليانسون والقرفة إلى أن يحين موعد صلاة العشاء، فيصلون العشاء ثم يتناولون الكباب وفتة الكوارع في مطعم المعلم سلومة أبو العينين، الواقع على أطراف ساحة المسجد، حيث يبقون لساعات وهم يأكلون ويدردشون ويدخن الوالدان المعسل، ويشربان الشاي الكشري الأسود، ويتفرجون على الرائح والغادي، وذلك إلى ما بعد منتصف الليل بقليل، حيث يغادرون وقد «كبس» النوم على الجميع، ويكون صوت الحصري وعبد الصمد وأبو العينين شعيشع هو آخر ما يعلق بأذهانهم وهم يقرأون ما تيسر من آي الذكر الحكيم، ولا زال محمد يذكر كيف كان والده يهتز ويتمايل مع صوت عبد الباسط عبد الصمد وهو يرتل قِصار السور.

كان أحمد ومحمد يركضان في كل مكان. ويتمتعان بشراء حلويات الأطفال الشعبية، من عسلية ودندرمة، ويلاحقان الدراويش وهما يقلدانهم في حركاتهم، أو يتفرجان على المحلات التي تزخر بالسياح الأجانب، وهما مبهورين من شدة بياض وحمرة بشرة بعض الفتيات، وكل ذاك الذهب المنسدل على أكتافهن. وكم كان محمد يشعر بالسعادة عندما تقوم إحدى الحسناوات بقرص خده المورد، أو تُملّس على شعره الناعم بحنان، فيحس بمتعة غريبة تسري في جسده لا يدري كنهها. ورغم أن والده كان يُحذّره من الابتعاد عن ناظريه، إلاّ أنه كان لا يستقر في مكان، ثم يعود وقد استعد لتأنيب اعتاد عليه من والده. لقد كان والد محمد يخاف عليه من أولاد السوء، وخاصة في مثل هذه المناطق الشعبية وأزقتها المظلمة، فقد كان محمد أبيض

البشرة، مورد الخدين، ممتلئ الجسم، وإن لم يكن إلى حد البدانة، وكان في حركاته وكلامه أقرب إلى حركات وكلام الإناث، كما كان والده يشتكي إلى والدته، وكان في غاية القلق من ذلك. إلاّ أن الوالدة كانت تطمئنه بأنه لا زال صغيراً، ولن يبقى على هذه الحال عندما يكبر. كل ما في الأمر أن كونه ولداً وحيداً بين فتاتين، واختلاطه ببنات أختها ولعبه معهن جعله أميل إلى سلوك الفتيات، ولكنه سيتغيّر في المستقبل... أنا واثقة من أنه سيتغيّر ويعجبك إن شاء اللّه... وهكذا كان والده يهدأ ويزول عنه القلق، فينظر إلى ابنه بحب وحنان، وإن لم يستطع إخفاء قلق دفين لا يستطيع له منعاً. كان محمد يشعر بالضيق الشديد عندما يسمع والده وهو يشبهه بالأنثى، أو وهو ينهره طالباً منه أن يخشوشن قليلاً، فيشعر بالحنق، وكره شديد يحتل كل كيانه تجاه والده. يود لو كان بإمكانه أن يصرخ في وجه والده قائلاً إنه ولد، بل رجل، ولكنه لا يستطيع، فلا يجد ملاذاً إلاّ حضن والدته حتى يبكي بصمت، تلاحقه ضحكة ساخرة من والده وهو يقول بصوت عال: «أيوه يا أخويا... روح عيط عند ماما... خليها تنفعك... أقطع دراعي لو فلحت...»، فيشعر محمد بأنه قادر على قتل والده في تلك اللحظة. لم يكن والد محمد قاسياً حقيقة، بقدر ما كان يريد أن يراه كبقية الأولاد، فقد كان يضيق كثيراً بملاحظات أصدقائه من نعومة محمد وخجله الشديد، حتى إن أحدهم نصح الوالد وهو يضحك ساخراً، بأن يعرض محمد على أحد الأطباء، فربما كان بنتاً دون أن يدري. لم يكن من الوالد في تلك اللحظة إلاّ أن شتم صاحبه شتيمة قاسية، ولم يعد يكلمه بعد ذلك أبداً، رغم أنه أكد له أنه كان يمزح ليس إلاّ. وعندما عاد الوالد إلى البيت في ذلك اليوم، صب جام غضبه على محمد ووالدته، متهماً إياها بأنها هي السبب في نعومة الولد وكسوفه الذي لا

يشبه إلاّ كسوف البنات. ولكن الوالد لا يلبث أن يهدأ، ويؤنبه ضميره كثيراً، فلا يجد وسيلة للتعبير عن أسفه إلاّ بنفح محمد نصف جنيه، أو حتى جنيهاً بعض الأحيان ليشتري بها ما يشاء، فتعود البسمة إلى وجه محمد، وينطلق إلى الشارع حيث كل ما يشتهي...

* * *

ـ لقد اكتشفت أن حياتي كانت ضياع في ضياع... خالية من أي معنى...

قال أحمد وهو يلتقط آخر حبة حمص من كوب حمص الشام، ثم يشرب ما بقي من سائل، ويمسح فاه بطرف جلبابه:

ـ نعم يا أخي... من كان بعيداً عن الله، فحياته لا معنى لها... بل هي ليست حياة...

بقي محمد منتظراً بقية الحديث، في ما هو يحرك الملعقة الصغيرة في كأس الشاي أمامه، وينظر بلا مبالاة إلى كل تلك الحشود من البشر التي تملأ إمبابة. صفق أحمد بيديه منادياً نادل القهوة وهو يطلب كوباً آخر من حمص الشام، ويسأل محمد إن كان لديه رغبة في شيء آخر، فهز محمد رأسه علامة النفي وهو يستعجل بقية الحديث، وقد أزعجه صوت أحدهم وهو ينادي على بضاعته من البطيخ بصوت أجش هو أقرب إلى النهيق:

ـ نعم يا أخي...

واصل أحمد:

ـ الحياة بعيداً عن الله ليست بحياة... الحياة تكمن في طاعة الله، ألم يخلقنا الله لعبادته كما ذكر في محكم كتابه؟ فعندما تستخدم الأشياء لغير الغاية التي خُلِقت لها، فإنها لا تكون نافعة... بل هو

الانحراف بعينه... فعندما نستخدم مفتاح العلب لفتح الأبواب، فإن هذا هو الجنون والضلال بعينه، فما بالك بالإنسان؟ خلقه اللّه ليعبده، ونظم له حياته بالشريعة، ولكنه لا يعيش وفق غايته التي خُلق لها، ولا وفق القوانين الإلهية المنظمة لحياته، ولأجل ذلك يشقى ويتعب في هذه الحياة...

ثم وهو يرتشف بلذة رشفة أخرى من الكوب:

ـ الحياة دار ممر، والآخرة هي المقر... حيث الجنة للمتقين، وحيث جهنم للعاصين... قال عليه الصَّلاة والسَّلام...

ـ عليه الصَّلاة والسَّلام...

ـ قال الحبيب المصطفى لعبد اللّه بن عمر، وهو يضع يده على منكبه: «كن في هذه الدنيا عابر سبيل»، أو كما قال رسولنا المختار...

لم يكن محمد بحاجة إلى هذه العظة، فهو منذ زمن قد التزم فعلاً، ولم يعد يفوت أي فرض، وهو يعلم أن أحمد يعلم ذلك، ولكنه أراد بموعظته تلك شيئاً آخر هو الذي ما زال منتظراً على أحر من الجمر لسماعه. وران الصمت لدقائق طويلة، رغم أن أصوات الباعة المتجولين، وصراخ الأطفال، وصيحات النساء، وضحكات وخناقات روّاد قهوة إمبابة الكبرى، ولاعبي الكوتشينة والدومينو والطاولة تملأ المكان. أنهى أحمد كوب الحمص وهو يتجشأ بصوت خافت، ومسح لحيته الكثة باستمتاع وهو يحمد اللّه ويشكره، ثم فجأة وضع كفه على كتف محمد وهو يقول:

ـ ما هي الغاية من الحياة؟ دخول الجنة إن شاء اللّه... أليس كذلك؟

لم ينتظر إجابة، فهو لم يكن يسأل أساساً:

ـ وطالما أن الجنة هي الغاية، فلماذا الضياع في أزقة الحياة؟ لماذا لا نصل إليها بأقصر السُبُل، وأقصر السُبُل هو الجهاد في سبيل اللّه، فإما جنة على الأرض وإما جنة السماء إن شاء اللّه... المسألة في غاية البساطة، ولكن قاتل اللّه من عقّدها...

واقترب أحمد برأسه أكثر من محمد، ثم بصوت أشبه بالهمس:

ـ كلكم تتساءلون عن اختفائي الأشهر الخمسة الماضية... أليس كذلك؟

فغر محمد فاه، وقد أخذت دقات قلبه بالتزايد، في ما تورد خداه وعلت حبيبات العرق جبينه وهو غير قادر على النطق. كان يعلم أن شيئاً غير عادي قد حدث لأحمد، وكان يود أن يسأله عن ذلك، ولكنه كان يخشى الرفض والصدود، فهو يعلم عناد أحمد وقدرته على الكتمان، منذ أن سأله عن رحلة لندن منذ سنوات.

ـ أنا أعلم أنك تريد أن تعلم... بل يجب عليك أن تعلم...

ونهض أحمد وهو يقول بعجلة:

ـ هيا... علينا الذهاب إلى مكان غير المكان... فرائحة المعسل تقتلني، ولا يمكن أن نتحدث بحرية هنا...

ونهض محمد وكأنه منوم مغناطيسياً، وكله فضول لمعرفة ما يريد أن يُفضي إليه به أحمد من أسرار، وغادرا المقهى بعد أن وضع أحمد ورقة مالية وبضع قطع من العملة على الطاولة...

* * *

عَبَر أزقة ضيقة ومتعرجة وقذرة، تراصّت حولها بيوت، متهالك

بعضها، وآيل للسقوط بعضها الآخر، كان أحمد يسير بسرعة جعلت محمد يحاول اللحاق به لاهثاً، محاولاً تفادي بقع ماء هنا وهناك، ومارة غريبي الأشكال والهيئات، يسيرون دون أن يلتفت أحدهم للآخر. كانوا في معظمهم خليط من رجال بلحى كثة غير مشذبة، وجلابيب بيضاء، ونساء يخفيهن السواد من قمة الرأس إلى أخمص القدم. لم يستطع تفادي كثيراً من الحفر المليئة بماء آسن، فتلطخ حذائه الأنيق وأطراف بنطاله بطين أسود لزج وعفونة كريهة الرائحة. ومن تلك البيوت كانت تصدر روائح لا يستطيع لها وصفاً، بل هي عديمة الوصف لا يمكن أن تتكهن بنوعها. روائح غريبة فهي خليط من رائحة الزيت المقلي والثوم والبصل والحلبة والمراحيض والبلاعات الطافحة، ورائحة عفونة أقرب ما تكون إلى رائحة الجبنة القديمة، ومن ذلك كله يتكون مزيج قابض للنفس وجارح للحواس، ولكن ما أن يتعود المرء عليه حتى يصبح شيئاً عادياً وكأن لا وجود له. وتختلط الأصوات، فتصبح صوتاً واحداً يقول كل شيء ولا يقول أي شيء: شريط للشيخ الشعراوي يفسّر القرآن الكريم، وآخر لكشك وهو يتحدث عن آخر الزمان، وتداخل أصوات المقرئين، في ما يعلو صراخ معركة من بعيد، لا يلبث أن يشاركه صوت باعة الخضار والكشري وشطائر الفول والطعمية والباذنجان وهم يعلنون عن بضاعتهم، وأصوات ضحكات من بعيد تختلط بأصوات صبية يلعبون، مختلطاً بصوت محمد الكحلاوي وهو ينشد: «لأجل النبي لا أجل النبي... تقبل صلاتي على النبي على النبي...»، في الوقت الذي يصبح فيه شريط أحدهم محذراً من البدع والشركيات.

كانت قاهرة لم يكن محمد يعرف بوجودها. قاهرة لم يعرفها من قبل، فرغم أنهم عاشوا أول حياتهم في العمرانية، ويعرف تماماً تلك

الأحياء الشعبية في الحسين والسيدة، إلاّ أن هذا الحي يبدو غريباً رغم أنه يبدو شعبياً. هنالك شيء غريب في هذا الحي يجعله غير منتم لتلك الأحياء الشعبية المعروفة في القاهرة التي تحس بالأصالة وأنت تمر بين بيوتها ومساجدها، أما هذا الحي فهو بعيد عن أي وصف. إنه قاهرة جديدة تختلف عن القاهرة الجديدة والقديمة معاً. وصل أحمد أخيراً إلى بيت من الطوب الأحمر، واضح أنه بُني على عجل، لا يختلف في شيء عن البيوت من حوله، ثم اتجه إلى شقة صغيرة في الدور الثالث تشرف على الشارع، وفتح الباب بمفتاح كان يحمله. كانت رائحة العفونة والغبار الرطب هي أول ما استقبلتهم به الشقة التي لم تكن شقة بالمعنى الحقيقي للكلمة، بقدر ما كانت أقرب إلى غرفة واسعة يتفرع منها غرفة صغيرة لا تحتوي إلاّ على سرير معدني صغير، وفي أحد الجوانب حمام عربي لا يستوعب إلاّ شخصاً واحداً بالكاد، وخاصة إذا كان بحجم أحمد، وفي الجانب الآخر ركن مكشوف يبدو وكأنه قد خصص لأغراض الطبخ، فقد كان هنالك موقد غاز صغير بالإضافة إلى أدوات الشاي والقهوة، وقدر صغيرة.

ـ تفضل... البيت مش قد المقام، ولكنه بيت... وهنا نستطيع الحديث بعيداً عن أعين المتلصصين وآذان المسترقين...

قال أحمد وهو يضحك بحبور لأول مرة منذ أن رآه محمد بعد العودة من اختفائه المفاجئ:

ـ قهوة ولا شاي؟

قال أحمد، في ما كان محمد يهز يده علامة النفي، وهو يلقي بنفسه على أريكة متهالكة وضعت في مقابل باب الخروج:

ـ بيت مَن هذا؟

قال محمد وهو يجيل النظر فيما حوله. . .

ـ بيتي. . .

قال أحمد وهو لا يزال يضحك:

ـ أم أنني لم أشب عن الطوق بعد حتى يصبح لي بيتاً مستقلاً؟

ثم وهو يلقي بنفسه على الأريكة المتهالكة بجانب محمد:

ـ الحقيقة أنها لبعض الأخوة، وأنا مشترك معهم فيها. . . آتي إلى هنا كلما حنت نفسي إلى الهدوء والسكينة، أو كان هنالك ما يستوجب القدوم. . .

قال ذلك وهو ينظر إلى محمد نظرات تحمل معان كثيرة، لم يلبث أن حولها بسرعة وهو يقول ضاحكاً من جديد:

ـ ما رأيك؟ أليست أجمل من شقة عمك الحاج محمود البسطاوي في الهرم؟

وفي ما كان أحمد مستغرقاً في ضحكه، كان عقل محمد يعمل بسرعة رهيبة. أسئلة كثيرة في ذهنه تبحث عن جواب، ولا بدّ أن يحصل على أجوبة هذه المرة:

ـ غريب أمرك يا أحمد. . . تبحث عن الهدوء هنا في ظل كل هذا الضجيج! أين الهدوء؟

ـ الهدوء والسكينة ينبعان من النفس يا صديقي. . . من الداخل يا أخي، وليسا وضعان خارجيان. . . فكم من مكان كله ضجيج في الخارج ولكن النفس في ظله مطمئنة، وكم من مكان يكاد يقتله الهدوء، ولكن النفس فيه قلقة غير مستقرة. . . الهدوء هدوء النفس يا أخي. . . كم أكره شقة عمك محمود البسطاوي. . . بل كم أكره العيش بينهم. . .

ـ أمعقول هذا؟ العم محمود من أطيب من عرفت... حنون وتقي...

ـ ظاهراً ربما، ولكنه منافق...

ـ حرام عليك يا رجل... فهو...

وقبل أن يكمل محمد جملته، قاطعه أحمد بصرامة:

ـ ولا حرام ولا حاجة... والنبي يا محمد، بلاش السيرة دي...

وصمت محمد محاولاً إعادة السكينة إلى المكان وهو يقول:

ـ ما شاء الله يا أحمد، ما شاء الله... لقد أصبحت فيلسوفاً؟

فضحك أحمد، وقد عاد إليه مرحه وهو يقول:

ـ ولا فيلسوف ولا حاجة... ولكن من عرف الله عرف الهدوء، حتى لو كانت حرب مستعرة تدور من حوله...

ـ صدقت... صدقت...

قال محمد وهو يعيد التجوال بنظره في أرجاء الشقة وشقوقها الكبيرة، ويتوقف بنظره للحظات عند صرصار كبير يعود إلى مقره في أحد تلك الشقوق، في ما عقله لا يزال يعمل بسرعة، والأسئلة تزداد حدة في ظل غموض آن له أن ينتهي...

ـ اسمع يا محمد...

قال أحمد وهو يستدير بكليته إلى صديقه القديم:

ـ بدون لف أو دوران... أنا الآن من المجاهدين في سبيل الله... من المجاهدين في سبيل إخراج البشرية من الظلمات إلى النور... كل ما حولنا كفر في كفر، فقد عاد الناس إلى جاهلية أشد

مرارة من الجاهلية الأولى... لقد ابتعد الناس عن الإسلام وطريق الحق، وأسقطوا فريضة الجهاد التي هي ذروة الدين وسنام الإسلام، فضُربت عليهم الذلة والمسكنة، ولا خروج من هذا الوضع إلاّ بالعودة إلى المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، من استمسك بها فهو الفائز في الدنيا والآخرة، ومن تركها تركه اللّه، وضربت عليه الذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة...

ثم نهض أحمد فجأة وهو يقول:

ـ لا يستقيم الحديث دون كأس شاي يعمر الدماغ... دقائق ويكون الشاي جاهزاً...

وترك محمد مبهوراً بما سمع، والأسئلة تزداد ازدحاماً في رأسه. وعاد أحمد وهو يحمل كأسي شاي أسود كالقطران، قدم أحدهما لمحمد، في ما أخذ هو في ارتشاف كأسه بلذة ظاهرة وهو يقول:

ـ يقول رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق»، ويقول الشهيد سيد قطب: «إن النفرة للجهاد في سبيل اللّه إنطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم، وما يحجم ذو عقيدة في اللّه عن النفرة للجهاد في سبيله، إلاّ وفي العقيدة دخل، وفي إيمان صاحبه بها وهن...».

ثم وهو يرتشف الشاي بصوت مسموع:

ـ أتدري أين كنت خلال الخمسة أشهر الأخيرة؟

لم ينتظر الجواب، في ما اتسعت عينا محمد على مداهما وهو يحاول القبض على أنفاسه المتلاحقة:

ـ كنت في أفغانستان... كنت في أرض الجهاد... ولكن قبل

ذلك كله أريد أن أبوح لك بسر طالما تمنيت معرفته. . . ولكن لماذا لا تشرب الشاي؟

التقط محمد كأسه من على الصندوق الخشبي المستعمل كطاولة بآلية وارتشف جرعة سريعة منه ثم أعاده وهو يستحث أحمد على الحديث. . .

ـ كنت دائماً تريد أن تعرف ما حدث لي في لندن في تلك السفرة المشؤومة، وكنت أقابل رغبتك بالصد. . . لقد كنت خجلاً مما حدث رغم أنه لا يد لي في الموضوع ولا ذنب، أما اليوم، وقد منَّ اللّه عليَّ بالهداية والجهاد في سبيله، فلم يعد يهمني شيء. فالإسلام يجب ما قبله. . .

وألقى بالحثالة في جوفه بسرعة وقد امتعض وجهه الممتلئ كمن شرب لتوه عصير ليمون صرف، وغاب مع نفسه للحظات كانت كأنها دهراً من الانتظار. . .

* * *

ـ عندما سافرت إلى لندن. . .

قال أحمد:

ـ لم أكن أنوي العودة حقيقة، أنت تعلم ذلك، فقد كنت عاقداً النية على الإقامة هناك والزواج بإنكليزية. . . لقد كان الاستقرار في الغرب أعظم الأماني لدي، لا شك أنك تذكر ذلك؟

وهز محمد رأسه هزات سريعة، وقلبه يخفق بشدة، وقد تحول إلى أذن كبيرة واحدة:

ـ كنت أحلم بأن أكون إنكليزياً، لدرجة أني كنت أتمنى لو أن الإنكليز لم يخرجوا من مصر، فربما لو بقوا لكانت مصر اليوم أكثر

تقدماً وحضارة مما هي عليه من تخلف لم يكن إلاّ لأنهم أخرجوا من مصر... كنت أحلم بالحريّة والثروة والنساء البيض الجميلات والحياة الطيبة هناك، ولكنني اكتشفت أن كل ذلك زيف في زيف منذ الأسبوع الأول لوصولي إلى لندن، ولكنني كنت أغالط نفسي آنذاك كما تبيّن لي في ما بعد...

ثم وهو يأخذ نفساً عميقاً:

ـ منذ أن وطأت قدماي لندن حاولت أن أصبح مثلهم... آكل طعامهم وأذهب إلى باراتهم ومراقصهم وأقلّد أشكالهم، وقد ظننت أنني قد أصبحت منهم بالفعل، حتى كان ذات يوم...

وتوقف أحمد عن الحديث، وهو يحاول ابتلاع ريقه وقد تضخمت حنجرته حتى كان من الصعب عليه مواصلة الحديث، ولكنه تمالك نفسه في النهاية، فواصل الحديث بعد أن استغفر وحوقل:

ـ كنت قد أنهيت عملي في المطعم، حيث كنت أغسل الأواني، واستلمت أجري عن ذلك الأسبوع، فصممت على السهر في منطقة سوهو حيث تكثر البارات الإنكليزية، وحيث يمكن مقابلة شباب الإنكليز وشاباتهم. تلك الليلة المشؤومة دخلت عدّة بارات، فاستقر بي المقام في أحدها... كان باراً كبيراً عاجاً بالشباب من الجنسين، فسعدت بذلك... كانوا غريبي الأطوار نوعاً ما، ويلبسون ملابس غريبة، ولكن ذلك لم يهمني طالما أنهم إنكليز أقحاح، فقد كانت بشرتهم في غاية البياض، يكاد الدم يتفجر من خدودهم. وكنت أحاول الابتعاد عن تلك المناطق والأماكن التي يكثر فيها العرب والهنود والباكستانيون من ذوي البشرة الداكنة، فهؤلاء كانوا يمثلون التخلّف و«القرف» الذي كنت هارباً منه... لقد كنت أبحث عن الإنكليز

وحسب... وهنا كلهم إنكليز... كلهم من ذوي البشرة البيضاء...

في هذه الأثناء صدرت صرخة امرأة من الشارع، فنهض أحمد ومن ورائه محمد إلى النافذة الضيقة المطلة على الشارع، فرأوا امرأة غير منقبة وقد أحاط بها ثلاثة من ذوي الذقون الطويلة يحملون السلاسل والعصي الرفيعة المصنوعة من الخيزران وهي تحاول الفرار منهم، ولكنهم كانوا محيطين بها إحاطة السوار بالمعصم. عاد أحمد إلى مقعده ولحقه محمد على مضض، فقد كان يريد أن يعرف ماذا سيفعلون بالمرأة، ولكن شوقه لسماع بقية قصة أحمد كان أشد.

ـ لا شك أن الشرطة ستأتي بعد قليل...

قال محمد وهو يجلس بجانب أحمد... ضحك أحمد وهو يقول:

ـ شرطة مين يابه... هؤلاء هم الشرطة هنا... فكل من يخرج عن حدود الأدب يستحق ما يأتيه... امرأة عاهرة تستحق كل ما يجري لها... ولكن ما علينا... ماذا كنا نقول؟ آه... دخلت تلك الليلة المشؤومة إلى البار، وشربت الكثير من البيرة السوداء المرة، تقليداً لهم وليس استحباباً لطعمها، وتعرفت إلى بعضهم وظننت أني قد كوّنت صداقة معهم... كم كنت أهبل... المهم... عندما قُرع الجرس إعلاناً بالطلب الأخير قبل أن تُغلق الأبواب في تمام الحادية عشرة، كنا لا نزال في بداية النشوة، وكنت قد صممت على إقامة علاقة مع فتاة من المجموعة أعجبتني كثيراً، رغم ملابسها الغريبة، ويبدو أني كنت قد أعجبتها، أو هكذا هيّئ لي ساعتها، فقد كانت تنظر إليّ وتبتسم...

وشبك أحمد ذراعيه خلف عنقه، واسترخى على كرسيه، وهو

ينظر إلى السقف الملبد بالرطوبة، قبل أن يقول:

ـ كانت فتاة في غاية الجمال، بشعر ذهبي منسدل على كتفيها، وعينان بزرقة البحر، وفم كالفراولة الناضجة، وصدر ضخم، ممتلئة الجسد يكاد جسدها يتمرد على ملابسها التي حشرت نفسها فيها. . .

ثم وهو يعتدل في جلسته:

ـ لم أدر ماذا أفعل، فلم يكن لدي مكان خاص بي كي أدعوها إليه، فقد كنت أعيش في غرفة مع ثلاثة من المصريين. وحتى لو كان ذلك، فمعرفتي القصيرة بها لا تسمح لي بأن أدعوها من أول ليلة. . .

ثم وهو يضحك:

ـ لم أكن أطيق من كان معي في الغرفة، ولكني كنت مجبراً على السكن معهم، فأنا أريد أن أوفر أكبر قدر من المال كي أستطيع إكمال تعليمي، ومن ثم استقر نهائياً هناك. . .

وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول:

ـ ما علينا. . . المهم. . . كنت أحاول أن أكون جنتلمان إنكليزي بكل معنى الكلمة. . .

ثم وهو يضحك:

جنتلمان إنكليزي. . . بلا جنتلمان بلا بطيخ. . .

ثم يعاود الضحك من جديد قبل أن يقول:

ـ المهم. . . فجأة قال أحدهم لِـمَ لا نكمل السهرة عنده في شقته القريبة، فهناك ما يحتاجون إليه. . . أطلق الجميع صيحات الرضا والموافقة، وانتقلنا سريعاً إلى شقته. . .

وابتلع أحمد ريقه وكان بادي التوتر عندما وصل إلى هذه النقطة

من حديثه، حتى بدا وكأنه عازم عن التوقف عنه، غير أن محمد حثه على المواصلة وهو في غاية حالات الإثارة:

ـ وهناك، في شقة الإنكليزي، بدأنا نشرب الويسكي والفودكا، وأخذت أقترب أكثر وأكثر من تلك الفتاة، وكانت تبدو مستجيبة لمغازلتي، خاصة بعد أن ارتفع الحرج بعد عدة كؤوس من الويسكي... وأصارحك القول لقد كانت نفسي تمج الويسكي ولكني كنت عازماً على أن أكون واحداً منهم بأية طريقة ومهما كان الثمن... وبعد منتصف الليل بقليل، بدأت الجماعة بشم مادة بيضاء لم أكن أعرف أنها كانت كوكايين في حينه... وحتى لو عرفت لما اختلف الأمر... فكل ما يفعلونه لا بدُ أن يكون حضارياً جميلاً...

وأخذ وجه أحمد يتصبب عرقاً وهو يقول:

بعد ذلك بدأت ألاحظ شيئاً غريباً... لقد بدأ الشباب يقبلون بعضهم البعض، وبدأت الفتيات يقبلن بعضهن البعض... حتى تلك الفتاة التي أعجبتني تركتني بعد أن أيقنت أنها أصبحت ملك يدي، وأخذت تعانق فتاة أخرى في المجموعة... أدركت ساعتها أنني ارتكبت خطأً عظيماً، فقد كانت المجموعة من الشواذ، أو المثليين كما يحبون أن يطلقوا على أنفسهم أخزاهم الله، وكان البار الذي دخلت خاصاً بالشواذ... شعرت بالقرف وأحسست بالحاجة إلى التقيؤ فعلاً، فأردت الخروج، ولكني كنت في حالة من السكر لم أقو معها على الحركة، فلبثت مكاني آملاً أن تنتهي الحفلة بأسرع ما يمكن... وفجأة... فجأة أحسست بيد تداعبني... استفقت لبرهة، فوجدت أحد الشبان يحاول التودد إليّ... شعرت بالقرف، ولكني لم أستطع الحركة... أبعدته عني بتثاقل، وبعد لحظات وجدت فتاتي بقربي فاستعدت بعض نشاطي... تبادلت وإياها بعض القبل، وكدنا نمارس

الجنس، فقد بدأ الجميع في ممارسة جنس جماعي، فتيان وفتيان، فتيان وفتيات، فتيات وفتيات... خلطبيطه... سمك لبن تمر هندي... ولكنها استأذنتني في شم تلك المادة البيضاء، وأعطتني شيئاً منها قائلة إنها تزيد النشاط وتبعث السعادة، وكنت بحاجة إلى ذلك... شممت قليلاً من تلك المادة، فأحسست بسعادة غريبة تجتاحني، ونشاط لا مثيل له ينبعث بين أضلعي، وبدا كل شيء جميل حولي... عانقت الفتاة بحرارة وكان كل شيء فيّ متوتراً، وبدأنا بممارسة الجنس... كنت في غاية السعادة... لقد أصبحت منهم... أنا إنكليزي الآن، ولا يهم ماذا يفعلون... ولكن دون مقدمات أحسست بأحدهم يملس بيده على ظهري... أردت إبعاده، ولكن صاحبتي كانت تجذبني إليها فلم أستطع إلاّ مواصلة الجنس معها فيما كان من يداعبني يتعمق أكثر في مداعباته، ويتحول من التمليس على ظهري إلى تحسس أعضائي وأعضاء شارلوت الحساسة معاً... بنت الكلب... أردت أن أفعل شيئاً، ولكنني لا أذكر ما حدث بعد ذلك، فقد كان ذلك آخر علمي بما يجري... لا أدري... هل فقدت الوعي، أم أن الوعي فقدني... هل كنت فاعلاً أم مفعول به، أم هما معاً؟ لا أدري... أشياء غريبة تطوف في ذهني كالحلم، أو كأشباح لا هيكل لها، ولكني لا أذكر ما حدث بالضبط...

وهنا توقف أحمد عن الحديث، وانخرط في بكاء صامت وهو يدعو الله طالباً منه المغفرة والصفح، في ما كان محمد يراقبه بصمت دون أن يبدو على ملامحه ما يُعبِّر عن أي نوع من المشاعر. استمر أحمد في البكاء لبضع دقائق قبل أن ينهض ويعود بكأسي شاي جديدين، أخذ يرتشف أحدهما بهدوء وصمت قبل أن يقول:

ـ صحوت في اليوم التالي ووجدت نفسي عارياً على أريكة

طويلة، وكان الجميع قد غادروا إلاّ صاحب الشقة الذي كان يأتيني صوته من الحمام وهو يغني، وفتاتين عاريتين راقدتين على الأرض... كنت أحس بالغثيان والألم... الجسدي والنفسي... كانت لدي رغبة ملحة بالاستفراغ، فبحثت عن أقرب مغسلة واستفرغت كثيراً، وعببت الماء كثيراً... وعندما عدت إلى صالة الجلوس، كان توم صاحب الشقة قد أعد فنجاني قهوة سوداء... لم أكن راغباً في أي شيء، أريد الخروج فقط... ولكن توم استبقاني وهو يصر على تناول القهوة معه... قال لي أشياء كثير، ولكني لا أتذكر... قال لي كيف أنه لأول مرة يشاهد شارلوت تضاجع رجلاً، فهي معروفة بأنها لا تحب إلاّ بنات جنسها... وكيف أن هاري استمتع معي كثيراً، وهو يود أن يراني ثانية... كنت في غاية الخجل والقرف والألم والإثم... نعم الإثم، فعلى الرغم من حبي السابق لهم إلا أنني كنت مسلماً في داخلي على الدوام، ولكني كنت أتجاهل فطرتي التي فطرني الله عليها... لا أذكر أشياء كثيرة يتحدث عنها توم... عزمت على الخروج، فالتقطت ملابسي المتناثرة في كل مكان، واتجهت إلى الباب وصوت توم وهو يودعني قائلاً: «لا بدَّ من أن نراك ثانية... فقد أصبحت واحداً منا»... واحد منهم! شعرت بالرغبة في الاستفراغ من جديد ولكني تمالكت نفسي... لو قيلت لي هذه الكلمة بالأمس فقط، لكنت في غاية السعادة، أما اليوم فهي تجعلني أشعر بالغثيان الشديد...

وتجرع ما بقي من كأسه من شاي، ثم قال:

ـ خرجت إلى الشارع وأنا أحاول استنشاق هواء نقي، وأشعر بالاشمئزاز من كل ما حولي... حتى أني كنت أحس برائحة البراز تزكم أنفي في كل مكان أتجه إليه... أهذه هي لندن التي حلمت بها؟ أهذا هو الغرب الذي كان مثالاً أطارده؟ عدت إلى غرفتي في بايز

ووتر، واستحممت طويلاً، وشعور بالغثيان لا يريد أن يغادر، ورائحة البراز لا تريد أن تزول وكل ما أفكّر فيه هو ترك هذه البلاد بأسرع وقت ممكن والعوذة إلى مصر... أحببت مصر في تلك اللحظة بشكل جنوني... مصر التي كنت أكرهها عندما غادرت... لم أشعر بالذل والعار والحقد كما شعرت به ذلك اليوم... كنت أريد أن أصبح واحداً منهم، وقد أصبحت كذلك، ولكني لم أعد أريد... لقد اكتشفت أنني لا يمكن أن أكون واحداً منهم حتى ولو أردت... فحتى لو أردت فإنهم لا يريدون، وسأبقى مجرد تابع أو مطية لهم، وهذا لن يكون أبداً... عدت إلى مصر وأنا شخص مختلف... بل عدت إلى نفسي بعد تلك السفرة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم... عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم... والحمد لله في كل حال...

ثم مسح أحمد بقية الدموع في عينيه، ويواصل حديثه:

ـ بعد تلك الحادثة، حاولت أن أبتعد عنهم بأي شكل من الأشكال، فأخذت أذهب إلى مسجد لندن الكبير، وأبحث عن المسلمين من العرب وغيرهم وأبقى معهم أطول فترة ممكنة، فقد كنت أشعر بالأمن معهم... كنت أشعر أنني أنتمي إليهم، وأنني كنت أخدع نفسي طوال الوقت قبل ذلك...

ثم وهو يضحك:

ـ سبحان مغيّر الأحوال... تصور؟ كنت أهرب منهم بالأمس وأصفهم بالمتخلفين، والآن لا أجد الانتماء والأمن وراحة النفس إلاّ معهم... كم كنت مغفلاً حين أحببت ذوي البشرة البيضاء... بل البرصان قاتلهم الله... ألا أنهم هم المتخلفون والفاسقون...

ثم وهو يضحك بحبور:

ـ كم أحس بالسعادة الآن وقد أزحت هذا الكابوس من صدري... لقد كان جاثماً في داخلي كما الوجبة الثقيلة التي تأبى الهضم...

ثم نهض لعمل الشاي للمرة الثالثة، وعاد وهو يقول، وكأن صدره قد خرم بمثقاب ولا شيء يوقف تدفق الكلام:

ـ وعندما عدت إلى مصر، كنت أريد العودة إلى شخصيتي المعتادة، ولكني وجدت نفسي غريباً حتى عن نفسي التي كنت أعتقد أنها أنا قبل السفر... عشت في حالة من انعدام الوزن طوال السنتين اللتين أعقبتا العودة من بلاد أولاد الزواني وأحفاد الأفاعي... لم أكن أدري من أنا، رغم أني كنت أحاول إعطاء الانطباع بأنني لم أتغيّر، وكنت أحاول نسيان تلك الحادثة، ولكنها لم تكن تريد أن تتركني... تذكرني بنفسها كلما رأيت واحداً من أولاد الشرموطة عندنا، فأحس بالرغبة في القبض على خناقه، وعصره حتى الموت... سنتان من العذاب والضياع، حتى منّ اللّه عليّ بالإسلام...

وساد الصمت لبضع دقائق كانت تقطعه أصوات الباعة المتجولين في الخارج قبل أن يقطعه صوت أحمد القادم من بعيد:

ـ بعد عودتي من بلاد الكفر بسنتين، ولم أكن أجد سلواي إلاّ في المساجد وقراءة كتاب اللّه وشرب البيرة، والعياذ باللّه. وذات يوم، قادتني المقادير إلى مسجد صغير في أحد الشوارع الصغيرة المتفرعة من شارع فيصل. كنت ذلك اليوم في قمة الضياع، لم أكن أدري من أنا ولا ماذا أريد ولا معنى لكل ما جرى ويجري حولي، حتى إن فكرة الانتحار كانت تحوم في رأسي والعياذ باللّه... ولكني كنت أعلم أن من يقتل نفسه فهو خالد مخلد في النار. فأستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم، ولكن نفسي لا زالت غارقة في البؤس والألم، فلا أجد إلاّ أن

أهيم على وجهي في الشوارع. دخلت المسجد دون تخطيط مني، فلم أكن أريد أن أصلي حقيقة، بقدر ما كنت أريد أن أكون مع أناس يبعدون عني وسوسات نفسي الأمارة بالسوء... قوة خفية ويد حانية هي التي قادتني إلى هناك، هذا ما أدركته لاحقاً وإلاّ كيف يمكن تفسير الأمر؟ مجيئي إلى هذا الشارع بالذات، وذاك المسجد بالذات... شيء لا يمكن تفسيره إلاّ بتلك اليد الحانية... دخلت المسجد، وكان الوقت ما بعد صلاة العصر، لم يكن هناك إلاّ بعض طلبة علم يتدارسون، وشيخ وقور انتبذ ناحية من المسجد يقرأ القرآن. كانوا أربعة من الشباب في حدود العشرين، ويحدثهم شاب في حوالى السادسة والعشرين، يبدو وكأنه في الستين من عمره بسمته ووقاره وهدوء حديثه. كنت أبحث عن الناس، ولكن المسجد خال، فأردت الخروج، غير أن شيئاً في نفسي دفعني إلى الجلوس غير بعيد عن أولئك الشبان. أسندت ظهري إلى أحد أعمدة المسجد، وأنا منشغل بحالي مفكراً في لا شيء، ولكن أصواتهم كانت تأتي إليّ وكأنها قادمة من بُعد آخر، فلم أستطع إلاّ أن أسمع. كانوا يتحدثون بكون العالم قد عاد كما كان قبل البعثة: مادياً جاهلياً سُلبت منه الروح والقيم. وجدت نفسي دون إرادة مني منجذباً إلى حديثهم، فأخذت أقترب منهم بهدوء والسكينة تتسلل إلى نفسي، وارتياح عظيم يجتاحني. وبدون مقدمات وجدت الشاب المُحدث يناديني: «يا أخ... لماذا لا تنضم إلينا؟». وبدون تردد انضممت إليهم، وكأني أعرفهم منذ زمن. كان الحديث جميلاً عذباً مريحاً للنفس جعلني أغيب عن نفسي، بل عن الدنيا وما حوت. تحدث الشيخ محمود، وهذا هو اسمه، عما أعد الله للمتقين في الآخرة من نعيم، وعما أعده لهم في الدنيا من النصر والتمكين. وتحدث عن أن سبب ضعف المسلمين هو البعد عن الله ومنهجه

الرباني، وما إن يعود المسلمون إلى دينهم، حتى تنتهي كل مشاكلهم، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بل وحتى النفسية، فعذاب النفس هو نتيجة البُعد عن الإيمان، ويعود المسلمون أسياداً للدنيا، فمن يتقِ اللّه يجعل له مخرجاً... واللّه لا يورث الأرض إلاّ للمتقين، الذين لا يشركون باللّه شيئاً، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويجاهدون في سبيله... التقوى والتزام أوامر اللّه... هذا هو المفتاح السري والسحري لنعيم الدنيا والآخرة معاً... لم ينتصر الأنبياء بقوة المادة، ولكنهم انتصروا بقوة الروح... بقوة الإيمان... لقد صنع المسيح المعجزات بفضل اللّه ثم بقوة الإيمان... ولقد انتصر سيد البشر، محمد بن عبد اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، باعتماده على اللّه، وهو اليتيم الفقير المنبوذ من قومه...

وبعد انتهاء الدرس وانصراف الطلبة من حول الشيخ، نهضت لأخرج، ولكنه أمسك بي ودعاني للجلوس معه حتى صلاة المغرب. بقي صامتاً لفترة وهو ينظر إليّ وابتسامة واسعة تحتل كل وجهه، ثم قال:

ـ أنت معذب النفس يا أخي... أرح نفسك...

بهت عندما قال لي هذا الكلام، فقد كان كمن ينظر مباشرة إلى قلبي ويقرأ ما فيه. وبعد أن صلّينا المغرب، أصرّ على أن أذهب معه إلى بيته. خرجنا من المسجد، في ما كان صوت شيخ وقور يأتي من حيث لا أدري مرتلاً بصوت شجي عذب: «وقل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة اللّه...»، وكأنه يوجّه الكلام إليّ، فلم أتمالك نفسي، وانهمرت الدموع من عيني، والشيخ محمود يحاول تهدئتي. وفي بيته القريب من المسجد، أحسست لأول مرة بالراحة الصافية هناك، ولم أخرج من عنده إلاّ وأنا محمّل بكُتب

وأشرطة قيّمة عرفت من خلالها كم كنت ضالاً وبعيداً عن خالقي، وكم كنت ضائعاً وأنا منشغل بنفسي، ناسياً أن هنالك خالقاً يمكنك أن تسلمه مسؤولية نفسك فتكسب نفسك وتكسب خالقك في الوقت ذاته...

وقطع الحديث صوت يصيح من الخارج داعياً «الشيخ أحمد» للخروج إليه، فاستأذن من محمد وخرج إلى المنادي. أطل محمد من النافذة الصغيرة، فرأى شاباً شديد سواد لحية تكاد تلامس صدره، وهو يتحدث مع أحمد، ثم أعطاه شيئاً ملفوفاً بخرقة كانت بيضاء، ثم غادر في ما أخذ أحمد طريق إلى الشقة، حيث دس ذلك الشيء تحت السرير في غرفة النوم، ثم عاد إلى أحمد ضاحكاً وهو يقول:

ـ أرجو المعذرة... جار صديق كان يريد خدمة بسيطة...

ثم وهو يجلس:

ـ ماذا كنا نقول...

ـ خرجت من بيت الشيخ محمود...

ـ آه... نعم... توطدت العلاقة بيني وبين الشيخ محمود بعد ذلك، فكان يصطحبني إلى مساجد كثيرة ومجالس أكثر في كل أحياء القاهرة، أحياء لم أكن أعرف أنها موجودة في القاهرة، وأخرى كانت سيئة السمعة مثل الباطنية وتحت الربع وغيرها، ولكني وجدت فيها حياة مختلفة عما يقولون... عرفت من خلالها أننا كلنا من الضالين، وأن المجتمع كله قد فسق وخرج عن جادة الحق والصواب، ولا بدّ من إعادته إلى صوابه، بل وكنت بعض الأحيان أرافقه في السفر إلى الأقاليم في الوجهين، فذهبنا إلى المنصورة وطنطا والإسكندرية ودمياط والمنيا وسوهاج وأسيوط، حتى إننا ذهبنا ذات مرة إلى أسوان...

وذات يوم اختلى بي الشيخ محمود وقال لي: «يا أخ أحمد... قال تعالى: «وقل اعملوا، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون...». صدق جل من قائل... يا أخ أحمد، نحن دعاة نعم، ولكننا مجاهدون أيضاً، فالدعوة لا تكتمل دون جهاد، وقد عطّل المسلمون فريضة الجهاد في هذا الزمن ولذلك ضُربت عليهم الذلة والمسكنة... ألا ترى أن اليهود، أحفاد القردة والخنازير وأبناء الأفاعي، وهم من ضُربت عليهم الذلة والمسكنة لعصيانهم الرب الذي اصطفاهم على العالمين، وأراهم من المعجزات ما لم يره أي قوم آخرين، أصبحوا اليوم أسياداً، وذلك بفضل القوة، بينما نحن المأمورون بالقتال والجهاد في سبيل واحد أحد قد تركنا الجهاد... دعوة بلا جهاد روح بلا جسد، والروح جميلة، ولكن الأجمل أن تتجسّد في كيان ملموس... ألا ترى أن الحب لا يكتمل إلاّ بالنكاح، وأن السعادة لا تكتمل إلاّ بالمال والبنون... زينة الحياة الدنيا؟

وتوقف أحمد عن الحديث لبرهة ريثما يُحضر كوباً من الماء، قبل أن يقول:

ـ وجدت نفسي متفقاً مع كل كلمة يقولها، بل إن كلماته كانت تدخل إلى روحي فتتشربها بسرعة وكأنها صحراء جاءها الغيث على غير موعد... وافقته على كلامه بحماسة شديدة، وكانت صورة أبناء الزواني في لندن لا تفارق مخيلتي، وأحسست أن ساعة الإنتقام قد أزفت، ليس منهم فحسب، ولكن من كافة حضارتهم الزائفة، ومجتمعاتهم المنحلة، والجاهلية التي يعمهون فيها... يدّعون أنهم أحضر الناس، وفي الواقع أنهم أحقر الناس...

وأخذ رشفة من كوب الماء، وقد انتفخت أوداجه، ثم لم يلبث أن ارتخت وهو يقول بصوت خفيض:

ـ عرفني الشيخ محمود بعد ذلك على إخوان آخرين أشد مني حماسة للجهاد ضد الجاهلية الضاربة أطنابها في المجتمع وفي كل العالم، وضد أعداء الإسلام من الكفار والمشركين والعلمانيين وعبدة الأوثان. . .

ثم وهو يشير بسبابته إلى محمد:

ـ ولا تعتقد يا أخي أن الأوثان هي مجرد تماثيل، بل إن كل ما يُعبد من دون اللّه هو وثن وطاغوت. . . المال، الحياة الدنيا، المناصب، الحُكام، الخضوع لحكم البشر. . . كلها أوثان وطواغيت. . . طواغيت هذا العصر أعتى وأمرّ من طواغيت أيام رسالة نبي الهدى عليه أفضل الصّلاة وأتم التسليم. . .

ويرتشف رشفة أخرى من الماء، ويشبك كفيه خلف رأسه وهو ينظر إلى السقف الذي تقشعت ألوانه ويقول:

ـ وأصبحت عضواً في خلية يرأسها الشيخ محمود الذي لم نعد ندعوه بعد ذلك إلاّ بالأمير، ضمن تنظيم أكبر اسمه «طلاب الجنة». كنت في غاية الحماسة لأن أبدأ الجهاد، ولكن الأمير كان يقول أنني لست مستعداً بعد. بعد انضمامي للتنظيم بعدة أشهر، استدعاني الأمير ذات يوم وبشّرني بأني ذاهب إلى أفغانستان للتدريب، وعندما أعود سوف أكون مجاهداً كاملاً يوثق به. فرحت جداً، وما هي إلاّ عدّة أيام إلاّ والأمير يزودني بجواز سفر وتذكرة طائرة إلى كراتشي عن طريق دبي.

وأخذ أحمد نفساً طويلاً، وقد بدا الارتياح الكامل على محياه وهو يقول:

ـ لم يكن سفري من مصر سهلاً. . . أو هكذا ظننت. . . فأنا لم

أقضِ الخدمة الإجبارية في الجيش، وكنت أخشى أن لا يُسمح لي بالسفر، ولكني اكتشفت أن التنظيم كان مخترقاً كثيراً من الأجهزة في الدولة، بحيث مُنحتُ جواز سفر وتصريح بالسفر بكل يسر...

ويأخذ أحمد نفساً عميقاً وهو لا يزال شابكاً كفيه خلف عنقه:

ـ المهم... قضيت في أفغانستان عدّة أشهر في معسكر الفاروق، تدربت خلالها على استخدام كافة أنواع السلاح والمتفجرات، ثم تزوجت فتاة أفغانية جميلة وتقية، كانت شقيقة مجاهد أفغاني تعرُفت به في خوست، قضيت معها أجمل أيام حياتي...

فوجئ محمد من قصة الزواج هذه، ففغر فاه كالمغفل وهو يقول:

ـ تزوجت؟

ووسط ضحكته المجلجلة، قال أحمد:

ـ نعم... وما الغرابة في الأمر؟ أم تعتقد أني ما زلت صغيراً؟

ـ ليس القصد... ولكنها... ولكنها مفاجأة... وهل يعلم العم محمود والخالة صفية بهذه القصة؟

ـ تقصد والداي... كلا... وليس من الضروري أن يعلما... أنا صاحب القرار لا هما... لم أعد طفلاً حتى يقررا عني، ولست بناقص عقل أو سفيه حتى يسيران أموري... ثم... ثم... لقد أصبحت لي عائلة هناك ولم يعد يربطني بمن أنجبني أية علاقة...

قال أحمد ذلك بضيق واضح، حتى إن وجهه تحول إلى ما يشبه الليمونة المعصورة...

ـ ولكن... ولكن... من حقهما أن يعرفا...

وبتوتر واضح، قال أحمد وهو ينخر:

ـ لا تقلق... سوف يعرفان في الوقت المناسب... لا تقلق... المهم، لم أكن أريد العودة من أفغانستان، ولكن القتال بين فصائل المجاهدين، وعدم رغبتنا تفضيل فصيل على آخر في ذلك الوقت، وكذلك تطلعنا إلى الجهاد في مصر، جعل التنظيم يصدر قراراً بعودتنا إلى مصر، فعدت وأنا في غاية الحزن... مثل سيدنا آدم عندما طُرد من الجنة...

ـ الجنة حتة واحدة؟

قال محمد مستغرباً، في ما غاب أحمد مع نفسه وهو يقول:

نعم الجنة حتة وحدة... من عاش وجاهد في أفغانستان، لا يمكن أن يطيب له أي مكان آخر... أفغانستان هي جنة هذه الدنيا، وما عداها هو السعير...

وبعد فترة من صمت قصير:

ـ المهم... تركت زوجتي حاملاً، ولا أدري هل أعود إليها أم لا... ولكنني سأعود... أُقسم باللّه سأعود إن شاء اللّه...

وساد الصمت من جديد، في ما صوت بائع البطاطا في الخارج ينادي «عسل يا بطاطا»، متداخلاً مع صوت بائع الخضار وهو يصيح «مجنونة يا أوطه... ريانة يا إته... خضرا يا ملوخية...»، وبائع البطيخ يغني «أحمر وعسل يا بطيخ...»، تتداخل لخرق ذلك الصمت الرهيب...

* * *

كانت قصة غريبة تلك التي اعترف بها أحمد، أعطت أجوبة لتلك الأسئلة الكثيرة التي كانت تدور في رأس محمد. شعر بالاشمئزاز يجتاحه كلما تذكر تفاصيل القصة، وذكرته بحادثة مشابهة مرَّ بها هو

نفسه عندما كان في المرحلة الإعدادية، حين حاول أحد الطلاب في المرحلة الثانوية أن يختطفه ويغتصبه عندما كان عائداً إلى البيت من المدرسة، ولكن الله أنجاه حين ظهر أحد الفلاحين فجأة بجانب الترعة التي جره إليها ذلك الصبي. بقي مرعوباً من الحادثة طوال تلك السنة، وكان يود لو أنه غير مضطر للذهاب إلى المدرسة، ولكن صرامة والده الشديدة كانت تمنعه من مجرد التفكير في ذلك. كم كان يود لو أنه أخبر والده بالقصة، لعل والده يفعل شيئاً، ولكنه كان في غاية الرعب من مجرد التفكير بإخبار والده، فلن تكون النتيجة إلاّ تهزيئاً، فهو يعرف والده جيداً. فكّر في إخبار والدته، ولكنه لم يكن يريد إقلاقها أو أن تغدق عليه من حنان زائد بدأ يتضايق منه. ومنذ تلك الحادثة، لم يعد يفكّر في العودة وحيداً من المدرسة، فإما أن يعود هو وأحمد، المعروف بشقاوته وبأسه بين التلاميذ، أو ضمن مجموعة من التلاميذ من جيرانهم المعروفين. بل ومنذ تلك الحادثة، لم يعد يشعر بالأمان إلاّ في وسط مجموعة من الناس، وكان يقلقه كثيراً أن يكون وحيداً...

* * *

في الأيام التالية، أصبح محمد قريناً لأحمد بشكل يكاد يكون كاملاً، فكان يرافقه إلى كل مكان... يصليان الفجر في مكان والظهر في مكان آخر والعشاء في مكان آخر مختلف. يتناولان الإفطار في منزل أحد الإخوان، والغداء على مائدة أمير من أمراء التنظيم، والعشاء في مدينة أو قرية خارج القاهرة حيث يبيتان. كان محمد مبهوراً من هذا العالم الجديد الذي اكتشفه، فقد كان يعتقد أنه يعيش في القاهرة طوال حياته، وأنه يعرف كل نقطة فيها، فإذا به يكتشف قاهرة غير القاهرة،

وعالماً غير العالم. لم يكتشف أنه كان من الكافرين إلاّ بعد أن اكتشف هذا العالم الجديد. لقد كان بطبعه متديناً، وكان والده كذلك وكل من يعرف من أقاربه، ولكنه اكتشف بعد تعرفه إلى ها العالم الجديد أن ما كان يعتقده من الإسلام بعيد كل البعد عن الإسلام. كان يعتقد أن من شهد أن لا إله إلاّ اللّه وأن محمداً رسول اللّه هو مسلم وإن ارتكب المعاصي، فتلك مسألة أخرى لا تُخرج من الدين. في عالمه الجديد عرف أن الشهادة لوحدها لا تكفي، فذاك إرجاء مخرج عن الملة. فالإيمان قول وعمل، يقين في القلب وعمل بالجوارح، ومن قال بغير هذا فهو كافر عليه العودة إلى حياض الدين الصحيح. أشياء كثيرة كانت غائبة عنه، وحقائق أكثر كانت ضائعة في ما كان يعتقد أنه الإسلام فإذا هو شيء غير الإسلام.

لقد عطل المسلمون فريضة الجهاد، التي قال عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أن من يمت ولم يجاهد أو تحدثه نفسه بالجهاد فقد مات ميتة جاهلية. وعطّل المسلمون فريضة الولاء والبراء، فأخذوا يصادقون ويتحالفون مع الكفار والمشركين ضد إخوانهم من المسلمين، مخالفين بذلك قول الحق سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن اللّه لا يهدي القوم الظالمين»، وقوله: «بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة للّه جميعاً»، وقوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق»، وقوله: «قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون اللّه كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا باللّه وحده»، وقوله:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون اللّه ورسوله أولئك سيرحمهم اللّه إن اللّه عزيز حكيم﴾.

... ربّاه... كيف كانت هذه الحقائق غائبة عنه، وكأنه اليوم يقرأ القرآن لأول مرة في حياته، وهو القارئ لكتاب اللّه طوال عمره؟ كيف غابت عنه ملّة إبراهيم وسلوك إبراهيم، وهو الذي كان يعتقد أنه كان مسلماً طوال الوقت. لقد كان يعيش في جاهلية طوال الوقت وهو يعتقد أنه مؤمن كامل الإيمان، ومسلم مؤدٍ لكافة الأركان، واكتشف أن أهم الأركان مفقود... قاتل اللّه إبليس وتبليسه...

أحسن أنه يُولَد مرّة أخرى وهو يغوص في هذا العالم الجديد، في رحلة هي أشبه ما تكون بالهجرة من عالم الجاهلية إلى عالم الإيمان، وكأنما هو اليوم مهاجر من مكة الجاهلية إلى يثرب النور. أحس بالامتنان كثيراً لصديقه أحمد، فلولاه بعد اللّه سبحانه لبقي في جهالته وغروره الذي سوّل له أنه مسلم كامل الإسلام. بل كل الشكر لرب السماوات والأرض، فهو الهادي إلى سواء السبيل أولاً وآخراً، فإن يهدكم اللّه، فلا مُضل لكم، وان يضللكم اللّه فلا هادي لكم. وابتسم وهو يتذكر حديث صديقه عن لندن وما جرى فيها... سبحان اللّه... فعلاً فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، فلولا تلك الحادثة لربما بقي أحمد على ضلالته، ولكن اللّه سبحانه أراد له الهداية، فسبب الأسباب، وكانت لندن أحد تلك الأسباب، وكان هو سبباً في هدايته إلى دين الحق. وطافت في ذهنه قصة الخضر مع نبي اللّه موسى، وكيف أن للّه حكمة قد لا نراها اليوم، ولكنها تكشف نفسها عندما يحين الوقت المناسب... الظاهر لا يعني شيئاً، فحكمة اللّه في كل شيء باطنة، ولكن جهالة الناس هي التي تجعلهم يتعلقون بالظاهر

وينسون حكمة الباطن... سبحانك الله وبحمدك، إنا ظلمنا أنفسنا، فإن لم تهدنا لنكونن من الضالين... لنكونن من الضالين... أخذ محمد يردد وهو يحس بعبء ثقيل ينزاح عن روحه المتوترة، وشعر بصفاء لم يخبره من قبل بعد أن ألقى بمسؤولية حياته القادمة على من خلق الخَلْق ودبَّر الكون...

* * *

وجد محمد نفسه الحقيقية بين هؤلاء الإخوان، فأراد إطلاق العنان للحيته، ولكن والدته رفضت رفضاً قاطعاً منظره غير الحليق، وحلفت عليه أن يحلقها، ولم يكن يريد إغضاب أعز مخلوق لديه في هذه الدنيا، فحلق لحيته النامية وهو لذلك من الكارهين. وكان يود لو يُغيِّر من شكله فيلبس كما يلبس الإخوان من جلابيب، ولكنه لم يرد إغضاب والدته أكثر من ذلك، خاصة وأن والده كان في صف والدته هذه المرة، حين نهره وهو يراه مرتدياً الجلباب: «اللحية وما قلناش حاجة، أما أن تصبح أفغانياً فلا... أنت مصري، ويجب أن تبقى كذلك...». لم يكن مقتنعاً بكلام والده، وكان على استعداد لعصيانه في ما أمر به، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولكنه لم يشأ أن يكسر قلب أمه التي يحبها كثيراً. وأخذ يقرأ كثيراً في كتب الأقدمين واللاحقين، وخاصة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ورسائل محمد بن عبد الوهاب وجهيمان العتيبي، ومؤلفات سيد قطب ومحمد قطب وعمر عبد الرحمن وفرج عبد السلام وتفسير الشيخ الشعراوي للقرآن الكريم، وأسره «في ظلال القرآن» لسيد قطب، حتى أنه قرأه عدّة مرّات، وانكب على سيرة ابن هشام يلتهمها إلتهاماً، وأعاد قراءة القرآن الكريم بنظرة جديدة، وكلما أحس بنفسه تراخياً أو نوعاً

من التبرم والضيق، ووسوس له الشيطان الرجيم بالعودة إلى شيء من حياته السابقة، أو أن يروّح عن نفسه ساعة، كان يلجأ إلى كتب عذاب القبر ومشاهد يوم القيامة ونعيم الجنة والإسراء والمعراج، فيعود إلى نفسه من جديد، ويعلم أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، رغم الرعب الذي يجتاحه كلما قرأ عن سؤال القبر وعذاب القبر، ومرزبة منكر ونكير، والأمل الذي يحدوه كلما قرأ عن نعيم الجنة ومتعها التي لا تنضب. ولكن أكثر ما أفزعه حقاً لمدة طويلة هو قصة الإسراء والمعراج برواية ابن عباس. فعندما قرأ القصة لأول مرة، بقي عدّة ليال لا ينام، ويتراءى له خزنة النار في كل ليلة، فيقوم غزعاً في جوف الليل وهو يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويعقد العزم أن يتجنب كل ما يمكن أن يؤدي به إلى النار. وفي ليال أخرى كان يحلم بالجنة وحورها وأنهارها وبيوتها، فيصحو من نومه وريح الجنة لا يزال في أنفه، فيعقد العزم على أن لا يفعل إلاّ ما يؤدي إليها، ويبدو له الزمان طويلاً جداً إلى أن يموت ويذهب إليها. كم كان بوده لو أنه يموت من ساعته ويذهب إلى حيث النعيم المقيم، فما أطول الحياة وأبغضها بعيداً عن الجنة...

وأصبح يغيب عن المنزل بالليلة والليلتين، مما أثار قلق والديه، ولكنهما كانا مطمئنين إلى أنه ليس شاباً منفلت الأخلاق، بل هو ملتزم كل الالتزام. شيء واحد كان يقلق والده، ألا وهو خشيته من أن يكون ابنه قد أصبح من الإرهابيين الذين يقتلون الناس ويسرقون الممتلكات، ولكنه كان يعرف شخصية ابنه الهادئة والمسالمة، فهو لا يهتم بشيء قدر اهتمامه بدروسه والتفوق فيها، ولذلك أبعد هذه الوساوس عن خاطره، وقد عادت الطمأنينة إلى قلبه. شيء واحد لم يفعله في عالمه الجديد، ألا وهو الانضمام إلى «طلاب الجنة» بشكل رسمي. حاول

معه صديقه أحمد، وحاول معه إخوانه الجدد، ولكنه كان يرفض، رغم تأييده لهم كل التأييد. كان يود أن ينضم للمجاهدين بكل جوارحه، ولكنه كلما عزم على ذلك، تبدت له صورة أمه وأختيه وهن يبكينه في ما لو مات أو سُجن. كانت الحملة على الإرهابيين، كما تسمي الحكومة الكافرة المجاهدين من المؤمنين، على أشدها، حتى إنهم أصبحوا يشكون في كل ملتح وحاف للشوارب. لم يكن يهمه شيء، فمن يعطي حياته في سبيل الله لا خوف عليه ولا هو بالحزين، ولكنه غير قادر على ردع تلك المشاعر التي تتفاعل في داخله. كم يحب أمه وأختيه، وهذا الحب هو الذي يمنعه من المشاركة في الجهاد رغم شوقه إلى ذلك. كان يعلم أن هذا الحب هو الوتر الذي يلعب عليه الشيطان، لعنه الله، ليوسوس له من خلاله ويمنعه من الجهاد في سبيل الله، كما قال له أحمد وبقية الإخوان، ولكنه غير قادر على كبح جماح الشيطان بكل الطُرق التي حاولها. وكلما ظنّ أنه قد صرع الشيطان ووساوسه في النهاية، وعزم على الانضمام، تراءت له صورة أمه وأختيه، فيتراجع بعد أن ظن أنه لا رجوع. وأخيراً مل منه الإخوان، وإن بقوا حريصين على حضوره حلقاتهم الدراسية، فتركوه لحاله لعل الله يهديه في النهاية، ويعلم أننا ما وجدنا في هذه الدنيا إلاّ لعبادة الله، وأعظم العبادات هي الموت في سبيل الله. كانوا يعلمون أنه سينضم إليهم في النهاية، فتركوه لحاله حتى تأتي اللحظة التي يلهمه الله فيها سواء السبيل...

* * *

جاءه أحمد ذات يوم وهو مضطرب أشد الاضطراب، وطلب منه الخروج فهو يريد أن يحدثه بأمر هام. كان ملثماً وهو يلتفت يمنة

ويسرة، كأن أحداً يطارده. رفض الذهاب إلى أي مقهى أو مكان عام، وطلب منه أن يذهبا إلى ذلك الدغل في ترعة المريوطية، حيث اعتادا أن يلعبا وهما صغار. وهناك أخبره محمد بأنه قام بعملية جهادية ضد حافلة للسياح في منطقة المتحف، وقتلوا جميع الكفرة الذين كانوا في الحافلة، فهم ليسوا حديقة حيوانات كي يأتي الكفرة للفرجة عليهم، واستشهد منهم اثنان من المجاهدين في ما فرّ هو واثنان آخران، ولجأوا إلى ورشة خراطة في حي الجمالية، ولكن جنود فرعون عثروا عليهم، فدارت معركة معهم قتلوا فيها ما لا يقل عن السبعة من جنود الطاغوت، حتى فرغت ذخيرتهم، فهربوا إلى تلال المقطم القريبة، ولكن قنبلة انفجرت في أحدهم وهو يجري، فمات على الفور، وألقي القبض على الآخر في ما استطاع هو الهرب، ولا بدّ أن جنود الطاغوت يبحثون عنه الآن، لذلك هو يطلب من صديقه أن يخفيه حتى يستطيع تدبير أموره.

كانت مفاجأة بالنسبة لمحمد، فهو يود مساعدة صديقه، ولكنه لا يعرف كيف. سأله لِمَ لا يذهب إلى أميره، فهو أقدر على مساعدته، فأجاب أحمد بأنه فعل ذلك، ولكن خشية العيون المبثوثة جعلت الأمير يطلب منه الابتعاد وتدبير أموره بعيداً عنهم، فهم مراقبون، ولا يضمن النتائج في هذه الحالة، وبقية أفراد التنظيم ملاحقون مثله. لم يكن يستطيع إخفاء صديقه في بيته، فلا شك أن الزبانية سيبحثون عنه هناك، فهو معروف بصداقته الحميمة لأحمد، كما أن والديه سيشكان بأمر إقامته بينهم، خاصة وأن أخبار العملية ستملأ صحف النظام الكافر. واقترح عليه الاختباء في شقته، ولكن أحمد أخبره أنه لا يستطيع، فهي معروفة لزبانية الشيطان. وأخيراً قرر محمد أن يبقي أحمد مختبئاً في الدغل، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وخلال الأيام التالية، أصبح

محمد يخرج من البيت كثيراً، وهو يحمل الأطعمة، مبرراً ذلك لأمه أنه يذاكر وصاحب له من أجل تقديم امتحان في السفارة الألمانية تؤهله للحصول على منحة دراسية في ألمانيا، فكانت أمه تدعو لهما بالتوفيق، ولكن الوالد بدأ يشك في ما يجري، فلم تكن طبيعة محمد أن يذاكر مع أحد، فهو دائماً يفضل المذاكرة وحيداً. وقبل أن تتمكن الشكوك من قلب والده، غادر أحمد الدغل ذات صباح باكر مع آذان الفجر، وأخبره أن الإخوان قد دبروا له طريقاً للخروج من مصر والذهاب إلى البوسنة، حيث الجهاد على أشده هناك. كان أحمد يود لو أنه ذاهب إلى أفغانستان، حيث الأرض التي يُحب، والمرأة التي تحمل طفله، ولكن نداء اللّه فوق كل نداء، كما كان يقول، وكان ذلك آخر العهد به...

* * *

حبيبتي أسيل... هذه هي رسالتي الأخيرة إليك، وبعدها لن يكون لنا لقاء إلاّ في الجنة إن شاء اللّه، فقد قررت أن أهب نفسي للّه الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم وكل دنياهم بأن لهم الجنة، وقد اخترت الجنة الخالدة على هذه الدنيا الفانية البائسة. لقد أحببتك كما لم أحب شيئاً في هذا الوجود، وكم كان بودي أن أستمر في الحياة من أجلك، نعيش سوياً حتى آخر العمر، وننجب العديد من الأطفال، ولكن نداء اللّه فوق كل نداء، والجهاد في سبيل اللّه أعظم واجب يؤديه المسلم في هذه الدنيا، فما خلقنا اللّه إلاّ لعبادته ورفع اسمه وتحقيق شرعه. أسيل... أرجو أن لا تغضبي مني، فما أقوم به سيرفعني إلى مراتب الشهداء والنبيين في الفردوس الأعلى إن شاء اللّه حيث النعيم المقيم، وكل ما أرجوه من اللّه تعالى أن تكوني معي هناك، وأرجو أن أكون

شفيعاً لك يوم لا ينفع مال وبنون، إلاّ من أتى اللّه بقلب سليم، حيث نعيش في قصور من الذهب والألماس، وحيث الحياة أبدية وجميلة وخالية من المشاكل والأحزان. لا تحزني على رحيلي يا حبيبتي، فأنا وإن رحلت فإنني من الأحياء عند ربهم يرزقون إن شاء اللّه، وسأكون بانتظارك هناك، في الجنة، فواللّه لو أني خُيرتُ بين الحور العين في الجنة وبينك لاخترتك أنت. لن يطول انتظارك حبيبتي، فالدنيا مهما طالت فهي قصيرة، والأعمار مهما دامت فهي فانية، فلا تجعلي هذه الدنيا منتهى أملك وغاية مرادك، واتكلي على اللّه دائماً، فالدنيا لا تساوي جناح بعوضة في عين الجليل، ومهما احتجت في هذه الدنيا فهو كفيل بتلبيتها إن أنت أخلصت النية والتوكل على اللّه، وما عليك إلاّ التضرع له بالعبادة والدعاء حتى تجدي كل ما تحتاجين إليه في هذه الدنيا. أنتظرك في جنة الخلد حب عمري، وإلى أن نلتقي تأكدي أنني كنت دائماً أحبك، وما زلت أحبك، وسأبقى أحبك... أحبك، أحبك، أحبك...

أخذ زياد يستعرض في ذهنه الرسالة الأخيرة التي كتبها إلى أسيل يوم أمس، وقد افتر ثغره عن بسمة حزينة وهو يحاول الاسترخاء على المقعد بانتظار المناداة على إقلاع الطائرة. كان زياد متوتر الأعصاب لدرجة أن يداه كانتا ترتجفان دون إرادة منه، وكل جسده بارد برودة الموت. حاول الاستعانة بقراءة بعض الأدعية المأثورة في مثل هذه الحالات، ولكنه لم يستطع التحكم بأعصابه بشكل كامل، وطافت في ذهنه أفكار في التخلي عن المهمة التي كانوا يخططون لها منذ شهور، حتى إنه خشي أن ينهار ويفشل في المهمة التي نذر لها حياته، منذ أن عرف معنى لحياته، فالشيطان ووسوساته كان أقوى منه. فقبل شهرين

أرسلت له أسيل تذكرة «ون واي: ميامي دولسدورف»، وكان قد عقد النية على قطع تدريباته على الطيران، وعدم المشاركة في العملية، ولكن جزى الله الأخ رمزي كل خير، فقد استقبله في المطار، وأعاده إلى طريق الرشاد، بعد أن كاد الشيطان ينتصر عليه، ساعتها كره أسيل كرهاً شديداً، فقد تصورها الشيطان في صورة امرأة، أو أن الشيطان تغلب عليها كما تغلب على حواء في الجنة، ولكنه لم يستطع أن يكرهها رغم كل شيء. أسيل هي الدنيا بكل جمالها وحلاوتها ومغرياتها، ولكن الجنة أبقى وأخلد، وعاد إلى رشده، وبقيت أسيل خافقة في قلبه...

وأخذ العرق البارد يتصبب غزيراً على جبينه، في ما كانت قشعريرة غريبة تستولي على جسده، وثقل في قدميه بحيث أحس أنه غير قادر على تحريكهما. خشي أن يراه رفاقه في المهمة على هذه الحالة وهو قائدهم فتخور عزائمهم، فالتقط جريدة وحاول أن يدفن وجهه فيها، ولكن الخوف يزداد انتشاراً في فؤاده. ألقى بالجريدة جانباً وأخذ يقرأ بصوت يكاد يكون مسموعاً: «يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قِيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم لا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير. إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم. انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون...».

أحس بشيء من الراحة والسكينة والحماسة بعد قراءته هذه

الآيات، ولكن القلق والخوف ما لبثا أن عادا يغزوان فؤاده من جديد على غير إرادة منه. إنه يعلم أنه مقبل على حياة السعادة الأبدية، وليس الموت إلاّ لحظة الميلاد لتلك الحياة، وكل لحظة حاسمة لها ألمها، ولكنه ألم لا يدوم، ومن بعده جنان لا أول لها ولا آخر، وسعادة ضافية خالدة. إنه موقن بكل ذلك، ولكنه غير قادر على السيطرة على مخاوفه بالرغم من ذلك...

* * *

تحسس حقيبة يده، وتأكد من أن كل شيء على ما يرام، ثم تناول قارورة مياه معدنية ضائعة بين الأوراق هناك، وتجرع منها بضع رشفات، فأحس ببعض الراحة تجتاح جسده، رغم إحساسه بالذنب وهو مقبل على ملاقاة وجه ربه الكريم. هدأت أعصابه قليلاً، وبدأ يستعيد ثقته بنفسه، فتناول جرعة أخرى جعلته يتحكم في نفسه تماماً، رغم الشعور الطاغي بالإثم. لم يكن ينوي أن يتناول أي شيء من الكحول، وفي هذا اليوم بالذات، ولكنه وضع بعض الفودكا في قارورة الماء احتياطاً، وها هو بالفعل يحتاجها. كانت البيرة نهاراً، والويسكي مساءً، هو مشروبه المفضل في ألمانيا، والعرق في لبنان، ولكنه اختار الفودكا هذه المرة لأنها لا تترك رائحة قوية في الفم، وهو لا يُريد أن يُكشف أمره وهو ذاهب لملاقاة ربه. حاول مراراً وتكراراً أن يترك الشرب ولكنه كان في النهاية يعود إليه. لم يكن مدمناً، ولم يكن مفرطاً في الشراب، ولكن الشراب كان يجعله أكثر ثقة بالنفس، وأكثر قدرة على الحديث، وأكثر قدرة على القيام بما لا يستطيع القيام به وهو في حالته العادية. بل الغريب أن الشراب يجعله أكثر إيماناً باللّه وحباً له، فعندما كان يجثو على ركبتيه ويصلي في جوف الليل، عندما يكون عائداً من إحدى الحفلات التي لم يستطع مقاطعتها تماماً، كان يُحس

بأنه أقرب إلى الله، وأن الله يحبه رغم الإثم حين يستغفره بدموع حارة وهو خال في شقته. بل إنه يحس أنه في حالة عشق مع الله حين يشرب... «... ماذا سيفعل محمد يا ترى لو عرف أني لم أتوقف عن الشراب؟»... أخذ يحدث نفسه وهو يبتسم ساخراً دون إرادة منه... إنه لا يدري... كم يحب محمد ويكرهه ويخافه في الوقت ذاته، فمنذ اللحظة التي عرفه فيها وهو منجذب إليه بشكل غريب، وبدافع لا يدري أهو الحب أو الخوف أم الكره أم الغيرة... ولكن مما يخاف؟ لا يدري... ولكنه يشعر بالرهبة كلما التقت عيناه بعيني محمد الباردتين برودة الموت، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاه ذلك... يأمره محمد فيطيع... يحاول أن يناقش بعض الأحيان أو يعترض ولو بشكل خجول، ولكنه لا يستطيع... هناك شيء في هذا الإنسان لا يعرفه، ومهما حاول أن يعرفه فإنه لا يستطيع. يلوم نفسه أحياناً كثيرة على هذا الخنوع الذي لم يخبره في حياته كلها، ويقرر أن يكون شخصية مختلفة في المرة القادمة حين يُقابل محمد، ولكنه ما إن يراه مقبلاً، حتى تتلبسه حالة الرهبة تلك، فلا يعود يقوى على شيء، والمشكلة أنه لم يستطع كرهه رغم كل شيء، فهو يحبه بقدر خوفه منه. كلا... ليس هذا هو زياد الذي يعرفه... زياد الذي كان والداه وأخوته يصفونه بالعنيد والمكابر، أو أبو راس ناشفة، فلم يكن أحد يستطيع أن يثنيه عن رأي تبناه، أو قرار اتخذه حتى لو تبيّن له أنه كان خطأً بعد ذلك...

وتذكر والديه، فأحس بالألم يعصره عصراً، فهما لن يرياه بعد اليوم ولن يراهما، إلاّ أن كتب الله لهم اللقاء في الملكوت الأعلى. بل وحتى هناك، لا يدري في أي طبقة من الجنة يكون، وأي طبقة من الجنة يكونان. ولكن لعل الله يكرمه فيرفعهما إلى حيث يكون إكراماً

له. . . في الفردوس الأعلى. . . مقر الشهداء والصديقين. تذكر صوت أمه الحنون عندما كلّمها لآخر مرة قبل يومين، واعداً إياها بأنه سيعود إلى بيروت بعد أسبوعين، وستكون أسيل برفقته، لحضور حفل زفاف ابنة عمه الصغرى، ووعدته أمه بأن تُعد له أشهى المأكولات التي يحبها من فتوش وششبرك وورق عنب وكبة نية ومقلية ومشوية ودجاج متبل وملفوف بخبز المرقوق مُعد بطريقة خاصة لا يعرفها إلاّ أمه، هذا غير الحمص البيروتي، والمتبل واللبنة بالثوم التي يحبها كثيراً. وحدثته أمه أنها قد «وضعت عينها» على فتاة جميلة ترجو اللّه أن تكون من نصيبه. قالت له أمه «أنت تعرفها. . . فهي الفتاة التي كانت تراقصك وتدور حولك طوال الوقت في حفل زفاف ابن عمك زاهي العام الماضي». نعم إنه يذكرها، فقد كانت تكاد تلتصق به خلال تلك الحفلة. أكد لأمه أنه سيأتي برفقة أسيل، كي يتعرفوا على زوجة المستقبل، وليست بحاجة لأن تبحث له عن عروس. زفرت أمه عبر التلفون، ودعت له بالهداية والتوفيق، ولم تحاول أن تثنه عن قراره بالزواج من فتاة غير لبنانية، لا يعرفونها ولا تعرفهم. . .

كانت آخر مرة رأى فيها والديه قبل ثمانية أشهر تقريباً، وفي كانون الثاني/يناير الماضي تحديداً، فقد كان والده يُجري جراحة قلب مفتوح في مستشفى زحلة، وكان لا بدّ له أن يراه. لم يمكث كثيراً في لبنان خلال تلك الرحلة، فقد كان عليه العودة سريعاً إلى هامبورغ، فما إن اطمئن على صحة والده، حتى عاد سريعاً. وابتسم وهو يذكر آخر سفرة حقيقية له إلى لبنان قبل حوالى عاماً ونصف العام. كان عائداً من باكستان بعد أن أنهى دورة تدريبية في أفغانستان لعدة أسابيع، وتوقف في دبي حيث سافر من هناك إلى بيروت. كاد أن يفتضح أمره في تلك الرحلة، فقد أوقفه رجل مخابرات أميركي في مطار دبي وهو ذاهب إلى

بوابة بيروت، وأوقفه لبعض الوقت حيث سأله عما كان يفعل في باكستان، فأخبره أنه كان يتدرب على الطيران هناك، حيث الأسعار أرخص منها في أميركا. كان ثابت الجنان، فلم يجد رجل المخابرات بد من إطلاقه، رغم أن نظراته كانت توحي باستمرار الشك. ثم تحدث مع والده، وشكره على الألفي دولار التي أرسلها قبل بضعة أيام، وتواعدا على قضاء يوم أحد رائع في زحلة عندما يعود، قبل أن تنتهي أيام الصيف الجميلة، يعيدان فيه ذكرى الأيام الجميلة الماضية...

الأيام الجميلة... لقد كانت الأيام الجميلة في أفغانستان حقاً، حيث الراحة والطمأنينة والسكينة بين الإخوان من المجاهدين، فرغم قسوة الحياة هناك. كان يشعر بأنه يعيش بين الملائكة خلال تلك الأسابيع التي قضاها في معسكري «خلدن» و«الصديق»، وأن كل آثامه كانت تذوب وتتلاشى مع كل خطوة كان يخطوها في تلك الأرض الطاهرة، تلك الأرض التي سينبعث منها الإسلام ومجده من جديد، ليسود كل الدنيا. كم من ليلة قضاها وهو يشارك بحراسة المعسكر، ويتأمل نجوم أفغانستان، ويشعر بأنها نجوم غير النجوم، فلا شيء يشبه نجوم قندهار وخوست وجلال أباد. كان يشعر بسعادة ضافية وراحة كافية وهو يسهر الليالي في الحراسة، حتى بعد أن يكون قد أنهى دوريته. كان يشعر أنه يتحول إلى إنسان جديد، إنسان كأنه لتوه خارج من بطن أمه وهو يرى أنه بين السماء والأرض، وقد انكشفت الحُجب بينه وبين خالق الكون ذاته. ذات مرة قال له الأخ «أبو بكر»، أمير المعسكر، إنه يرهق نفسه، وإنه لا داعي لأن يقوم بأعباء ليست مفروضة عليه، فهو مطالب بتدريبات خفيفة وليس كالآخرين، فكان رده موجزاً لما يعتمل في نفسه آنذاك: «أنت تعيش هنا يا أخ أبو بكر، أما أنا فأعيش بين الكفار، فدعني أغسل بعض آثامي جزاك الله خيراً».

فيبتسم أبو بكر وهو يربت على كتف زياد قائلاً: «بارك اللّه فيك يا أبا طارق... بارك اللّه فيك...»، ثم يقفل راجعاً وهو يحمد اللّه على أن قيّض للإسلام من يرفع شأنه من أهل الإسلام، بعد طول سبات...

* * *

كم يشعر بالأسى لأنه لم يتمكّن من حضور حفل زفاف شقيقته داني في الشهر الماضي، ولكنه لم يكن قادراً على الحضور، إذ كان عليه السفر إلى فلوريدا استعداداً لتنفيذ الغزوة. وطافت أسيل في ذهنه، كم يشتاق إليها، فقد مرّ شهر ونصف الشهر منذ أن رآها لآخر مرة في منتصف تموز/يوليو. لم يتمالك نفسه، فابتعد قليلاً عن البوابة، واتصل بها في مدينة بوخوم، حيث تؤدي الامتحانات النهائية لبكالوريوس الطب في جامعة رور. جاءه صوتها خافتاً، لذيذاً، مخملياً كعادته وهي تقول:

ـ مساء الخير حبيبي... أين أنت؟

ـ أهلاً حبيبتي... أنا في مطار نيوأرك، نيوجرسي... سأسافر إلى سان فرانسيسكو بعد قليل، على رحلة اليونايتد رقم 93... أرجو أن لا أكون قد أزعجتك؟

ـ على الإطلاق، فقد كنت في شوق إلى سماع صوتك... كم الساعة الآن عندكم؟

حوالى الثامنة صباحاً، أعتقد أنها حوالى الواحدة ظهراً عندكم... أين أنت؟

ـ أنا في كافتيريا الجامعة أتناول الغداء...

ثم بصوت جذل متحمس:

ـ لقد أنهيت امتحاناتي النهائية قبل أيام... أنا طبيبة الآن... أو

يمكنك اعتباري كذلك...

قالت ذلك وهي تضحك بحبور، وشاركها زياد الضحك وهو يقول:

ـ كنت واثقاً من ذلك... كنت واثقاً من ذلك...

وتنحنح بقوة قبل أن يقول:

ـ سوف أسافر إلى بيروت بعد عشرة أيام، وسوف أفاتح أبي بموضوع زواجنا... بل سأبلغهم أننا متزوجان فعلاً... لديهم فكرة عن الموضوع، ولكن ليس تماماً، وبعدها سوف أعود إلى هامبورغ، ونعقد قراننا عند الشيخ سالم أبو الكرامات، ثم نسافر سوياً إلى بيروت...

صمت قليلاً وهو يغالب دموعاً تناضل للخروج من عينيه، وقد أحس بألم يخنقه خنقاً، وهو يعلم أنه يكذب على أحب إنسان لديه في الوجود، فهو مسافر بلا عودة، ولكنه تمالك نفسه وهو يقول:

ـ أحبك يا أسيل... أحبك... مهما حدث... لا تنسي ذلك أبداً...

ولم يستطع أن يمنع دمعة خرجت بالرغم منه، في ما كانت أسيل تقول بقلق:

ـ ما بك يا حبيبي... كأنك تودعني وداعاً أخيراً... أهنالك خطب ما؟

ـ كلا... كلا يا أعز من الحياة... اشتقت لك... اشتقت لك فقط...

ـ وأنا كذلك... كلها كم يوم ونكون معاً... أليس كذلك؟

قالت ذلك بقلق كان واضحاً من صوتها، قبل أن تؤكد:

ـ أليس كذلك يا حبيبي؟

ـ نعم... نعم... أراك قريباً... لقد أرسلت لك رسالة بالأمس، أرجو أن تصلك قريباً... قبلاتي...

ـ أراك قريباً... قبلاتي...

وأقفل الهاتف وعاد إلى مكانه وهو يحس أن ألم الدنيا كله قد تراكم في قلبه... ولكنها مجرد دنيا... وبعد قليل سيزول كل ألم...

* * *

وضعت أسيل السماعة والقلق يكاد يقتلها، فصوت زياد يوحي بأن هناك ما يخبئه عنها، فهي أعلم الناس به. لقد عرفته في كل حالاته... عرفته عندما كان غاضباً، وعرفته عندما كان راضياً. عرفته حين كان يعب ملذات الحياة عباً، وعرفته حين غيَّر أسلوب حياته وأصبح مسلماً ملتزماً، بل ومتزمتاً. كانت تحبه في كل أحواله، ولكنها لا تستطيع أن تفهم شيئاً من مكالمته اليوم. فهو يحدثها عن الجنة وكأنها لن تراه بعد اليوم، وهو يحدثها عن الزواج والسفر إلى بيروت، ولا تعلم أهو مسافر في النهاية إلى بيروت أم إلى وجهة أخرى؟ لقد تغيّر زياد كثيراً منذ أن عرفته لأول مرة قبل سنوات معدودة في غريفسفالد، واستمرت علاقتهما بعد الانتقال إلى بوخوم، فقد كان عندما عرفته أول مرة شاباً طموحاً ومرحاً، يحب الحياة ويعب منها عباً، ولكنه منذ سنتين تقريباً تغيَّر تغيُّراً جذرياً لا تكاد تفهمه. لقد أصبح متزمتاً وعصبياً وسريع الغضب والتوتر، ولا تدري ما الذي قَلَب حاله من حال إلى حال. لم يكن بالشاب المستهتر منذ أن عرفته أول

مرة، فقد كان حسه الديني عميقاً، ولكنه لم يكن متزمتاً ولا متعصباً، كان مسلماً معتدلاً، فقد كانت تذهب وإياه إلى المراقص والحفلات حيث يرقصون حتى يلهثون، ويضحكون حتى تدمع منهم العيون، وكان يحب البيرة كثيراً. ولكنه منذ سنتين لم يعد زياد الذي تعرف. لقد أصبح متوتراً على الدوام، ناقداً لكل شيء على الدوام، ولا حديث له إلاّ عن أميركا وإسرائيل وضرورة العودة إلى دين الله وإعادة الحياة للفريضة الغائبة، كما كان زياد يسمي الجهاد. لم يعد يخرج معها إلى المراقص، ولم يعد يشرب البيرة، رغم أنها كانت تشم رائحة الكحول في فمه بعض الأحيان، وأصبح عصبياً لدرجة لا تُطاق. وعندما كانا يخرجان إلى أحد المطاعم أو المنتزهات، كان يمنعها من التدخين أو ارتشاف كأس من النبيذ أو الشمبانيا، بل وصل به الحال إلى أنه هددها ذات مرّة بأنه لن يستمر في العلاقة معها إن لم تتحجب حجاباً كاملاً، فرفضت وتركها إلى حين، ولكنه عاد بعد فترة تأسف لها وسامحته، فهي لا تستطيع غير ذلك، فهي تحبه ولا تستطيع أن تتخيل حياتها بدونه، ولكنه استمر في منعها من شرب الكحول أو التدخين، رغم أنه هو نفسه عاد إلى الشرب عندما يكونان وحدهما تماماً. وكان يبدي امتعاضه من عدم تحجبها رغم أنها كانت دائماً محتشمة، فهي من أسرة تركية ألمانية ملتزمة بدينها، وأبوها لم يكن يفوت فرضاً من فروضه الدينية إلاّ أداه. وقد استبشرت خيراً قبل عام تقريباً، عندما عاد من رحلة إلى بيروت، وقد حلق لحيته وشاربيه، فاستبشرت خيراً من أن زياد الذي عرفته لأول مرة قد عاد، وأن تحولاته الأخيرة كانت نوعاً من نزوة ما لبثت أن انتهت، خاصة وقد أتى معه بهدية، سوار من الذهب اعتبرته مقدمة لخطبة رسمية. ولكنها اكتشفت أن زياد القديم لم يعد، بل ازداد توتراً وعصبية وتزمتاً، رغم عودة المظهر القديم.

كان يحدثها كثيراً عن الموت وعن الجنة وعن الجهاد في الآونة الأخيرة، وكانت تستمع إليه والقلق يحتل كل ذرة في جسدها، وهي تنظر إلى مستقبل لا تدري كيف يكون. تحبه؟ نعم تحبه بكل جوارحها، بل بكل ذرة في كيانها، ولكنها لم تعد قادرة على فهمه. فهو أحياناً يحدثها عن مستقبلهما معاً، وكيف سيسافر هو وإياها إلى بيروت لتقديمها إلى أهله هناك، ومن ثم يتزوجان ويستقران في لبنان، أجمل بلاد العالم كما كان يقول، ويستقران في بيت غاف بين غابات الصنوبر، حيث زقزقة العصافير في النهار، وغناء الجنادب في الليل، وينجبان العديد من الصبيان والصبايا. ولكنه ينقلب فجأة، وينظر بشرود إلى السماء من فوقه، ويبدأ في الحديث عن أن سعر الحياة هو الموت، وأن الدنيا لا قيمة لها، فهي فانية وإن طالت، وما الخلود إلاّ هناك، في الجنة، وسعر الجنة باهظ لا يمكن دفعه إلاّ من خلال إعلاء كلمة اللّه في الأرض بالجهاد. كان يخيفها بعض الأحيان، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى الأرض، وتختفي تلك النظرة الشاردة، وتحتل البسمة كل وجهه الوسيم، في حين تمتد يديه إلى يديها، يمسكهما برفق، ويقبل أطراف أصابعها، وقد امتلأت عيناه حباً ورقة وهو يقول بهمس كأنه نسمة في يوم حار: أحبك... أحبك يا أسيل...

أيكون لصاحبه محمد دوراً في ما آل إليه حال زياد؟ كانت أسيل تسأل نفسها على الدوام، فمنذ أن قابلت محمد هذا، وكانت مرة واحدة لا غير، وهي تشعر بنفور شديد منه، فقد كان له وجه كوجه الموت، وعينان جامدتان تفتقدان بريق الحياة، مما ذكرها بأحاديث والدها عن عزرائيل وهيئته عندما يأتي لقبض الأرواح. أحست نحوه بمقت لا تدري مبرراً له، كما شعرت بأن محمد يبادلها الشعور ذاته، فقد رفض مصافحتها عندما قدّمها زياد إليه، كما رفض الجلوس معهما

وغادر سريعاً وهو يرمقها بنظرة حملت بغضاء الدنيا كلها. أتراه يغير منها، ويعتبرها منافسة له على قلب صديقه؟ لا تدري... ربما... ولكنها لم تحبه على الإطلاق، ولم تكن راغبة في رؤيته مرة أخرى، وربما كان هذا هو شعوره أيضاً، بل هي واثقة من ذلك.

حدَّثت زياد بمشاعرها تجاه محمد، ولكنه ضحك من سخفها كما قال، وحاول أن يشرح لها شخصية محمد، وأنه صارم في المظهر ربما، ولكنه طيب في داخله، ولكنها لم تستطع التخلص من مشاعر الكره نحوه. إنها واثقة من أن له تأثيراً سيئاً على زياد، وكلما ازداد يقينها بذلك، كلما كرهته أكثر وأكثر.

أحضرت قهوة سوداء، وأشعلت سيجارة أخذت تنفث دخانها في الهواء وهي تفكِّر بزياد، وتحاول حلَّ هذه الألغاز المحيطة به وبها. وطافت في ذهنها أشياء كانت تعتبرها من الأمور العادية في الماضي، ولكنها اليوم تنظر إليها من زاوية مختلفة...

لقد غادر زياد إلى الولايات المتحدة لتعلم الطيران، ولكن لماذا يتعلم الطيران؟ كم كانت غبية عندما لم تسأله هذا السؤال من قبل، ولكنها لم تكن تفكِّر كما تفكِّر اليوم. وطافت في ذهنها رحلاتها معه إلى فلوريدا، وكيف كان يجلسها إلى جانبه بعض الأحيان في طائرات التدريب التي يستعملها، وكانت في غاية السرور والبهجة، ولكنها اليوم تشعر بشعور غريب، شعور من كان ساذجاً، بل غبياً لا يُدرك ما حوله. إنها تعلم أن محمد في أميركا أيضاً، وهو يتدرب على الطيران أيضاً في فلوريدا، فلماذا يتعلم محمد الطيران؟ ولماذا يتعلم زياد الطيران؟ هل أن الأمر صدفة، أو أن هنالك شيئاً لا تفهمه؟ وفجأة تذكَّرت شيئاً غاب عن ذهنها طوال الوقت، ولكنه يفرض نفسه اليوم. قبل حوالى السنة غاب زياد لمدة ثلاثة أسابيع، وعاد بعدها وقد حلق

لحيته وشاربيه، فأين كان؟ قال لها إنه كان عند أهله في لبنان، وصدقته في حينه، وهل لها إلاّ أن تصدقه! ولكنها تذكُرت أن محمد وبقية زملائه قد غابوا عن هامبورغ في الفترة نفسها، وفي وقت لم يكن وقت إجازات، فهل كان كل ذلك صدفة، أم أن الحقيقة غير ذلك؟ أشعلت سيجارة أخرى أخذت تنفث دخانها بتوتر ظاهر، وقد تحول كل شيء حولها إلى فراغ لا يعيش فيه إلاّ هي والقلق، في ما كان الخوف يحتل كل جوانحها. . .

* * *

عادت إلى شقتها وهي ضائعة لا تدري أين هي، وحاولت أن تهدأ قليلاً، ولكنها لم تستطع. لم تكن قادرة على أن تتحمل كل هذا القلق والخوف لوحدها، فأدارت قرص الهاتف، حتى جاءها الرد من الطرف الآخر:

ـ ألو. . .

ـ أهلاً علي. . . أنا أسيل. . . كيف حالك؟

ـ أهلاً أسيل. . . كيف أنت؟

ـ لا بأس. . . لا بأس. . .

ـ وكيف حال زياد؟

وانقبض قلبها قبل أن تقول:

ـ لا أدري. . . ولأجل ذلك أحدثك. . .

ـ خيراً. . . هل تخاصمتما مجدداً؟

قال علي ذلك وهو يضحك، في ما أخذت أسيل تنشج بصوت مسموع، مما أقلق علي كثيراً. . .

ـ كنتما دائماً تتخاصمان وتعودان إلى بعضكما البعض، فهوني عليك. . .

ومن بين دموعها، قالت أسيل:

ـ ليتنا كنا متخاصمين. . . لا أدري ماذا أقول يا علي. . . ولكني قلقة كثيراً على زياد. . . بل أنا خائفة. . .

ـ ما الذي جرى؟

ـ لقد كلمني زياد قبل قليل من أميركا، وهو على وشك السفر إلى سان فرانسيسكو. . . لا أدري. . . هنالك شيء غريب. . . كانت لهجته غريبة، وكان يحدثني وكأنه مسافر بلا عودة. . .

وجاءت ضحكة علي من الطرف الآخر وهو يقول:

ـ لعلك تبالغين قليلاً. . . مسافر بلا عودة! كيف يكون ذلك؟

ـ قلت لا أدري، ولكن هناك شيء غريب يجري. . . لقد تغيّر زياد كثيراً في الآونة الأخيرة. . . لم يعد زياد الذي قابلته لأول مرة في غريفسفالد، وعشت معه في بوخوم. . . لقد أصبح أكثر تزمتاً، وأخشى أن يكون قد التحق بأولئك المهووسين الذين يلتقون في مسجد شتايندام ومسجد القدس، ويتحدثون عن الجهاد والإستشهاد. . .

وضحك علي وهو يقول:

ـ زياد؟ جهاد؟ إستشهاد؟ لا بدَّ أنك تتحدثين عن شخص آخر. . . زياد محب للحياة، وهو يحبك أكثر من الحياة، وأعظم أمانيه أن تعيشا في بيت واحد، وتنجبان العديد من الصبيان والصبايا. . . زياد؟

واستغرق علي في ضحكة جديدة، قبل أن يقول جاداً:

ـ اسمعي يا أسيل... لقد جئت أنا وزياد إلى ألمانيا للبحث عن حياة أفضل، ومستقبل أفضل، وليس للموت من أجل فكرة مهووسة... لو كان زياد يريد الموت استشهاداً من أجل فكرة مهووسة، لما غادر بيروت من الأساس... دعي عنك القلق، وأريحي نفسك، فسوف يعود زياد، وسوف نفرح بأطفالكما، وسأذكرك بذلك بعد سنين...

وأحست أسيل ببعض الراحة، وانزاح القلق عن كاهلها وهي تقول:

ـ شكراً... شكراً يا علي... حقاً أنت صديق رائع... لقد أحسن زياد اختيار أصدقائه فعلاً...

ثم مستدركة:

ـ ليس كلهم على أية حال...

ووضعت السماعة، ولكن القلق بدأ يغزوها من جديد، وطيف محمد يحتل كل المكان...

* * *

شبك وائل كفيه وراء عنقه، ومدّ رجليه إلى الأمام محاولاً الاسترخاء قليلاً، بعد أن تفقد حقيبته للمرة المائة ربما، وأخذ يستعرض كل هذا الكم من الناس الذين أخذوا يتوافدون بغزارة بعد أن اقترب موعد الإقلاع. أناس بيض وسود وسمر وصفر، رجال ونساء، صغار وكبار، وألسنة متعددة وكأنهم في برج بابل... بل هم في برج بابل... أميركا هي بابل المعاصرة، ولكن بصورة عكسية... بابل القديمة كانت تتحدث لغة واحدة، وعندما تحدت الإله، تفرقت الألسن... أميركا يأتونها بألسن مختلفة، ثم يتحدثون بلغة واحدة...

كيف يكون ذلك وهم لا يقلون كفراً عن بابل والنمرود؟ لم يستطع الإجابة، وأحس أن عقله سينفجر، ولكنه أدرك أن الشيطان يحاول أن يغويه، فتعوذ بالله منه، وأدرك أن هذا النوع من التفكير مكر... مكر من الله... اختبار لفرز المؤمنين من الكافرين... ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين... هدأت نفسه قليلاً، وأدرك أنه قد نجا من أحابيل الشيطان ومكر الرحمن، فعاد إلى نفسه...

اللحظات تمر بطيئة، والسأم ينخر العظام، ومزيج من الخوف والقلق والفرح يتصارعان في داخله. لقد علم أخيراً أن هذه العملية غير عادية... لقد قال لهم الأمير في البداية أن الهدف هو خطف الطائرة لإطلاق سراح بعض المجاهدين من السجون الأميركية، ولكنه كان يُحس في أعماقه أن هنالك شيء أبعد من ذلك. في مطار ميامي أبلغهم الأمير أبو عبد الرحمن بنوع العملية، ووزّع عليهم رسالة من خمس صفحات، كتبها الأخ أبو العباس الجنوبي، جزاه الله كل خير، كلها إرشادات نهائية لما يجب فعله قبل العملية وأثنائها وحين إتمامها. نظر حوله فتأكد أن لا عيون تراقبه، وخاصة عيني أبو عبد الرحمن، ثم نظر إلى أخيه بجانبه فتأكد من أنه سارح في عالم آخر، فأخرج الرسالة من حقيبته اليدوية، وأخذ يقرأ:

قال أحد الصحابة: «أمرنا رسول الله بقراءتها قبل الغزوة فقرأناها فغنمنا وسلمنا». الليلة الأخيرة:

١ ـ التبايع على الموت وتجديد التنبيه وحلق الشعر الزائد من الجسم والتطيب والاغتسال.

٢ ـ معرفة الخطة جيداً من كل النواحي وتوقع ردة الفعل أو المقاومة من العدو.

٣ - قراءة سورتي التوبة والأنفال وتدبر معانيهما وما أعده الله للمؤمنين من النعيم المقيم للشهداء.

٤ - تذكير النفس بالسمع والطاعة تلك الليلة بأنك ستتعرض لمواقف حاسمة لا بدّ منها من السمع والطاعة (١٠٠ ٪) فروّض نفسك وفهّمها وأقنعها وحرّضها على ذلك قال تعالى: ﴿وأطيعوا اللّه ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن اللّه مع الصابرين﴾.

٥ - قيام الليل والإلحاح في الدعاء بالنصر والتمكين والفتح المبين وتيسير الأمور والستر علينا.

٦ - كثرة الذكر، واعلموا أن خير الذكر قراءة القرآن الكريم وذلك بإجماع أهل العلم في ما أعلم، ويكفي لنا أنه كلام فاطر السماوات والأرض الذي أنت مقبل عليه.

٧ - صفّ قلبك ونقه من الشوائب وانس وتناس شيئاً اسمه دنيا فقد مضى زمن اللعب وجاء الموعد الحق، وكم ضيعنا من أعمارنا من أوقات ألا نستغل تلك الساعات لتقديم القربات والطاعات.

٨ - ليكن صدرك منشرحاً فإنه ما بينك وبين زواجك إلاّ لحظات يسيرة بها تبدأ الحياة السعيدة الرضية والنعيم الخالد مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً. نسأل اللّه من فضله فكن متفائلاً فإنه عليه الصلاة والسّلام كان يحب الفأل في أمره كله.

٩ - ثم اجعل نصب عينيك أنك إذا وقعت في ابتلاء كيف تتصرف وكيف تثبت وتسترجع وتعلم أنا ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن هذا ابتلاء من اللّه جل وعلا ليرفع

درجتك ويكفر عن ذنوبك، ثم اعلم أن لحظات ثم ينجلي بإذن الله فيا هنيئاً لمن فاز بالأجر العظيم من الله. قال تعالى: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين».

١٠ ـ ثم تذكروا قول الله تعالى: «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون...» (الآية)، وبعد ذلك تذكروا: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله...» (الآية). وقوله تعالى: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

١١ ـ ذكر نفسك بالأدعية وإخوانك وتدبروا معانيها (أذكار الصباح والمساء).

١٢ ـ النفث مع النفس والشنطة والملابس والسكين وأدواتك بطاقتك (تذكرة)، وجوازك، وأوراقك كلها.

١٣ ـ تفقد سلاحك قبل الرحيل وقبل قبل الرحيل و(ليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته).

١٤ ـ شد عليكم ملابسك جيداً وهذا هو نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم فكانوا يشدون ملابسهم عليهم قبل المعركة، ثم شد حذائك جيداً وألبس شراباً (جورباً) يكون ممسكاً في الحذاء ولا تخرج منه. هذه كلها أسباب مأمورون بالأخذ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

١٥ ـ صلِّ الصبح في جماعة وتدبر أجرها وائتِ بالأذكار بعدها ولا تخرج من شقتك إلاّ متوضئاً، فإن الملائكة تستغفر لك ما دمت متوضئاً وتدعو لك. بعد ذلك المرحلة الثانية: إذا نقلك التاكسي

إلى (م)، فاذكر عند ركوب السيارة ذكراً كثيراً. إذ وصلت ورأيت (م) ونزلت من التاكسي فقل دعاء المكان وكل مكان تذهب قل فيه دعاء المكان وابتسم واطمئن فإن اللّه مع المؤمنين والملائكة تحرسك وأنت لا تشعر...

توقف عند هذا الحد من القراءة، وطوى الصفحات الخمس، ثم أعادها إلى الحقيبة من جديد، وهو يلتفت إلى حيث جلس الأخ أبو عبد الرحمن، فوجده يتحدث مع حيزبون برصاء، فاستغرب بادئ الأمر، ولكنه أيقن أن «الأمير» يفعل ما هو في صالح الغزوة، مهما بدا الأمر غير ذلك... لا بدّ أنه يفكّر بشكل مختلف... حمد اللّه على أن الأمير لم يعرف بأمر الرسالة، إذ لو عرف أنه أحضرها معه، لوبخه توبيخاً شديداً، فمثل هذا العمل البسيط من الممكن أن يجهض الغزوة برمتها. وكان هو يشعر في أعماق نفسه بأنه أخطأ بفعلته هذه، ولكنه كان مضطراً، إذ إنها تمنحه الشجاعة على المواصلة، وتبث فيه الثقة بالنفس. ورغم أنه قرأ الرسالة من جديد، إلاّ أنه كان يشعر بالهلع يستولي عليه. ورغم أن الرسالة بشرته بالجنة القريبة، إلاّ أنه لم يستطع منع الخوف من التسلل إلى كل ذرة في كيانه. فهو يريد الجهاد في سبيل اللّه، ومستعد للتضحية بحياته من أجل ذلك، ويريد الوصول إلى الفردوس الأعلى بأسرع وقت ممكن، دون أن يكون مضطراً للخضوع إلى متاع الغرور الذي يعيشونه في الحياة الدنيا، وحبائل الشيطان الذي لا ييأس من محاولة إغواء بني آدم أجمعين، فمن يدري... هو اليوم من المؤمنين، ولكن ماذا بشأن الغد؟ فالقلوب في يد الرحمن يقلبها كيفما يشاء، وقد يعمل أحدهم بعمل أهل الجنة حتى لحظة مماته، ثم يفعل ما يستحق به الخلود في النار... من يدري... اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على الإيمان... أخذ يدعو من أعماق قلبه،

ولكن. . . ولكن فكرة الموت ترعبه. كان يشك منذ البداية أن العملية ذهاب بلا عودة. . . واستغفر اللّه كثيراً. . . ذهاب إلى جنان الخلد، وترك لمتاع الغرور. أراد أن يسأل الأمير، أو يستفسره حول شكوكه، ولكنه لم يستطع. فالأمير صارم في هذه المسائل، ومنذ أن انخرط في الجهاد وهو يعلم أن عليه السمع والطاعة دون نقاش أو سؤال. أفضى بشكوكه هذه لأخيه وليد، فما كان منه إلاّ أن تمنى أن يكون ذلك صحيحاً، وأنها رحلة استشهاد لا عودة منها، ولكنه كان يعلم أن أخاه كان أكثر رعباً منه من فكرة الموت. وطاف خيال والديه في ذهنه هناك في قريتهم الغافية في أحضان جبال الجنوب، فأحس بالألم يعتصره، فتعوذ باللّه من همزات الشياطين، وتبليس إبليس، ولكنه لم يستطع إزاحة خيالهما من ذهنه. إنهما يعتقدان أنه وأخيه في مكة المكرمة يتلقيان العلم في الجامعة، ولا يمكن أن يخطر ببالهما أنهما هنا في أميركا، على الطرف الآخر من العالم، يشاركان في الجهاد في سبيل اللّه، وإعلاء كلمته. . .

أزاح كل الخيالات والأفكار من ذهنه، وأخذ يستعرض الناس والأشياء حوله، إذ لعل ذلك يبعد الوساوس عنه، ولكن الوساوس لا تريد أن تتركه، فعاد إلى الصراع مع نفسه. . . لم يستطع المكوث في مكانه طويلاً وهو على هذه الحالة، فنهض ذاهباً إلى دورة المياه كي يغسل وجهه بالماء البارد، إذ لعل برودة الماء تُذهب عنه بعض ما يحس به من غليان في داخله. في طريق العودة من دورة المياه، استوقفته لوحة زيتية لمنظر طبيعي خلاب في مكان ما من هذه الأرض. لم يكن يريد النظر إلى الصورة، فالتصوير حرام لا شك في ذلك، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من إلقاء نظرة عابرة، فقد كان المنظر مغرياً إلى حد كبير. استغفر اللّه ثم أخذ ينظر. . . مجموعة من

الفلاحات يحصدن سنابل القمح، في ما كان هنالك مجموعة من الفلاحين الذين ينتظرون على عرباتهم التي تجرها البغال أن تمتلىء بالسنابل، في ما جبال سوداء تعلوها الثلوج تلوح من بعيد، والزرقة الصافية تحيط باللوحة في نصفها الأعلى، في ما الخضرة والصفرة تحتل معظم النصف السفلي منها. زفر بقوة وقد عاد إلى ذهنه كل ما يخشاه... كل شيء يذكره بعسير، حتى هذه اللوحة... كان هناك الكثير من اللوحات المعلقة في المطار، فلماذا اعترضت هذه اللوحة بالذات طريقه؟ لا بدّ أنه مكر الرحمن... لا بدّ أنها حبائل الشيطان... ورغم علمه بكل ذلك، فإنه لم يستطع منع نفسه من التوقف للحظة بدت وكأنها زمن طويل يتأمل الفلاحين والفلاحات، ويملأ رئتيه بنسيم عليل يحمل رائحة العشب لا يدري من أين يهب، في ما كانت أشعة شمس غير مرئية تلفح وجهه حتى إنه يحس بلظاها يكاد يحرق. عاد إلى مقعده والنسيم العليل لا زال يداعب وجنتيه الممتلئتين، وأشعة الشمس لا زالت تحرق وجهه، وأخذ يراقب طفلاً يلعب بالكرة أمام أمه المنشغلة بقراءة كتاب بين يديها بعين، في ما العين الأخرى لا تفارق الطفل. نظر إلى أخيه وليد بجانبه، وتبادل الاثنان بسمة سريعة وغرق بعدها في تلك الأشعة غير المرئية للشمس...

* * *

ـ وائل... وائل... وليد... وليد... استيقظا... لم يبقَ لآذان الفجر إلاّ دقائق معدودة...

فتح وائل عينيه أولاً، وتمطى بصوت مسموع قبل أن يعتدل جالساً في فراشه، وهو يسمع صوت والده الشيخ معيض الأجش مغادراً إلى

صحن الدار حيث تنتظره الوالدة بإبريق الماء للوضوء، على جري عادتها منذ خمس وعشرين سنة، وصوته يتلاشى شيئاً فشيئاً وهو يردد أدعية وأذكار الصباح: «لا إله إلاّ اللّه... أصبحنا وأصبح الملك للّه الواحد القهار... الحمد للّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور... لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلاّ اللّه، واللّه أكبر، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم... رب اغفر لي ذنبي، واشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، أنت ربي فلا تحجني إلى غيرك، عليك توكلنا وإليك ننيب...»، فرغم وجود صنابير الماء، إلاّ أن الوالد كان يفضل إبريق الماء حين الوضوء. نظر وائل حوله، كعادته قبل كل فجر، وهو يرى ولا يرى، فكل شيء هو هو كما عرفه منذ أن أبصرت عيناه النور. لا يزال الفجر بعيداً، فأخذ يتأمل المكان كعادته في كل يوم... هناك يغط أخوه وليد في نومه، وقد تعالى شخيره، وعما قليل سيأتي الوالد زاجراً إياه كعادته في كل يوم، فينهض وهو يبرطم متأففاً. وهناك يقبع فراش الوالد، وإلى جانبه تماماً فراش أخيهما الأصغر محمد، وغير بعيد عنهما كان فراش أخيهم الأكبر مسفر، الذي غادر إلى جدة منذ أقل من عامين بحثاً عن عمل يغنيه عن الكدح في الحقل، بالرغم من احتجاجات الوالدة، وعدم رضى الوالد. كان مسفر يطمع في أن يلتحق بوظيفة حكومية تدر له راتباً مضموناً كل شهر، وتبعده عن تقلبات الرزق التي لا يضمنها الحقل...

لم يكونوا من الفقراء، فالشيخ معيض يُعتبر من كبار أصحاب الأراضي في المنطقة، ولكنها حقول تأكل الجهد ولا تعطي شيئاً يُذكر، والوالد يرفض أن يحول أياً من حقوله إلى أراض للبيع، فالأرض مثل العرض لا يُفرط فيها، ومن باع أرضه كمن باع عرضه. كانت أسعار

الأراضي في صعود مستمر، وحاول كثيرون، ومنهم ابنه الأكبر مسفر، إقناع الشيخ معيض بأن يبيع ولو جزءاً من أراضيه الواسعة، والانتقال إلى أبها أو خميس مشيط ليعيش كما يعيش الأعيان في منزل فاخر، ويستثمر أمواله كما يفعل الأثرياء، ولكنه كان يرفض دائماً وهو يقول: «وماذا أفعل بالجاه والمال؟ كل حاجاتي مشبعة والحمد الله، فواللّه ما كنت لأبيع عرضي وأنا محتاج، فكيف أفعل ذلك وأنا غير محتاج بحمد اللّه؟». لقد كانت رأس الشيخ معيض يابسة تماماً، مثل الجبال وصخورها السوداء التي تحيط بهم من كل جانب، كما كان يصفه من عرفه. بل وحتى قلبه كان أكثر قسوة من الصخور نفسها، كما كان يقول مسفر، فهو قد قُد من الصخور ذاتها. والحقيقة أن الشيخ معيض لم يكن بتلك القسوة التي يصفه فيها مسفر، ولكنه يرى أن من الرجولة أن لا يُعبر المرء عن مشاعره، فرقة القلب من صفات النساء، والرجل الحق لا تستولي عليه المشاعر... هكذا كان والده وأجداده من قبله، وهكذا تعلموا وتربوا، وهكذا يجب أن يكون الحال دائماً...

لم يطل بحث مسفر كثيراً، إذ سرعان ما وجد وظيفة في أحد الأجهزة الأمنية في جدة، وكانت هذه هي الوظائف الوحيدة المتاحة أمام شباب مثله لم يكملوا تعليمهم. كان مسفر يأتيهم في الأعيان والمناسبات، ولكنه لا يلبث أن يغادر سريعاً بعد أن يؤدي واجبه الاجتماعي، فلم تعد القرية تروق في عينه بعد أن اعتاد على حياة المدينة. وفي المرات القليلة التي كان يزورهم فيها، كانت الوالدة تحاول تزويجه بأسرع وقت ممكن، فلم يعد هناك ما يمنع هذا الزواج وقد أصبح موظفاً ثابت الدخل، وكل فتاة في القرية تتمناه، ولكنه كان يرفض بلطف وهو يرد على أمه باسماً: «لسه بدري يا أمي، لسه بدري»، فلا تملك الوالدة إلاّ تدعو له بالهداية والصلاح، وهي تطلق

تنهيدة من الأعماق، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى الموضوع ذاته عندما يزورهم مرة أخرى. والحقيقة أن مسفر لم يكن عازفاً عن الزواج أو كاره له، بل كان الزواج إحدى أمنياته منذ أن بلغ الحلم، ولكن من كان يتمناها تزوجت في السنة نفسها التي غادر فيها القرية إلى جدة.

فقد كانت ميسون أجمل بنات القرية، ومحط أنظار شبابها، وكانت تربطه بها علاقة قرابة من ناحية الأم، ولذلك كان يراها باستمرار في بيتهم. ونشأت علاقة إعجاب متبادل بينهما، لم تلبث أم ميسون أن لاحظتها، فقللت من زيارتها لهم، دون أن تصطحب ميسون معها في تلك الزيارات المتباعدة. لقد كانت ميسون أجمل شيء في حياته، بل هي حياته كلها، حتى إنهم عندما ختنوه عندما بلغ سن الحلم، كان خيال ميسون هو الذي يمنحه الصبر والقدرة على تحمل آلام سلخ جلد ذكره وعانته. أحس مسفر بأنه غير قادر على الاستمرار في الحياة دون ميسون، فطلب من أمه أن تخطبها له، بعد شفاء جروح الختان مباشرة. ضحكت الأم من طلبه الغريب وهي تقول: «وكيف ستصرف عليها؟ أم ستجعل والدك يصرف على الجميع؟». أثاره رد أمه، فقرَّر أن يعمل ما إن ينتهي من دراسته الثانوية، وأرسل رسالة إلى ميسون يبلغها فيها بقراره، طالباً منها أن تنتظره. ولكن الأيام لا تنتظر أحداً في قريتهم، فما لبث والد ميسون أن زوجها من أحد أعيان المنطقة، الذي يكبرها بأكثر من ثلاثين عاماً، وغادرت إلى قرية أخرى، ولم يعد يشم رائحتها في القرية. لم يعد للحياة طعم بعد ميسون، فقرر مسفر أن يغرق نفسه في العمل، ويفعل المستحيل حتى يُصبح من الأثرياء، بعد أن أصبح القرش سيد الزمان والمكان...

* * *

كان اليوم يوم خميس، وهو عطلة رسمية ليس عليهما الذهاب فيها إلى المدرسة، وهذا مما كان يسره ويسر أخاه وليد، ولكنه غير مسرور. فبعد قليل سوف يذهبون إلى صلاة الفجر، ومن بعدها يعودون لتناول طعام الإفطار، ثم يتناول الوالد من القهوة المرة ما طاب له ذلك، ثم هو الحقل أو رعي الأغنام في البرية، وكل ذلك قبل أن تبزغ الشمس. المدرسة أرحم من الحقل والأغنام، رغم أنه يحب الحقل كثيراً، ويستمتع بمراقبة الأغنام وهي ترتع وتلعب. فعندما كان صغيراً، وقبل أن يبلغ سن الحلم، كان الحقل أحب شيء إلى نفسه، فهناك كان يسمع أغاني العم عبده، وكان يتابع فتيات القرية بخطاهن المتعثرة وهن يأتين بالطعام إلى آبائهن في الحقول العالية فوقهم، أو على السفوح تحتهم. كان البعض منهن يمررن عليه وهو منتش بزرقة السماء وتلون الأرض في كل مكان، فيمنحنه بسمة أو قبلة سريعة على الخد، فيتضايق كثيراً ويمسحها عن خده بحدة، في ما الفتيات يواصلن الطريق وهن يتضاحكن ويتغامزن. لم تعد الفتيات يتغامزن أو يقبلن الصغار مثله تلك الأيام أو يذهبن بالطعام إلى آبائهن في الحقول في أعالي الجبال، فبعد هذه الصحوة المباركة عرفت القرية طريق اللّه، وأصبحت تلك الجاهلية جزءاً من ماض بغيض لا يريد أحد حتى أن يتذكره. كانت أمه تحدثه كيف أن النساء كن يعملن في الحقول، ويغشين الأسواق، ويستقبلن الضيوف، وهن كاشفات الوجه. ولكن، حمداً للّه، منذ أن بدأ الدعاة يفدون إلى المنطقة، ويعلمون الناس الدين الحق، قبعت المرأة في بيتها حيث يجب أن تكون، ولم تعد تستقبل الضيوف أو تعمل في الحقل أو السوق، وتحجبت بكامل. «الحمد للّه يا ولدي، لقد كنا نعيش في الجاهلية، ولكن رأف اللّه بحالنا، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، ولولا هؤلاء الدعاة جزاهم

الله كل خير، لكنا من أهل النار والعياذ بالله»، كانت أمه تقول عندما تتذكر ما مضى من زمن. لم يكن يتصور أن النساء كن كذلك قبل سنوات قليلة، وبدا له ذلك أمراً مريعاً، غير أن أخيه مسفر كان يتعارك مع أمه في زياراته القصيرة للقرية، فقد كان يرى أن ما كانوا عليه هو الصح، ولا يتعارض مع الإسلام، فتزجره أمه وتطلب منه الاستغفار، ولكنه يرفض، ولا يفعل إلاّ عندما يأمره والده بذلك بعد أن تبلغه بما قاله، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى مجادلة أمه كلما تحدثت عن أيام زمان. كان مسفر مشفقاً على مصير أشقائه، وائل ووليد ومحمد، وهم الذين لم يعيشوا تلك الأيام الذهبية، كما كان يصفها مسفر، من أن يتحولوا إلى جهلة رغم أنهم يتعلمون، وفق تعبيرات مسفر. لم يكن مسفر يطيق المكوث طويلاً في مثل هذا الجو المتعفن، كما كان يصف قريتهم، وخاصة بعد أن بدأ وائل يؤنبه على العمل في جهاز زبانية حكومة كافرة، فلا يلبث أن يغادر سريعاً، وسط امتعاض والديه، وإن كانا مسرورين في داخلهما، خشية تأثير مسفر على محمد المتعلق به، أو أن يلحقهما إثم من ضلالاته. . .

بعد أن بلغ العاشرة من العمر، أصبح وائل من العاملين في الحقل بعد أن أصبح من المعدودين على الرجال في القرية. أن يُعتبر رجلاً في القرية كان شيئاً يسره ولا يسره في الوقت ذاته. فإن يكون رجلاً يعني أن يُسمح له بحمل «الجنبية»، وهذا كان من أمانيه في الحياة. ولكن أن يكون رجلاً يعني أن لا يُسمح له بدخول بيوت القرية كما يشاء، أو الجلوس مع النساء في صحن الدار حين يزرن أمه أو تزورهن. ولكن ما يرعبه حقاً من حكاية الرجولة هذه هو تذكره لكيف كانت عملية الختان تجرى قبل زمن ليس بالبعيد، والتي كان على كل ذكر أن يُجريها حتى يُعترف به رجلاً كاملاً في القرية. ترعبه هذه العملية بعدما

رأى ما فعلوه بأخيه مسفر، حيث سلخوا كل جلد العانة والذكر أمام الناس وفي مكان عام، وكان ينشد معلقة عمرو بن كلثوم، التي حفظها لهذه الغاية، وكأن الأمر لا يعنيه، وعليه أن لا يُبدي أية إشارة للألم، وإلاّ فإنه سيعتبر من غير الرجال، ولن يستطيع أن يتزوج أو يخالط الرجال. لم تعد عملية الختان تجرى بهذا الشكل، وهو ما يجعله يشعر بالراحة تجري في عروقه، إلاّ في مناطق نائية في أقصى الجنوب أو في أعماق تُهامة. ورغم أن الكثير من العادات تغيّرت في المنطقة، إلاّ أن هذه العادة لم يمسسها أي تغيير في بعض القُرى، فالرجولة مقدسة في منطقته فوق كل ما هو مقدس، ولا تثبت الرجولة إلاّ بالصبر على الألم...

* * *

كان والده ممتعضاً من حكاية المدرسة تلك منذ البداية، فذاك يحرم الحقل والمرعى من أحد العاملين، ولكن ماذا يفعل وقد تغيّرت الأيام. «المدرسة ليست في البنايات، المدرسة هي الحياة»، هكذا كان والده يردد دائماً، وهو ممتعض مما يُدرس في تلك المدارس، ففي كتاب اللّه كل ما يحتاج إليه المرء. يقولون لهم إن الأرض كروية، وأن الأرض تدور حول الشمس، وأن النجوم ليست مصابيحاً معلقة في السماء!!! من قال ذلك؟ القرآن يقول إن الأرض منبسطة وثابتة، وأن الشمس هي التي تدور، وأن النجوم مصابيح زينت بها السماء الدنيا... هكذا يقول كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... أيعارضون القرآن الكريم؟ كفر في كفر، ولكن ما العمل وقد أصبحت المدارس هذه الأيام مثل القدر... لا راد له. ولم يوافق الوالد على دخوله المدرسة إلاّ بعد أن ألزمه بالذهاب في الوقت نفسه

إلى أحد مدارس تحفيظ القرآن، التي انتشرت في المنطقة منذ وقت يسير، على أمل أن يمسح العلم الرباني ما يمكن أن يكون قد علق في الذهن من العلم الشيطاني. لم يكن الوالد كذلك منذ زمن ليس بعيداً، كما تتذكر الوالدة في لحظات الصفاء، فقد كان مقبلاً على الحياة في أول زواجهما، وكان يتمنى أن يرزقه الله بذكور يملأون البيت ويصبحون كلهم من الأطباء والمهندسين والضباط، ولكن منذ أن بدأ الدعاة يأتون إلى قريتهم بعد أحداث الحرم بفترة وجيزة، تغيَّر الوالد كثيراً، ولم يعد يرى في غير العلم الشرعي علماً. كانت الوالدة تتذكر تلك الأيام بحنين واضح، ولكنها لا تلبث أن تنهي حديثها وهي تقول: «ولكن الحمد لله، فقد عرفنا أن ذلك كان من زخرف الدنيا وغواية الشيطان، عليه لعنة الله، جعلنا الله من أهل جنته، والمرضي عنهم يوم الحشر العظيم، وجزى الله من أخرجنا من نار جهنم كل خير، وقد كنا على شفا حفرة منها...».

لم يكن وائل يكره الحقل، ولكنه كان يكره العمل فيه، وخاصة أيام الإجازة الأسبوعية. كم يود لو أنه يواصل النوم حتى بعد بزوغ الشمس، كما يفعل أبناء عمه وأبناء خالته في جدة، الذين لا يستيقظون قبل الزوال. كم حسدهم على هذا النعيم عندما قضى عند عمه شهراً قبل مدة طويلة، حيث كان الأبناء يستيقظون من النوم على راحتهم أيام الخميس والجمعة، فيتراكضون إلى جهاز التلفزيون، ويدورون بين القنوات بحثاً عن أفضل أفلام الكرتون. لم يكن لديهم جهاز تلفزيون، فوالده يعتبر التلفزيون رجس من عمل الشيطان، وأداة من أدوات غوايته، فهو ملهي عن العمل وعبادة الرب... «الله هو مرجعنا بعد حين، ومن تخلى عن الله، أضاع دنياه وآخرته... والأرض هي الحياة، ومن تخلى عن الأرض، تخلت عنه الحياة»... هكذا كان

والده يكرر كلما ذكروه باختلاف حياته عن أخيه عيضة في جدة، وأخيه عايض في الدمام.

كان وائل في غاية الضيق أول الأمر من تضييق والده عليهم في كل شيء، وخاصة التلفزيون الذي أصبح من الضروريات، ولكنه حمد اللّه في النهاية على أن مَنَّ عليه بوالد مثل والده. فبعد أن مَنَّ اللّه عليه بالإسلام، أدرك أن الوالد قد أنقذهم من شر مستطير وهم لا يشعرون. وكم من المعارك الكلامية التي دخلها هو ووليد مع شقيقهم مسفر في زياراته السريعة الخاطفة إلى القرية، فقد كان مسفر لا يزال قابعاً في جاهليته، وكم حاولا إرجاعه إلى الحق، ولكنه بقي مختوماً على قلبه، فما كانا منهما إلاّ أن يدعوا له بالهداية، وأن يحاولا نصحه بقدر الإمكان. أما أخيهما الصغير محمد، فقد عقدا العزم على أن ينشأ نشأة صالحة تجنبه كل ما هو جاهلي، فكانا يصطحبانه معهما إلى الصلاة في المسجد، ويذهبان به معهما إلى مدرسة تحفيظ القرآن، وكل مناسبة يأتي فيها أحد الدعاة إلى قريتهم أو أبها وخميس مشيط غير البعيدتين. أما أهم شيء عقدا العزم عليه، فقد كان إبعاد أخيهما الصغير عن تأثير مسفر وأفكاره الضالة. . .

* * *

تحلّق الجميع حول أطباق العسل والسمن البلدي والجبن والبيض المقلي بالسمن البلدي وأكواب الحليب الساخن، وأرغفة «الميفي» الساخنة التي خبزتها الوالدة قبل الفجر، وأخذوا يأكلون بأدب بوجود الوالد، في ما كانت الوالدة تذهب وتجيء سائلة إياهم عما يحتاجون، فلا يجيبها أحد، فتعود أدراجها، ثم تعود سائلة السؤال نفسه، حتى ينتهي الوالد من إفطاره. حتى إذا ما خرج إلى ركنه المعهود في

الحوش كي يتناول شاي الصباح، أنقض وليد ووائل على أرغفة الخبز يمزقونها، والعسل يلحسونه، فهم يعلمون أن وراءهم يوماً شاقاً من العمل، في ما هم ينظرون بحسد إلى محمد وهو مستغرق في نوم لا يعكره أحد. لم يكن الفارق بين وليد ووائل إلاّ سنة واحدة تقريباً، ولذلك كانا أقرب الأخوة إلى بعضهما البعض، حتى إن وليد أصرَّ على العمل في الحقل مع وائل عندما بلغ التاسعة من العمر، رغم أنه كان من المسموح له أن لا يفعل قبل سنة على الأقل. بل إن مَنْ ينظر إليهما يظن أنهما توأم، وكانا بالفعل يتصرفان وكأنهما توأم، حتى إن وائل لم يذهب إلى المدرسة إلاّ بشرط أن يكون وليد معه في الفصل نفسه، وهكذا تأخر وائل عاماً كاملاً عن الذهاب إلى المدرسة. وعندما أنهيا الدراسة الابتدائية، بدأ أول خلاف بينهما، وهما المتفقان دائماً. فقد كان وائل يريد الذهاب إلى المعهد العلمي في أبها، فهناك يدرسون علوم الشريعة، كما أنهم يدفعون مكافأة شهرية تغنيهم عن الحاجة إلى الوالد، وتجعلهم يشعرون باستقلاليتهم. أما وليد، فقد كان يريد الذهاب إلى المتوسطة ثم الثانوية بالرغم من إغراء المال في المعهد العلمي، فهو يريد أن يُصبح طبيباً، ولكنه في النهاية لم يستطع خصام أخيه، فالتحق الاثنان بالمعهد العلمي، وسط مباركة الوالد الذي يرى أن كل علوم الأرض كلها تكمن في القرآن الكريم لمن تدبر معانيه، ونذر نفسه له. ولأل مرة يحس الشيخ معيض بأهمية المدرسة، فمن يدري، لعله يأتي يوم يصبح فيه أحد أبنائه شيخاً يُشار إليه بالبنان، مثله في ذلك مثل الشيخ ابن باز أو الشيخ ابن عثيمين، أو حتى الشيخ ابن إبراهيم... وغاب حالماً بهذه الفكرة...

* * *

ـ المسلم يجب أن يكون واثقاً من نفسه، فالمسلمون هم الأعلون دائماً، حتى لو أظهرت لهم الأيام ظهر المجن، فذاك ابتلاء واختبار من العلي القدير . . .

قال الأستاذ عوض، أستاذ مادة الرياضيات للصف السادس في مدرسة القرية الابتدائية، ثم أخذ يتلو بصوت خاشع: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم اللّه الذين آمنوا ويتخذ منكم شُهداء واللّه لا يحب الظالمين. وليُمحص اللّه الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» . . . العالم كله، ومنذ أن ظهر الإسلام وهو يكيد للمسلمين ويتآمر ضدهم، ويجب أن نكون واعين لكل ذلك وإلاّ انكسرت شوكة الإسلام . . . هل تريدون لشوكة الإسلام أن تنكسر؟

قال الأستاذ عوض ذلك بصوت عالي النبرات، فجاءته أصوات خافتة بالنفي، فلم يرضِ ذلك الأستاذ، فصاح بصوت أعلى:

ـ هل يرضيكم ضياع الإسلام؟

فسرت همهمة بالنفي والاستنكار بين الجميع، في ما كانت الرؤوس تجسّد الرفض وهي تتمايل يمنة ويسرة . . .

وابتسم الأستاذ عوض، وواصل حديثه:

ـ الغرب يكيد لنا . . . اليهود يكيدون لنا . . . النصارى يكيدون لنا . . . البوذيون والمجوس والهندوس يكيدون لنا . . . لا قيام لهم بدون زوال الإسلام . . . ولكنه لن يزول . . . لن يزول . . . وسيبقى شوكة في حلوقهم . . .

وسادت فترة من الصمت كانت فيها أعصاب الأستاذ مشدودة، وكان الطلاب في الفصل قد صمتوا دون أن يعرفوا ما الذي يدور حولهم، فكل ما يعرفونه هو أن الإسلام يجب أن ينتصر. . . يجب أن ينتصر. . .

وقطع السكون صوت الجرس وهو يقرع معلناً انتهاء حصة الرياضيات، فأغلق الأستاذ عوض دفتره وهو يستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم، ويقول بصوت مسموع: «ألم يجدوا غير ناقوس النصارى هذا كي يعلنوا به نهاية الحصة؟ أعوذ باللّه من غضب اللّه. . . أعوذ باللّه من غضب اللّه. . .». ثم وهو يتجه إلى الخارج: «في الحصة القادمة، عليكم بحل التمارين التي في آخر القسم الثالث. . . وسوف أحدثكم عن أخوتكم المجاهدين في أفغانستان وكراماتهم في الحرب ضد الكفر والإلحاد». . . ثم أغلق كتاب الرياضيات المفتوح أمامه، وعدل من وضعية الشماغ على رأسه، ثم استل مسواكاً طويلاً من جيبه دفعه في فمه وأخذ يستاك بقوة، قبل أن يغادر الفصل وهو يتنحنح بصوت مسموع. . .

* * *

كانت مفاجأة للصغار عندما جاء مع الأستاذ عوض في الحصة التالية شيخ مشهور، تظهر صوره في الجرائد، وتُباع أشرطته في محلات الكاسيت، هو الشيخ «سعيد السرواتي». قدّمه الأستاذ عوض بكل إجلال، ذاكراً أنه رغم مشاغله في المنطقة، فإنه خصص لهم وقتاً ليعطيهم من زاد حكمته وعلمه، بالرغم من أنه مغادر إلى جدة في مساء ذات اليوم. تحدث الشيخ سعيد عن حياة بعض الفتيان من الصحابة، الذين قاطعوا أهلهم وذويهم عندما أسلموا، بل إن بعضهم قاتل والده وأخوته دفاعاً عن حياض الإسلام. قال لهم إن الإسلام يسمو على كل

انتماء، وأن الإنسان يُولَد ويعيش ويموت من أجل الإسلام وأن هذا ما يغيظ أعداء اللّه من اليهود والنصارى والمنافقين، الذين يريدون تدمير هذا الدين لأنه العقبة الكأداء في طريق مشاريعهم التي تهدف إلى إبعاد اللّه من الحياة، ونشر الفسق والضلال والانحلال بين الشباب المسلم، ولن يهدأ لهم قرار حتى يبيدوا الإسلام وأهله، ولكن ذلك لن يتم فاللّه دائماً مع أوليائه الصالحين، وهو متم نوره ولو كره الكافرون. . . فلا وألف لا، لن يدمروا الإسلام ولن يبيدوا أهله طالما بقي مسلم واحد على هذه الأرض. . . أنتم من سيقف في طريقهم. . . أنتم براعم الأمل في انتصار الإسلام. . .

وأنهى الشيخ سعيد محاضرته وخرج من الفصل مرافقاً بالأستاذ عوض الذي عاد وهو مبهور قائلاً:

ـ بمثل هؤلاء يعود الإسلام عزيزاً. . . بمثل هؤلاء يعود أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وسعد وابن الوليد. . .

ثم وهو يبلع ريقه ويرطب شفتيه الجافتين بلسانه:

ـ وبمثل إخوتنا المجاهدين في أفغانستان سوف تعود شمس الإسلام من جديد لتنير هذا العالم الذي عاد إلى جاهلية أتعس من تلك التي كانت قبل بزوغ فجر الإسلام. . . اللّه معنا، ومن كان اللّه معهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. . . فأولياء اللّه المتقون هم المقتدون بمحمد صلى اللّه عليه وسلَّم، فيفعلون ما أمر به، وينتهون عما زجر عنه، ويقتدون به في ما بيَّن لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكة وروح منه ويقذف اللّه في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرّم اللّه بها أولياءه المتقين، كما كانت معجزات نبيهم صلى اللّه عليه وسلَّم كذلك. . .

ورطب الأستاذ عوض شفتيه من جديد، ثم واصل بحماسة:

ـ وكما أيّد اللّه نبيه في بدر والخندق بالملائكة تقاتل معه، فإنه اليوم مع إخواننا المجاهدين في أفغانستان يؤيدهم بروح من عنده والكرامات التي لا يعطيها إلاّ لأوليائه الصادقين... حدثني من أثق بصدقه وإيمانه، نحسبه كذلك ولا نزكي على اللّه أحداً، أنه كان مجاهداً في أفغانستان، وكانوا يعرفون بالطائرات الروسية المغيرة من خلال الطير...

انتظر الأستاذ لبرهة وهو ينظر في عيون الصغار المندهشة، وقد علت فاه ابتسامة باهتة قبل أن يواصل:

ـ نعم الطير يا أحبائي... فعندما تأتي أسراب الطير يعلمون أن هنالك طائرات مغيرة، فيأخذون الحيطة... ألم تكن الطير هي من أفنى جيش أبرهة الحبشي عندما غزا مكة الطاهرة المطهرة؟

ورطب الأستاذ شفتيه مرة أخرى قبل أن يقول:

ـ ويحدثنا شيخ المجاهدين في أفغانستان الشيخ عبد اللّه عزام بأن الشهيد في الجهاد كانت تخرج منه رائحة زكية أشبه ما تكون برائحة المسك، حتى بعد أيام من استشهاده، فالشهيد لا تتفسخ جثته لأنه حي يرزق عند اللّه... فالشهيد زكي الرائحة في الدنيا والآخرة... ويقول إن مجموعة من المجاهدين أسروا مجموعة كبيرة من الجنود الروس المدججين بالسلاح، رغم أن المجاهدين لم يكونوا يملكون إلاّ بنادق قديمة، وعندما سألوا الروس عن سبب استسلامهم، قالوا بأن النار كانت محدقة بهم من كل جانب، فلم يجدوا بدأ من الاستسلام... وهم يسقطون الطائرات الروسية الحديثة ببنادق صيد قديمة، وكل ذلك بفضل اللّه وتأييده لهم بالملائكة، فما رميت إذ رميت، ولكن اللّه رمى...

ثم وهو يمسح بلسانه على شفتيه مرة أخرى:

ـ بل إن الذباب مجند في خدمة المجاهدين...

وبان الاستغراب على وجوه الصغار، في ما بدرت بسمة رضا من فم الأستاذ، ثم يواصل قائلاً:

ـ نعم... الذباب... هذه الحشرة القذرة... فقد نشرت الأمراض بين الجنود الكفرة، دون أن تصيب أحداً من المجاهدين بأذى... حتى الذباب سلطه الله على أعدائه، وكذلك العقارب... فقد أقام الروس معسكراً في سهل مدينة قندوس، فهجمت عليهم العقارب ولدغتهم، فمات ستة منهم، وهرب الباقون... وكانت الأفاعي تبيت مع المجاهدين ولا تلدغهم...

وبلل الأستاذ شفتيه بقوة هذه المرة قبل أن يقول:

ـ ويقول المجاهد أرسلان، وهو الذي يثير ذكر اسمه الرعب في نفوس الروس، أنه كانت معهم قذيفة واحدة مضادة للدبابات، فصلينا ودعونا الله أن تصيب الروس، وكان لديهم أكثر من مائتي دبابة وآلية، فضربنا القذيفة، فإذا بها تصيب السيارة التي تحمل ذخائرهم، فانفجرت وفجّرت معها خمساً وثمانين دبابة وآلية، وقتل من الكفار الكثير... وكان المجاهد يقاتل ببضع رصاصات، فيقتل بها أعداء الله، ثم يعود ولم تنقص رصاصة واحدة... وكانت الدبابة الروسية تمر على جسد المجاهد فلا تؤذيه... أرأيتم يا أحبابي... إن الله معنا... مع المجاهدين... فكونوا مع الله، يكون الله معكم، ويؤيدكم بالروح القدس كما أيد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم من قبل...

وقرع الجرس مرة أخرى، وأخذ الأستاذ عوض يلملم أوراقه وهو يلعن هذا الجرس الملعون، فيما كان التلامذة قد بهتت أنفاسهم من

ـ أبي . . . هناك رحلة مدرسية يوم الخميس القادم، يريدون موافقتك على ذهابي وأخي إلى هناك . . .

قال وائل ذلك وهو يسلم الوالد الورقة المدرسية، وأخذ يتمعن فيها محاولاً القراءة، ولكنه لم يستطع، فالحروف هنا غير الحروف في مصحفه. وأخيراً دفعها إلى ابنه وهو يقول:

ـ رحلة مدرسية؟ ماذا ستفعلون هناك؟

ـ لا أدري . . . ولكن الأستاذ عوض يقول إنها رحلة سنستفيد منها كثيراً، كما أن الشيخ سعيد السرواتي قد يحضر معنا في هذه الرحلة . . . وهو قادم من جدة خصيصاً لذلك، كما يقول الأستاذ عوض . . .

كانت الشكوك تلعب في قلب الأب، فهو لا يثق بمثل هذه الرحلات المدرسية، فقد كان يسمع الكثير عما يدور فيها من مفاسد، وخاصة بين الطلاب الكبار والصغار، أو بين بعض الأساتذة والطلاب، فانقبض قلبه لمجرد السماع بالرحلة. ولكنه حينما سمع اسم الشيخ سعيد، شعر براحة وثقة كبيرتين. فالشيخ سعيد من الأسماء المحترمة في المنطقة، حتى إن البعض لا يثق بفتوى حتى يزكيها الشيخ، رغم تلك الفضيحة التي أثاروها حوله قبل عدة أشهر، فقد اتهموه بالفاحشة مع غلام من الأحداث، وهو منها براء. فقد لفق له تلك التهمة أمير المنطقة الذي كان يغار من شهرته وتأثيره الذي ينافس نفوذه، بل يقلّل من هذا النفوذ. هكذا يقول الناس، ولكن لا شك أن المسألة كما يقول الناس، رغم كل محاولات الأمير لتقديم أدلة وبراهين على ذلك. فالشيخ سعيد لا يمكن إلاّ أن يكون من أولياء اللّه الصالحين، ولا يمكن أن يرتكب ما نُسِب إليه . . . بل إنه حتى لو رؤي وهو يرتكب

فاحشة ما، فلا بد أن في الأمر خلل... الشيخ سعيد!!! مستحيل... لو كان في زمن النبي فربما كان واحداً من المبشرين بالجنة... وفي النهاية، أمسك الأب بكتفي ابنه وهو يقول مبتسماً:

ـ على بركة اللّه... فمن كان معه الشيخ سعيد، لا خوف عليه... لعلك تصبح مثله ذات يوم يا بني...

ثم أخرج الأب خاتمه المعدني من أعماق ثوبه، ونفخ عليه بقوة، ثم مهر الخطاب باسمه...

* * *

ـ ماذا فعل اليهود عندما غاب نبي اللّه موسى أربعين يوماً في الطور؟

ـ عبدوا عجلاً من ذهب يا أستاذ...

وكيف عبدوا العجل وقد رأوا معجزات اللّه في شق البحر والضفادع وتحول مياه النيل إلى دم؟

ـ لأنهم يهود يا أستاذ... قلوبهم مريضة مهما فعلوا...

ـ أحسنت يا عبد الرحمن...

ـ من هم الذين حاولوا قتل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بالسم؟

ـ اليهود يا أستاذ...

ـ وكيف؟

ـ قدموا له شاة مسمومة...

ـ أحسنت يا سعيد...

بدأ الأستاذ عوض المسابقة بين التلاميذ المشتركين في الرحلة،

بعد أن تناولوا طعام الغداء ثم أدوا صلاة العصر، وقبل أن يأخذوا في الاستعداد لصلاة المغرب...

- من هو قاتل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه؟

- أبو لؤلؤة المجوسي لعنه اللّه...

- ولماذا قتله؟

- حقداً على الإسلام والمسلمين الذين أخرجوا أهل فارس من الظلمات إلى النور...

- من هم الضالون الذين يعنيهم اللّه سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة؟

- هم النصارى...

- ومن هم المغضوب عليهم؟

- هم اليهود يا أستاذ، لعنهم اللّه...

- أحسنت يا وليد، وبارك اللّه فيك...

- من الذي أثار الناس على عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، فقُتل؟

- عبد اللّه بن سبأ...

- ومن هو عبد اللّه بن سبأ؟

- يهودي من اليمن، ادعى الإسلام ليكيد له ولأهله...

- أحسنت يا معجب...

- لماذا قتل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم اليهود من بني قريضة؟

- لأنهم كانوا يتآمرون على حياة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم...

- ولماذا كانوا يريدون قتل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم؟

ـ لأنهم يريدون إطفاء نور الحق وهم يعلمون أنه الحق. . .

ـ ما معنى قوله تعالى: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»؟

ـ أي أن نترك الإسلام ونتبع دينهم. . .

ـ وهل نترك الإسلام لأجلهم؟

ـ مستحيل. . . مستحيل يا أستاذ. . .

ـ أحسنت يا وائل، وبارك الله فيك. . .

ـ من هم المنافقون؟

ـ إنهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يا أستاذ. . .

ـ ومن هم منافقوا هذا الزمان؟

ـ إنهم العلمانيون يا أستاذ. . .

ـ ما معنى العلمانية؟

ـ إنها القضاء على الدين يا أستاذ. . .

ـ أحسنت يا مشبب. . .

ـ هل يجوز السلام على الكفار والمشركين من اليهود والنصارى وغيرهم؟

ـ كلا يا أستاذ. . .

ـ وهل تجوز مصادقتهم وودهم؟

ـ كلا يا أستاذ. . .

ـ ولماذا؟

ـ لأن الله أمرنا أن نكرههم ونبغضهم ونتبرأ منهم، ولا نوالي غير المسلمين. . .

ـ أحسنت يا سعد. . .

لم يكن التلاميذ يَعون معنى كثير من الأشياء التي يرددونها في أجوبتهم، ولكن دروس الأستاذ عوض رسخت في أذهانهم أن اليهود والنصارى أشرار، وأن العلمانيين منافقوا هذا الزمان، مثلهم مثل أبي سلول وجماعته من المنافقين أيام الرسول، وكان ذلك كافياً بالنسبة للأستاذ عوض الذي اطمأن إلى أن تلامذته قد حفظوا ما علمهم إياه من خلال هذه المسابقة. ثم وقف أمامهم وقال:

ـ يا أبنائي يجب أن نكون يقظين دائماً. . . فالكفار والمشركين من اليهود والنصارى وغيرهم، ومن يواليهم من المنافقين والعلمانيين من أبناء جلدتنا، لا تغفو لهم عين، ولن تغفو لهم عين إلاّ حينما يرون الإسلام وقد اندثر، ولكن هيهات ثم هيهات. . . تلك أمانيهم، ولكن الله سيرد كيدهم إلى نحورهم إن شاء الله، وسيأتي اليوم الذي يتحدث فيه الحجر مخبراً عن يهودي مختبئ خلفه كي يقتله المسلم. . . سيأتي اليوم الذي ينزل فيه ابن مريم ويحكم العالم بشريعة الإسلام، ولن يبقى إلاّ الإسلام. . . لقد أرسل الله رسوله بهذا الدين كي يظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ومن في قلوبهم مرض من المنافقين والعلمانيين، الذي يظهرون الإسلام، ولكنهم يكرهونه أكثر من كره الكفار له، لعن الله الجميع، وشل أيديهم، ورمل نسائهم، ويتم أطفالهم، وأثكل أمهاتهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر فهم لا يعجزونه. . . هيا. . . هيا يا أولادي. . . بارك الله فيكم، استعدوا للصلاة، وبعد الصلاة سنعود إلى منازلنا إن شاء الله. . . ولكن أعدكم أن الرحلات الترفيهية القادمة كثيرة، وسوف نستمتع كثيراً. . . أعدكم بذلك إن شاء الله. . .

واصطف الجميع وراء الأستاذ عوض، بعد أن أذن الأستاذ علي

وأقام الصّلاة، وأخذ الأستاذ عوض يقرأ الفاتحة، ثم أخذ يقرأ بصوت يحاول أن يصل إلى أعالي الجبال من حولهم: «براءة من اللّه ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي اللّه وأن اللّه مخزي الكافرين. وأذان من اللّه ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن اللّه بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي اللّه وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم...».

* * *

ـ مخيم... اجمع...

صاح أمير المخيم، الأستاذ عبد العزيز بن طويق، أو أبو البراء النجدي، كما كان يجب أن يُدعى، بعد أن انتهى المشاركون في المخيم الصيفي من نصب الخيام والسرادق الكبير بينها، فأخذ المشاركون ينتظمون في صفوف متراصة، حتى إذا ما تأكد الأمير أن الجميع قد انتظموا، بدأ حديثه:

ـ بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه جلّ شأنه، والصّلاة والسّلام على مَنْ لا نبي بعده، مَنْ يهده اللّه فلا مُضلّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له، أوصيكم ونفسي بتقوى اللّه، والتمسك بالمحجة البيضاء، ليلها كنهارها، وخاصة في هذا الزمن الذي أصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر، لا يزيغ عنها إلاّ كل كفار أثيم... أحبائي، نجتمع اليوم على كل خير إن شاء اللّه، وسوف نستفيد من هذه الأيام الخمسة التي سنقضيها في هذه البرية، في التفقه بالدين، وممارسة أنواع من النشاطات البدنية والثقافية التي ستفيدنا في المقبل من أيام إن شاء اللّه. والآن سنقسمكم إلى أربع أُسر، كل أُسرة لها

نشاط مختلف عن الأخرى، ولكن كل الأنشطة تصب في النهاية في مصلحة كل الجماعة، التي هي نحن. أسرة عبد اللّه بن عباس، ستكون مسؤولة عن النشاط الديني، وأسرة عمر بن الخطاب ستكون مسؤولة عن النشاط الثقافي، وأسره خالد بن الوليد ستكون مسؤولة عن النساط البدني والرياضي، وأسرة أبو ذر الغفاري ستكون مشاركة في إدارة المعسكر. وبعد أن وزع المخيمون إلى هذه الأسر الأربع، بعد تعيين روّاد الأسر من طلبة الفصول العليا، والمشرفين من طلبة الجامعة أتوا لهذا الغرض، انصرفت كل أسرة إلى خيمتها المقررة لها. كان نصيب وائل أن أصبح في أُسرة خالد بن الوليد، بينما أصبح وليد في أُسرة عمر بن الخطاب. أحس وائل ووليد بأنهما يولدان من جديد في هذه المعسكرات التي أصبحت أهم شيء في حياتهما، ففيها يحسون بأنهم يعيشون في أُسرتهم الحقيقية، الأُسرة القائمة على أخوة الإيمان وعرى التوحيد، وليس الأسرة التي لم يكن لهم يد في اختيارها. في هذه المعسكرات بدأوا يحسون بأهميتهم، وأنهم نواة مجتمع جديد، وإرهاصات أمة جديد هي أمة محمد التي طمس معالمها حُكام السوء والعلمانيون والمستغربون وأهل العصرنة، وتآمر عليه أهل الصليب من النصارى، وأحفاد القردة والخنازير من اليهود، ولكنهم هنا يبدأون من جديد، كما بدأ محمد أول مرة في مكة والمدينة، ومن هذه المعسكرات سينبثق نور الإسلام من جديد، وسيسود العالم مرة أخرى وأخيرة كما ساده أول مرة، هذه إرادة اللّه، ولا راد لقضاء اللّه، فقد أرسل اللّه محمداً بالهدى ودين الحق كي ينتصر على الدين كله ولو كره الكافرون، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ـ خلاصة القول، يقول أستاذنا الدكتور نجيب الكيلاني . . .

بدأ أبو البراء محاضرته بعد أداء صلاة المغرب في مسجد

المعسكر، وهو يمسك بكتاب يقرأ منه:

ـ إن الصهيونية تشن حرباً لا هوادة فيها، وتخوض معركتها بلا ضمير، ولا وازع من دين أو خلق... إنها تحلم بأن تسود العالم، وتوسع رقعة دولتها التي قامت في غفلة من المسلمين، وتلجأ إلى أحط الوسائل وأخبثها كي تبلغ النجاح الذي تحلم به من قديم... ونجاحها على الصعيد الأوروبي يؤكد أنه لم يبقَ أمامها عدو يُقام له وزن سوى الإسلام ودوله، ولقد أصبحت معركتها أعنف وألصق بعد أن قامت الدولة الإسرائيلية، وأصبح وجودها مأساة حقيقية واضحة للعيان، تهدد أمن الأمة الإسلامية، وتحيطها بالخطر الدائم، والتهديد المستمر... ولكن يجب أن نفهم أن إسرائيل ليست هي العدو الوحيد، وإلاّ لهان الأمر، وقصر أمد المعركة، وتمكّن المسلمون من القضاء على الوضع الشائن بسرعة مذهلة... فإسرائيل ليست وحدها، وإنما تقف وراءها دول كبرى كأمريكا وإنكلترا وغيرهما تغذيها بالعون المادي والمعنوي، وتعتبرها بضعة منها... فإسرائيل هي أمريكا في الشرق أو هي إنكلترا بعد إفلاسها الاستعماري وضياع سلطانها... فالحرب إذن ضد إسرائيل حرب ضد أمريكا ومن يدور في فلكها...

ثم وهو يطبق الكتاب الذي بين يديه:

ـ نعم يا أبنائي... أمريكا هي عدونا، أمريكا هي الحائل اليوم بين عودة الإسلام إلى سابق عزه وسيادته، يريدون أن يطفئوا نور الله، ولكن الله غالب على أمره ولو كره الكافرو،... ولو كره الكافرون...

كرّر جملته الأخيرة عدّة مرّات، قبل أن يعود إلى الكتاب، ويقرأ منه بعض المقاطع من جديد، ثم يقول:

ـ ولكن اليهود والنصارى، وأميركا وروسيا وكل العالم المادي، ليسوا هم أعتى أعداء الإسلام، بل هم أولئك الذين يحققون مآرب الكفار في ديار المسلمين. . . الحُكام الفاسدون الذين خرجوا من الملة بفسقهم وفسادهم، وعلماء السلطان الذين باعوا دينهم بدنياهم، يزينون ويبررون لهؤلاء الحُكام ما يفعلون، ودعاة المادية والإلحاد والعصرانية والعلمانية والقوانين الوضعية. . . ولن تقوم للإسلام قائمة إلاّ إذا نقينا ديار الإسلام من مدعي الإسلام والمنتسبين إليه زوراً وبهتاناً. . . فحصوننا مهددة من الداخل. . . حصوننا مهددة من الداخل، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. . . لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. . . ثم التقط كتاباً ثانياً من مجموعة من الكُتب كانت إلى جانبه، فقلّب الصفحات ثم أخذ يقرأ:

ـ يقول الشهيد عبد القادر عودة: إن المسلمين جميعاً مسؤولون عمّا نحن فيه وعمّا انتهى إليه أمر الإسلام. . . فجماهير المسلمين قد ألفت الفسق والكفر والإلحاد حتى أصبحت ترى كل ذلك فتظنه أوضاعاً لا تخالف الإسلام، أو تظن أن الإسلام لا يُعنى بمحاربة الفسق والكفر والإلحاد، ولا يعنيه من أمر ذلك كله شيء. . . والحكومات الإسلامية مسؤولة إلى أكبر حد عمّا أصاب الإسلام من الهوان، وعمّا أصاب المسلمين من الذل والخبال. . . إن الحكومات الإسلامية قد أبعدت الإسلام عن شؤون الحياة، واختارت للمسلمين ما حرمه الله عليهم، وحكمت فيهم بغير حكم الله. . . ورؤساء الدول الإسلامية هم أكثر الناس مسؤولية عن الإسلام، إذ أعفتهم القوانين الوضعية من المسؤولية فما يعفيهم الإسلام أن يسألوا عن صغير الأمور وكبيرها. . . وعلماء الإسلام يحملون وزر ما نحن فيه وإثم ما أُصيب به الإسلام. . . يحملون أوزار المستعمرين والاستعمار، وأوزار الحُكام

والحكومات... وأوزار الجماهير الغافلة عن الإسلام والخارجة عليه...

ثم وهو يلتقط كتاباً آخر:

ـ ويقول سيد الشهداء في هذا الزمان، الشهيد سيد قطب: إن العالم يعيش اليوم كله في جاهلية، من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها. جاهلية لا تخفف منها شيئاً هذه التيسرات المادية الهائلة، وهذا الإبداع المادي الفائق. هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية... وهي الحاكمية...

ثم وهو يختم محاضرته:

ـ إنه لا بدّ من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق... تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعاً... تمضي وهي تزاول نوعاً من العولمة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة.

ثم وهو يضع الكتيب جانباً، وقد أخذت منه الحماسة كل مأخذ:

ـ وأنتم... أنتم يا براعم الإسلام ومعيدي نشره تشكلون هذه الطليعة التي ستقلب العالم وتخرجه من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإيمان، كما فعل أسلافكم من الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين... أنتم من سيدمر قوى الكفر والضلال، فتدكون أمريكا وروسيا وأوروبا وكل القوى الصليبية واليهودية، كما فعل أسلافكم من المجاهدين بدولة القياصرة والأكاسرة... بارك الله فيكم، وجعلكم من عباده المتقين وجنده المجاهدين، والعزة لله ورسوله، العزة لله ورسوله... نفعنا الله وإياكم بالقرآن العظيم، وجعلنا من الشهداء

والصديقين، إنه على كل شيء قدير... ألا يا خيل اللّه اركبي... يا خيل اللّه اركبي... إنه الصراع بين الكفر والإيمان، فحدد موقعك... حدد موقعك...

ونهض أبو البراء، في ما كانت كلماته قد تشربتها الأفئدة المتطلعة إليه، وأخذ يُنشد والجميع يرددون وراءه:

قُم ودع عنك الرقاد، إنه الإسلام عاد

في سبيل اللّه قد سرنا، وأعلنا الجهاد

بَشِّر الناس بصبح مُشرق بالبيِّنات

وبه الفتح تجلى في بطون الظلمات

في ما هم ينهضون استعداداً لتناول طعام العشاء، ثم أداء صلاة العشاء، والكل يحلم باليوم الذي يكونون فيه من الذين يجلسون مع الأنبياء والصديقين في جنان الفردوس، شاكرين اللّه على ما هم فيه من خير عميم...

* * *

«والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود. قُتل أصحاب الأخدود. والنار ذات الوقود. إذ هم عليه قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا باللّه العزيز الحميد. الذي له ملك السماوات والأرض واللّه على كل شيء شهيد. إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير. إن بطش ربك لشديد»...

كان وائل مستغرقاً في القراءة وهو مسند ظهره إلى الحائط في مصلى الكلية، بعد انتهاء صلاة الظهر، فلم يلحظ اقتراب صديقه سطام

منه، وجلوسه إلى جانبه، حتى نبهه صوته إلى وجوده، وهو يقول:

ـ لقد قررت الذهاب للجهاد... فلا معنى لحياة المسلم دون جهاد...

قال سطام مخاطباً وائل:

ـ فلم أعد قادراً على سماع الأحاديث عمن يسبقنا إلى جنة الخلد، ونحن هنا قاعدون...

أطبق وائل المصحف، وأعاده إلى رف المصاحف أمامه، وعاد إلى مجلسه بجانب سطام، وبقي الاثنان صامتان لفترة طويلة، ثم قطع سطام الصمت قائلاً، وهو ينظر إلى السقف وكأنه يعيش في عالم آخر

ـ نحن اليوم من المؤمنين إن شاء الله، ولكن من يدري كيف تتقلب الأيام... فالقلوب بين يدي الرحمن يقلبها كيف يشاء، فقد تصبح مؤمناً وتمسي كافراً، أو تمسي كافراً وتصبح مؤمناً...

ثم وهو يبلع ريقه بصعوبة:

ـ أنا خائف من مكر الرحمن ومكائد الشيطان يا وائل... وليس لنا إلاّ الجهاد كي نحصل على إحدى الحسنيين... النصر في الدنيا أو الشهادة ثم الجنة، حيث لا خوف ولا تقلبات في الزمان...

وصمت سطام لفترة، ثم ابتسم وهو يقول:

ـ هل تعرف من هو أول شهيد في الإسلام يا وائل؟

لم يحر وائل جواباً، ولم يمنحه سطام الفرصة للرد، فقال:

ـ إنه عمير بن الحمام، وقصة استشهاده فيها كل عبرة...

اتسعت عينا وائل تطلبان المزيد...

ـ في غزوة بدر الكبرى، وعندما دنت جموع كفار قريش من جمع

المسلمين، قام رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، في الناس فوعظهم وذكرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر والظفر العاجل وثواب الله الآجل، وأخبرهم أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله، فقام عمير بن الحمام فقال: يا رسول اللّه جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم. قال: بخ بخ يا رسول اللّه، قال ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا واللّه يا رسول اللّه إلاّ رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، قال فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهم ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، وتناول سيفه وهو يقول: ركضاً إلى اللّه بغير زاد، إلاّ التقى وعمل العباد، والصبر في اللّه على الجهاد، ثم قاتل حتى قُتل، فكان أول شهيد في الإسلام...

ثم وهو يتجه بكليته إلى وائل:

ـ أرأيت؟ لم يكمل ابن الحمام أكل تمرات كن معه واعتبرها حياة طويلة، فماذا نقول نحن؟

ثم وهو يبلع ريقه:

ـ سأل معاذ بن عفراء رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم: يا رسول اللّه ما يُضحك الرب من عبده؟ قال: «غمسه يده في العدو حاسراً»، فألقى معاذ درعاً كانت عليه، فقاتل حتى قُتل... وفي يوم بدر، سأل عوف بن الحارث رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم: يا رسول اللّه ما يضحك الرب تعالى من عبده؟ قال: أن يراه غمس يده في القتال... يُقاتل حاسراً، فنزع عوف درعه ثم تقدّم، فقاتل حتى قُتل...

ثم وهو يضع كفه على ركبة وائل:

ـ أنا أريد الجنة يا أخي، وأريدها سريعاً، فالدنيا لا أمان لها، والشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم... ولا سبيل مضمون إلى ذلك الجهاد والشهادة... لقد وعد الله المجاهدين واشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة... والله لا يخلف وعده... الله لا يخلف وعده...

ثم وقد بلغ أوج الحماسة:

ـ يقول الشيخ المطيعي: إنما يجاهد المؤمن في الله جهاده، إن أخفق فإفادة، أو أوذي فإرادة، أو نفي فريادة، أو سجن فعبادة، أو عاش فقيادة، أو مات فشهادة، فله الحسنى وزيادة... وأنا أريد الشهادة... أريد الجنة ونعيمها... ولك أن تكون معي من أهلها، أو تبقى معلقاً في هذه الفانية...

ثم أخرج سطام من جيبه كتاباً دفعه إلى وائل وهو يقول:

ـ هذا كتاب «إتحاف العباد بفضائل الجهاد»، للشيخ الشهيد عبد الله عزام... والله إني بعد أن أتممت قراءته، وددت لو كنت في ساح الوغى أقاتل في سبيل الله، فأفوز بإحدى الحسنيين... النصر أو الجنة...

ثم نهض سطام مغادراً، وهو يسلم بغمغمة سريعة، وترك وائل لأفكاره...

* * *

ـ موالاة المشرك ضد المسلم كفر بواح، من فعله فقد كفر... وعدم البراءة من الشرك والمشركين كفر بواح، كما قال الله ورسوله...

قال الدكتور مفلح الرويدي وهو يبدأ محاضرته في أصول العقيدة:

ـ فالولاء والبراء من أهم أصول الدين، وهو ملة إبراهيم الخليل، التي لا يرغب عنها إلاّ من في نفسه مرض. ومن صور موالاة الكفار محبتهم وإكرامهم وتهنئتهم في مناسباتهم السعيدة، أو تعزيتهم في مناسباتهم الحزينة، والعمل في خدمتهم، والاستعانة بهم في أي شأن من الشؤون، والإشادة بما وصلوا إليه من تَقدُم، أو وصفهم بالتحضر والمدنية، واستخدام تواريخهم ومواقيتهم، وعدم إظهار البغضاء لهم. فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاّ أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير». ويقول الحق جلت قدرته: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين»... ويقول تقدُست أسمائه: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين»... ويقول جلْ شأنه: «يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم»... ويقول سبحانه: «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»... وسمى الله عزّ وجلْ اليهود والنصارى وسائر أهل الأرض من غير المسلمين كفاراً في آيات كثيرة، وأمر بمعاداتهم وبغضهم والبراءة منهم ظاهراً وباطناً، كما أمر بقتالهم حتى يؤمنوا، فقال: «فإن تابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم»... وأقرّ أهل الكتاب خاصة من دون بقية الكفار على الجزية، يعطونها بذل وصغار، فقال: «وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرْم الله ورسوله ولا يدينون دين

الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون». . . وقال ابن كثير تفسير «حتى يعطوا الجزية»، أي إن لم يسلموا «عن يد»، أي عن قهر وغلبة «وهم صاغرون»، أي ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». وقال عليه الصّلاة والسّلام: «أوثق عرى الإيمان الحب في اللّه والبغض في اللّه»، رواه الطبراني في الكبير، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما. ويقول الشيخ سليمان بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الوهاب في شرح قول ابن عباس هذا: «قوله ووالي في اللّه، هذا بيان للازم المحبة في اللّه، وهو الموالاة فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لا بدّ مع ذلك من الموالاة تأتي هي لازم الحب. . . وقوله وعادي في اللّه، هذا بيان للازم البغض في اللّه، وهو المعاداة فيه. أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء اللّه، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً. . .

ـ ولكن يا دكتور. . .

قاطع أحد الطلبة المحاضرة بشكل مباغت أزعج الدكتور، الذي كان بادي الانزعاج من هذه المقاطعة، مرغماً نفسه على سماع هذا الطالب المعروف بحبه للجدل، وهو يقول:

ـ كيف نوفق بين هذا وبين قول الحق سبحانه: «فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي للّه ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليكم البلاغ واللّه

بصير العباد». . . وقول الحق: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا». . . وقوله سبحانه: «لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي». . . بل وقوله تعالى: «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين». . . لقد أباح اللّه زواج المسلم من الكتابية، وبقاءها على دينها نصرانية كانت أو يهودية، وهو الذي يقول عن العلاقة الزوجية: «وجعل بينكم مودة ورحمة»؟

انزعج الدكتور مفلح من هذا الاعتراض غير المتوقع، ولكنه حاول أن يكون هادئاً وهو يقول:

ـ كلام سليم. . . ولكن هنالك ناسخ ومنسوخ في كتاب اللّه، وهناك سنة تفسر ما غمض من كلام اللّه، كما أن أهل الكتاب اليوم غيرهم بالأمس. . .

ـ كيف يا دكتور؟

ارتاح الدكتور قليلاً وهو يرى أن الطالب قد عاد إلى السؤال، فقال بارتياح واضح:

ـ أهل الكتاب اليوم لا يؤمنون بأي كتاب. . . هم كفار بالجملة والتفصيل. . .

ـ ولكن. . . كتابهم محرَّف. . . في الأمس واليوم. . . فماذا تغيَّر؟

ـ ماذا تغيَّر؟ لا شيء. . . هم كفار من قبل ومن بعد. . .

ـ وماذا بشأن الزواج؟

ـ كانوا من الصحابة، وكانوا يعرفون كيف يتعاملون معهن... أما اليوم... فالمسألة مختلفة...

ـ ولكن الحلال حلال إلى يوم الساعة، وكذلك الحرام... ما أحل اللّه في كتابه فهو حلال إلى يوم الدين، وما حرّم فهو حرام إلى يوم الدين، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من اللّه عافيته... وحكاية الناسخ والمنسوخ هذه اجتهاد فقهي وليست أمراً ربانياً... هكذا يقول العقل... فاللّه يعلم الحق منذ الأزل وإلى الأبد... فكيف يُغيّر ويُبدّل... يمحو ويسطر؟

لم يستطع الدكتور أن يتمالك نفسه كثيراً عند هذا الحد، فقال بصوت تتضح فيه نبرة الغضب، وهو يهز سبابته في وجه الطالب:

ـ أنا أعرفك تماماً يا بن السحابي... أنت من أهل الجدل... وإذا أراد اللّه قوماً بسوء، أشغلهم وبلاهم بالجدل... عندما يتناقض العقل والنقل، فلا شك أن العلة في العقل لا في النقل... ولو كانت الأمور بالعقل، لمسحنا باطن القدم لا ظاهرها...

ـ أستغفر اللّه يا دكتور، أنا طالب علم يريد الحق ليس إلاّ... والعقل لا يكون في الأمور التعبدية، ولكننا نتحدث عن الأمور التعاملية... أمور الحياة...

وهنا قاطعه الدكتور قائلاً، وهو غير قادر على كظم غيظه:

ـ علمانية هي إذاً؟ عليك أن تسمع وتفهم... الإسلام عبادة ومعاملة، دين ودنيا، وكلا الأمرين داخل في الآخر، فإما أن تؤمن بذلك وإلاّ فإنك من الضالين... بل إنك من الكافرين، فاستغفر ربك وعد إلى جادة الصواب...

ـ ولكن يا دكتور . . .

وهنا لم يعد الدكتور مفلح قادراً على كظم غيظه، فانفجر غاضباً وهو يأمر الطالب بالخروج قبل أن يكمل ما كان يريد قوله، فخرج الطالب وهو ينظر إلى الدكتور بنظرات غاضبة ويتلو بصوت مرتفع: «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب، هذا حلال وهذا حرام، لتفتروا على اللّه الكذب، إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يعلمون» . . .

وخرج ونظرات الدكتور تلاحقه، غير مصدق أن هذا يحدث في هذا الصرح الديني الذي تخرج منه كبار العلماء والمشايخ، ويدرس فيه كبار العلماء والمشايخ . . . حاول الدكتور مفلح أن يستعيد توازنه بعد هذه الحادثة غير المتوقعة، فصمت لدقيقة أو أكثر ثم عاد محاضراً وهو يقول:

ـ قال الإمام مالك رحمه اللّه تعالى: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح بها أولها»، ومن أعظم صلاح هذه الأمة هو الإيمان باللّه وحده لا شريك له والكفر بالطاغوت. قال اللّه تعالى: «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن باللّه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها واللّه سميع عليم» . . . فالكفر بالطاغوت شرط لصحة الإيمان كالطهارة شرط لصحة الصلاة. فما دام اللّه، جلت قدرته، قد فرض علينا الكفر بالطاغوت، فلا يصح أن نجهل الطاغوت وأنواعه وصفاته، لكي نحذره ونتجنبه، ولأجل ذلك أرسل اللّه الرسل وأنزل الكتب، وشرع الولاء والبراء، وفرض الجهاد، واستبيحت الأعراض والأوطان، وقد قال الحق: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا اللّه واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى اللّه ومنهم من حقت عليه الضلالة» . . . وقال العلامة ابن سحمان رحمه اللّه: «والمراد من اجتنابه هو بغضه وعداوته بالقلب

وسبه وتقبيحه باللسان، وإزالته باليد عند القدرة، ومفارقته. فمن ادعى اجتناب الطاغوت ولم يفعل، فما صدق». فلا بدَّ إذاً من عداوة الطواغيت وتكفيرهم كما أمر اللّه، وهو القائل: «قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون اللّه كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا باللّه وحده...» وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه: «فأما صفة الكفر بالطاغوت أن تعتقد بطلان عبادة غير اللّه وتتركها وتبغضها وتكفر أهلها وتعاديهم». لا يستقيم إسلام المرء إلاّ بنبذ الطاغوت، وأنواعه كثيرة...

كان الدكتور مفلح من أكثر المتشددين في الجامعة بشأن العقيدة، فقد كان يقول بأن الفساد أول ما يدب إنما يدب إلى العقيدة فيفسدها، ومن بعدها يفسد كل شيء. فالعقيدة هي الملح، فإذا فسد الملح، فبماذا يُملح؟ ولذلك كان يشدد على القراءة الدائمة «للعقيدة الطحاوية» ورسائل إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويردد دائماً أن المسلمين تركوا أهم فرائض الإسلام بعد الأركان الخمسة، ألا وهي عقيدة الولاء والبراء، وحاكمية اللّه، والجهاد في سبيل اللّه. وكان كثيراً ما ينصح الطلبة بقراءة «معالم في الطريق» لسيد قطب، و«جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب، و«ملة إبراهيم» لعصام البرقاوي، و«المخرج من الفتنة» لمقبل بن هادي الوادعي، و«الإيضاح والتبيين» لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين لحمود التويجري، والعودة إلى مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن رجب وابن كثير ورسائل إمام الدعوة، وذلك لتنقية عقيدتهم ومعرفة دينهم بشكل صحيح. كما كان يوزع كتاب جهيمان العتيبي: «رفع الالتباس عن ملة من جعله اللّه إماماً للناس»، لمن يثق به وبإخلاصه وحماسته من

الطلاب. وكثيراً ما كان يردد: «إن ديناً لا تكفير فيه ليس بدين... ليس بدين... ليس بدين...».

* * *

كان عبد العزيز مفتوناً بالدكتور مفلح، فقد كان يرى أنه مثال العالم الصالح الغيور على دينه، الذي يُذكر بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن سار على دربهم. والحقيقة أن الدكتور مفلح يتمتع بجاذبية كبيرة، فقد كان شاباً في حدود الأربعين من العمر، سلس اللسان، وسيم الوجه، طويل القامة، معتدل الجسد، على خلاف أكثر المشايخ الذين يميلون إلى القصر والسمنة المفرطة. سمع عبد العزيز عن الدكتور وعلمه وهو في مكة، وسمع بعض الأشرطة له، فتعلق به وبعلمه، وانتقل من أجل ذلك من مكة المكرمة إلى بريدة حيث يُدرس الدكتور مفلح ويُلقي محاضراته في فرع الجامعة والمساجد والمجالس المختلفة، وقد كان في غاية السرور حين طرد الدكتور ذلك الطالب المجادل، ومنعه من حضور بقية محاضراته، فقد كان هو نفسه متضايقاً من ذلك الطالب الذي عُرف بجدله، ومن يطلب العلم لا يجادل، بل يأخذه من علمائه صافياً دون تعكير، والدكتور مفلح من أفضل علمائه.

وتوطدت العلاقة بين عبد العزيز وبين الدكتور مفلح، حتى أصبح يُعرف بين الطلبة الآخرين «بمريد الدكتور مفلح»، وكان ذلك يسعده كثيراً، على العكس مما كان الطلاب يرمون إليه. ومن خلال هذه العلاقة، أخذ عبد العزيز يتردد على دروس لخاصة الخاصة، أو المضنون به على غير أهله، كما يُحب الدكتور أن يصف مثل تلك اللقاءات. وكان الدكتور يلقيها في استراحة صغيرة له خارج المدينة

على الطريق إلى حائل. وفي تلك الدروس، حصل على «الرسائل السبع» لجهيمان العتيبي، وعلى كتاب عصام البرقاوي، أو أبو محمد المقدسي، «الكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية»، والفريضة الغائبة لعبد السلام فرج، وكانت أكثر الدروس تدور حول «ملّة إبراهيم»، وكيف أن المسلمين انحرفوا عنها وتركوا الولاء والبراء وجهاد الكفار، فتخلى عنهم ربهم، وجعلهم تابعين للكفار، ولن يعودوا كما كانوا ما لم يعودوا إلى الجهاد، وإعادة نظام الخلافة، الذي دمره يهود الدونمة وعلى رأسهم مصطفى كمال أتاتورك، اليهودي العلماني الماسوني.

كان عبد العزيز يشعر بعد كل محاضرة من هذه المحاضرات أنه لا ينتمي إلى هذا العصر الذي انقلبت فيه المعادلات، فأصبح أهل الكفر هم أسياد الدنيا، وأصبحت خير أمة أخرجت للناس ذليلة لا حول لها ولا قوة. كم كان يتمنى لو أنه وجد في خير العصور، في عصر محمد وصحابته، ولكنه يعلم أن الله جلت قدرته لا يفعل شيئاً عبثاً، وما أوجده في هذا الزمان إلاّ لغاية لا يعلمها إلاّ هو، ولكن إذا كان قلبه عامر بالإيمان الحق، فإنه لا ريب سيقرأ إشارات يضعها الله في طريقه، تنير له السبيل، وتجعله يكتشف غاية الواحد الأحد. كان مدركاً في أعماق نفسه أن الغاية واضحة، والإرادة لا لغز فيها: إعادة الإسلام إلى سابق عزه، وعودة الهيبة والسيادة إلى المسلمين، ولكن كيف يكون ذلك؟ هذا هو السؤال الذي كان يقلقه ويبحث له عن إجابة. ولكنه في النهاية يدع القلق جانباً ويبتسم بثقة... فإذا كان قد سلّم أمره لله بالكامل. فإن الله هو الذي يقوده، فإنه في النهاية سيبيِّن له أي طريق يسلك.

* * *

لم يستطع الدكتور مفلح أن ينسى محمد السحابي، ذلك الطالب الذي جادله في المحاضرة، فالسكوت على مثل هذه الأمور يعني السماح بفساد العقيدة شيئاً فشيئاً، كما أنه يقلّل من هيبة أعضاء هيئة التدريس، وخاصة في مثل هذه الجامعة التي تُعتبر حامية الدين وحارسة العقيدة الصافية، بالإضافة إلى أنه سيدفع طلبة آخرين لسلوك المسلك الفاسد نفسه في النهاية، ولذلك فإن سد الذرائع واجب شرعي هنا. لم يسمح للطالب بحضور محاضراته بعد ذاك الذي بدر منه، ولكن ذلك لم يكن كافياً، إذ لا بدّ من معاقبة الطالب، وجعله عبرة لغيره ممن في قلوبهم مرض، فيشككون في العقيدة النقية، وفي علم العلماء. أخبر رئيس القسم، الشيخ سيد طفيفي، بما حدث في تلك المحاضرة، فاستبد الغضب بالشيخ وهو يقول إن ذلك شيء لا يسكت عليه، فإن السكوت على مثل هذا الأمر سيكون دافعاً للعلمانيين والعصرانيين ومن في قلوبهم مرض من منافقي هذا الزمان، باختراق الحصن الحصين للعقيدة النقية، عقيدة السلف الصالح، وتلويث العقيدة بمفاهيمهم التي ظاهرها الحرص على الدين، وباطنها تدمير الدين من داخله. كما أن السكوت على مثل هذا الأمر معناه التجرؤ على علماء الأمة والقيمين على عقيدتها، وهذا لا يجوز، فلحوم العلماء مسمومة.

طلب العميد من الدكتور مفلح أن يكتب تقريراً بما حدث لرفعه إلى مدير الجامعة، لاتخاذ الإجراءات اللازمة لردع المفسدين لدين اللّه. كتب الدكتور مفلح التقرير وسلمه لرئيس القسم، الذي رفعه بدوره إلى مدير الجامعة. الشيخ عبد اللّه الوشيمي، وما هي إلاّ بضعة أيام، وجاء قرار مدير الجامعة بتشكيل لجنة من أساتذة قسم العقيدة للتحقيق مع الطالب المذكور، واستتابته إن أصر على أقواله، بما ينافي

المعلوم بالضرورة من الدين، وما ينافي أسس العقيدة النقية والشريعة السمحة...

- اسمك بالكامل؟

بدأ الشيخ سيد طفيفي جلسة التحقيق مع الطالب المارق، بصوت أجش، ونظرات توحي بالحكم مسبقاً، وعن يمينه كان كل من الدكتور مفلح الرويدي، والدكتور معتصم الحموي، أستاذ الشريعة، وعن شماله الدكتور ناصر المريدسي، أستاذ العقيدة وأصول الدين، والشيخ محمد بن خلفة، أستاذ علوم القرآن...

- محمد... محمد راشد عقل السحابي...

- من أين أنت يا محمد؟

- من بلاد اللّه الواسعة...

- كلنا من بلاد اللّه الواسعة، ولكن من أي بلد في المملكة أنت؟

- وهل يختلف الأمر؟

- يبدو أنك من أهل الجدل والعياذ باللّه... ما علينا...

ثم وهو يتنحنح بصوت عال:

- وردت إلينا الكثير من الشكاوى من أساتذة وزملاء لك، تشكك في نقاء عقيدتك، ويقول أستاذك الدكتور مفلح أن عقيدتك تشوبها شائبة، إن لم يكن مشكوك فيها كلها، وأنك تنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة... ماذا تقول؟

- أقول لا إله إلاّ اللّه، محمد رسول اللّه... كذب وبهتان... أنا مسلم موحِّد، أشهد الشهادتين، وأصلي فرضي، وأصوم شهري، وأحج لبيت ربي...

ثم وهو يبتسم:

ـ ولكنني لا أزكي... فليس لدي مال أزكي عنه...

ـ ولكن ذلك ليس كافياً...

قال الشيخ سيد:

ـ العلمانيون يصلون معنا، ويصومون ويحجون، ولكنهم منافقون... لا يصح إسلامهم...

ـ وكيف حكمتم بذلك؟ هل اطلعتم على القلوب؟ فرسول اللّه يقول من شهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، أصبح مسلماً، وإن ارتكب المعاصي، أم أنه فكر الخوارج؟

وهنا استشاط الشيخ سيد غضباً وهو يقول:

ـ أو تعلمنا ديننا يا ولد، ونحن علماءه الحريصون عليه؟

ـ معاذ اللّه يا شيخ، ولكن هذا مما هو معلوم من الدين بالضرورة...

نخر الشيخ سيد، ثم أخذ يتحدث بهمس مع الدكتور مفلح للحظات قبل أن يقول:

ـ ماذا تقول في الولاء والبراء؟ أهو من أصول الدين؟

ـ أصول الدين معروفة يا شيخ، والولاء والبراء ليس منها...

ـ فما هو إذاً؟

ـ سياسة وليس عقيدة... أي من المعاملات وليس من جوهر العقيدة... الولاء والبراء مرتبط بظروف معيّنة، ولغايات معيّنة، وليس على إطلاقه، وكي نستطيع فهم تلك الظروف وتلك الغايات، فيجب أن نفهم أسباب النزول، والأوضاع التاريخية للدعوة... ليس لنا أن

نطلق ما هو نسبي، ونعمم ما هو جزئي... الولاء والبراء من المتغيّرات وليس من ثوابت الدين يا شيخ... إنه مثل العداوة والصداقة في عالم الدول اليوم... لا أكثر ولا أقل... ورسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يقول: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»... ويقول الإمام أحمد: «والولاية بدعة، والبراءة بدعة، وهم الذين يقولون: نتولى فلاناً، ونتبرأ من فلان، وهذا القول بدعة، فاحذروه»... ويروى عن جماعة من الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، ومنهم أبو سعيد الخدري، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، والضحاك، أنهم قالوا: «الشهادة بدعة، والبراءة بدعة»... وأول هجرة للمسلمين كانت إلى الحبشة، أي اللجوء لملك نصراني وبلد نصراني، ولو كان الولاء والبراء أصل من أصول الدين، لكان محمد بن عبد الله أول من يفعله قولاً وعملاً...

كان محمد في غاية الهدوء والثقة بالنفس وهو يرد، في ما كان الشيخ سيد على وشك الانفجار وهو يقول:

ـ تجديف... وأيم الله تجديف... بل هو الكفر بعينه... الولاء والبراء أصل ثابت من أصول الدين، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن إمام الدعوة، الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «أصل دين الإسلام وقاعدته أمران: الأول الأمر بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والتحريض على ذلك، والموالاة فيه، وتكفير من تركه»... أتجعل أصلاً من أصول الدين مجرد سياسة دنيوية عابرة؟ هذا ما يقوله العلمانيون وشلة الزنادقة والعصرانيين، عليهم من الله ما يستحقون...

ثم وهو يحاول التحكم بأعصابه:

ـ ألم تقرأ قول الحق جلّ وعلا: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاّ أن تتقوا منهم تقاة»... وأنت طالب العلم؟

ثم وهو يضحك من أنفه، قابضاً على لحيته المحناة، وينظر إلى زميليه الذين ابتسما باقتضاب:

ـ أو هكذا يفترض أن تكون...

ـ قد قرأت كل ذلك يا شيخ، أما قول الشيخ عبد الرحمن، فهو اجتهاد بشر، يؤخذ منه ويترك، ولا معصوم إلاّ رسول الحق، صلّى الله عليه وسلّم... أما الآية، فإنها تدلُّ على أن المسألة ليست مطلقة...

ـ ماذا؟ كيف؟ فقهنا يا صاحب الفضيلة...

قال الشيخ سيد هازئاً، وهو ينظر إلى من حوله، ويضحك من أنفه من جديد، في ما واصل محمد حديثه غير عابئ بنبرة الاستهزاء في كلام الشيخ:

ـ «لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم»... ألم يقل سبحانه: «إلاّ أن تتقوا منهم تُقاة»؟ ذلك يعني عدم الإطلاق، أي أنك يمكن أن توالي أو تبرأ وفقاً للظروف، وإلاّ لماذا التقاة؟ إلاّ أن قلنا إن الله يدعونا إلى النفاق، والعياذ بالله من ذلك... ثم...

وتوقف محمد لبرهة قبل أن يقول:

ـ ثم... أليس هذا ما نعيب الرافضة به من التقية؟

ـ قبحك الله... أو تقارن أهل السنة والجماعة، وعقيدة السلف الصالح النقية، ببدع الرافضة عليهم من الله ما يستحقون؟

ـ لست أنا من يقول يا شيخ، ولكن الآية التي ذكرتها واضحة لا

ريب فيها... كما أني ذكرت لك بعضاً من أقول السلف الصالح، ولكنك تتجاهلها...

ـ وماذا تقول في قول الحق سبحانه: «واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل»؟

ـ مرتبطة بظروفها، وقد نزلت في قريش، فلا يجوز أن نُعممها... ثم... ثم يا شيخ لماذا لم تقرأ الآية التي سبقت هذه الآية: «وقاتلوا في سبيل اللّه الذي يُقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللّه لا يحب المعتدين»... وقول الحق سبحانه: «لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن اللّه يحب المقسطين إنما ينهاكم اللّه عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولك هم الظالمون»... وقوله سبحانه: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن باليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»... أم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض...

وهنا لم يستطع الجميع صبراً، فزمجروا والكلمات تتطاير من أفواههم: «مرتد... كافر... اتهمنا بالكفر؟ لقد جاوزت حدك... القضية أكبر مما كنا نتصور...». وبعد أن هدأت الأمور قليلاً، قال الشيخ سيد، بعد أن تحدث مع زملائه، وهو يحاول ضبط أعصابه:

ـ لا... لقد زودتها فعلاً... وقد تبيُن لنا من أقوالك أنك مخالف لما كان عليه رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، وصحابته رضوان اللّه عليهم، وسلفنا الصالح... أنت مرتد، ذاك واضح وضوح الشمس، ولكن سنمنحك فرصة التوبة والعودة إلى دين الحق، عملاً

بما تدعونا إليه شريعتنا السمحة... فتب هداك الله...

ـ ومما أتوب؟ لم أفعل ذنباً يوجب الخروج من الملة... أنا مسلم موحّد، فكيف لمسلم أن يُسلم من جديد؟ ناقشتموني بكتاب الله، وناقشتكم بكتاب الله... ناقشتموني بسنة المصطفى، صلّى الله عليه وسلّم، وناقشتكم بسنته... ناقشتموني بما كان عليه السلف الصالح، وناقشتكم بما كانوا عليه...

وبان الضيق الشديد في عيني الشيخ سيد، ثم وهو ينظر إلى زملائه:

ـ مصر على ذنبك إذاً؟ يطرد من الجامعة، ويحول ملفه إلى القضاء، لاتخاذ اللازم بشأنه...

ونهض الجميع مغادرين القاعة، وابتسامة عريضة تحتل وجه الدكتور مفلح، وهو ينظر إلى محمد وقد التمعت عيناه بنشوة النصر، في ما بقي محمد ساكناً ينظر إلى البعيد، وقد أدرك إلى أي مصير يُساق... لقد صدر الحكم قبل أن يصدر...

* * *

ألقى عبد العزيز جريدة «الواشنطن بوست» جانباً، وشبك كفيه وراء ظهره، وأخذ يتأمل المكان لأول مرة منذ أن قدم. لم يلفت انتباهه شيء، فمنذ أن وصل إلى الولايات المتحدة قبل أشهر ستة، وهو يعيش في المكان ولا يعيش، بل يشعر وكأنه يعيش في جهنم وسط كفر بواح غير قادر على تغييره باليد أو اللسان، وأحياناً حتى بالقلب، إذ كان عليه أن ينغمس بممارسات كفرية من أجل تضليل علوج بني الأصفر، وكان ذلك يؤلمه كثيراً. وكم أحس بالألم الشديد وهو يتلقى الأمر بحلق لحيته وشاربه تماماً، وكاد أن يرفض التنفيذ، ولكن طاعة

ولي الأمر واجبة، وخاصة عندما تكون من أجل غزوة مباركة سوف تهز أركان مملكة الشيطان... كم يود لو أنه لا زال في قندهار، أو في بريدة، فهناك يُحس بنفسه حقاً. وطافت في ذهنه قريته الصغيرة في أعماق تهامة، فأحس بامتعاض شديد، فهو يكره كل ما يمت إلى تلك القرية بصلة، فليس لديه شيء من الذكريات الجميلة التي يمكن أن تجعلها جميلة. فمنذ أن خرج إلى الدنيا وهو لا يذكر إلاّ العمل الشاق هناك، من شروق الشمس وحتى غيابها. كم كان يتألم لشقاء خاله وعوز أمه، ولكن خاله لم يمنحه الفرصة حتى يحبه ويتعاطف معه. لقد كان قاسياً عليه وعلى أبنائه حتى انه ظن أن قلبه قد قُد من صخر أسود، كتلك الجبال التي تحيط بهم من بعيد. ربما كان العوز والحاجة هما ما جعلا خاله بهذا الشكل، ولكنه لم يستطع أن يحبه في يوم من الأيام. كما كان يشفق على والدته رحمها اللّه، فهي الشيء الوحيد الذي يفتقده من أيامه في القرية، وهي الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يمنعه من الخروج من تلك القرية الملعونة، ولكن اللّه فوق الجميع، وعزة الإسلام فوق كل اعتبار... فربما كانت وفاة أمه واحدة من تلك الإشارات التي يضعها اللّه في طريقه كي يدرك من خلالها معنى وجوده وما هو مطلوب منه... نحن نعتقد أن الأحداث تسيرنا، ولكن اللّه هو من يسيرنا من خلال الأحداث، فليس هناك صدفة في هذا الوجود، وليس هناك طُرق متعددة في هذه الحياة، بل هي طريق واحدة قدّرها اللّه منذ الأزل وإلى الأبد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون...

أزاح هذه الخواطر، بل وساوس الشيطان كما يصفها، من ذهنه، وقرأ آيات من سورة التوبة والأنفال حتى استعاد رباطة جأشه، وعاد إلى ذكريات مختلفة... وابتسم وهو يتذكر الشيخ سليمان الهبيد إمام

مسجد الغر المحجلين في البطين. كان الشيخ تحفة من تحف هذا العصر، ومع ذلك كان له الكثير من المريدين، ولكن معظم الذين يصلون في مسجده إنما كانوا يبحثون عن الطُرفة والطرافة التي يتندرون بها. لا يستخدم أي شيء لم يكن يستخدمه الرسول وصحابته الأقربين، فهو لا يستخدم السيارة في تنقلاته، ولا الكهرباء أو الغاز، ولا يتعامل بالنقود الورقية المليئة بالصور، والصور حرام. بل إن التعامل مع الحكومة هو نوع من الكفر بالنسبة له، فطالما أن دولة الخلافة غير موجودة، فكل النظم حرام ولا يجوز التعامل معها. كانت لديه حمارة بيضاء ضخمة الحجم، جُلبت له من الأحساء، يستخدمها في تنقلاته. أما ثيابه، فكانت تُخاط ببيته الملاصق للمسجد. حتى مسجده الصغير كان بسيطاً جداً، فهو مبني بالطين، وأرضيته عارية إلاّ من الرمل، ولا وجود لأي أجهزة حديثة فيه. وقد أثار ضجة يوم حاولت وزارة الأوقاف ضم مسجده إلى الوزارة، ولكنه رفض تماماً فقد كانت الأرض المُقام عليها المسجد أرضه. وبعد لأي، رضخت الوزارة وتركته لحاله.

ـ الحلال ما كان عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، والحرام ما لم يكن عليه...

قال الشيخ وهو يتنحنح، مجيلاً نظره في الحاضرين لدرسه اليومي بعد صلاة العصر:

ـ كل شيء لم يكن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فهو حرام...

ـ شلون يا شيخ... يعني السيارة والطيارة وغيرها حرام؟

قال أحد الحاضرين...

ـ نعم... أي نعم...

أجاب الشيخ بحزم...

ـ أجل وش نسوي... نمشي على رجلينا، واللّه خلق لنا وسائل النقل هذه؟

أحس الشيخ بنبرة السخرية في صوت السائل، فشعر بالغضب يجتاحه، ولكنه كظم غيظه وهو يرد بصوت حاول أن يكون هادئاً قدر المستطاع:

ـ لا... خلق اللّه لكم الأنعام: «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون»...

ـ بس يا شيخ السيارة مثل الحمارة... وسيلة نقل...

ـ ما ليس مذكوراً في القرآن فهو حرام... وما لم يكن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حرام...

ـ ولكن يا شيخ الأصل في الأمور الإباحة...

وهنا استشاط الشيخ غضباً وهو يقول، والرذاذ يسابق كلماته:

ـ من قال ذلك... الفقهاء... يعني رجال... إنهم يشرعون ما ليس في شرع اللّه، واللّه وحده هو المُشرّع... غير أحمد وابن تيمية وابن القيم وإمام الدعوة لا قيمة لأحد... كلهم يقيسون، ومن قاس فقد شرع...

ـ ولكن اللّه تعالى يقول: «ويخلق ما لا تعلمون»...

ـ نعم يخلق ما لا تعلمون، ولكن هذه الأشياء مضاهاة للخالق في خلقه... إنها تشبه بالخالق في خلقه، فلا خالق إلاّ اللّه، وهذا حرام... حرام... حرام...

ـ طيب كيف ننتصر على الكفار ونحن لا نستخدم منتجات العلم الحديث؟ ألم يكن الإخوان يقولون إنهم سيهزمون أعدائهم بالحافر وصنع الكافر؟

ـ كانوا من المخلصين ولذلك نصرهم اللّه... لم ينتصروا بصنع الكافر بل بإخلاصهم للتوحيد... غفر اللّه لهم صغير شركهم واللمم في ما فعلوا... كونوا جنود اللّه وينصركم بالمعجزات، كما نصر موسى على سحر فرعون، ويدعمكم بالملائكة...

ثم وهو يتنحنح بقوة:

ـ الأمور ليست بالأسباب بل بالغايات... نحاربهم بالإيمان والتوحيد، واللّه هو سبب كل شيء... كان موسى أضعف من فرعون، ولكن اللّه أخذ فرعون أخذ عزيز مقتدر. وكان هود وصالح أضعف من عاد وثمود الذين كانوا أعظم أمم عصرهم، ولكن اللّه صرعهم بريح صرصر عاتية، فجعلهم كأعجاز نخل خاوية... وهل استطاع أبرهة أن يهدم الكعبة رغم أنها كانت مكشوفة أمامه؟ كلا... لقد أرسل اللّه المعونة من السماء فكانت طير الأبابيل التي جعلتهم كعصف مأكول... الأمور ليست بمسبباتها، ولكنها فيمن خلق الأسباب، الرحمن الرحيم...

ـ بس يا شيخ اللّه هو اللي سبب الأسباب، وبهذه الأسباب وصلوا القمر، وساروا عليه...

وهنا استشاط الشيخ غضباً، واحمرت عيناه وهو يهز بسبابته في

وجه السائل، ويقول بصوت عال والرذاذ يتطاير من فيه:

ـ داسوا على القمر!!! ما يخسى إلاّ هم، القمر آية من آيات اللّه وزينة للسماء الدنيا، لا يمكن أن تُدنس بأرجلهم النتنة، ولا أرجل غيرهم... وصلوا للقمر؟! من قال ذلك؟ إنها خدعة كبرى منهم لتضليلنا وإبعادنا عن حقائق القرآن... خدعة لتشكيكنا في قول الحق... خدعة لتشكيكنا في آيات اللّه وفي ديننا... وصلوا القمر؟ من يقول بذلك فقد زل وضل ضلالاً كبيراً... استغفر اللّه وعد عن هذا القول، فواللّه الذي لا إله إلاّ هو إنهم لم يذهبوا إلى قمر أو غيره، ولكنها خدعة من خدعهم يريدون بها طمس هذا الدين، ولكن اللّه غالب على أمره ولو كره الكافرون...

ـ ولكننا رأينا ذلك يا شيخ على شاشات التلفزيون...

ـ لا... وتشوف تلفزيون وصور بعد! استغفر ربك وتخلص من هذه الأجهزة الشيطانية... فالبيت الذي فيه صور لا تدخله الملائكة... ومن كان لديه تلفزيون في البيت فهو ديوث... استغفروا ربكم وعودوا إليه، فكل شيء يأتي من الكفار كفر...

ثم وهو يحاول تجميع شتات نفسه:

ـ أما ما قالوا إنه صور نزولهم على القمر والعياذ باللّه، فما هو إلاّ خدعة من إبليس اللعين... نعم خدعة خبيثة انطلت على المسلمين وغيرهم...

وصمت الشيخ لبرهة، فيما تعلقت الأعين بوجهه منتظرة أن يُفصح عما يعرف ولا يعرفون. وبعد أن تأكد الشيخ أن كل الآذان أصبحت مصيخة السمع، قال بتؤدة غريبة عليه:

ـ ما قالوا إنه صور نزولهم على القمر والعياذ باللّه ليس إلاّ خدعة

شيطانية من إبليس اللعين... لقد انتفخ إبليس اللعين في السماء الدنيا حتى أصبح عظيم الحجم، فهبط الأمريكان عليه وهم يظنون أنهم يهبطون على سطح القمر، ولم يهبطوا على ظهر القمر... يخسون... فكما أنه شبه للذين كفروا أنهم قتلوا عيسى عليه السّلام وصلبوه، وهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، وشبه للناس أن عُصي سحرة فرعوة تحوّلت إلى أفاعٍ تسعى، فكذلك شبه للذين كفروا الهبوط على سطح القمر وما هبطوا... إنه مكر اللّه الذي جعل إبليس يبدو لهم وكأنه القمر... ويمكرون ويمكر اللّه، واللّه خير الماكرين...

ـ ولكن هذه أصبحت حقائق علمية يا شيخ...

وهنا استنشاط الشيخ غضباً من جديد، حتى بدأ الرذاذ يتطاير من فيه وهو يقول:

ـ حقائق علمية؟ أي علم هذا؟ علم الشيطان لا علم الرحمن... العلم نأخذه من كتاب اللّه وسنة نبيه، ولا علم غير ذلك... فلا علم لنا إلاّ ما علمنا اللّه إياه... أي علم هذا الذي يقول إن الشمس ثابتة والأرض جارية... الشمس هي الجارية كما أخبرنا بذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم... فهي تشرق وتغرب وتسجد للرحمن في مغربها عند العرش... هذا هو العلم... ألم تقرأ كتاب الشيخ ابن باز؟

ـ أي كتاب تعني يا شيخ؟

ـ كتاب «الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب»... هنا تجد العلم الصحيح، وليس في مصنفات القردة الخاسئين... يقول الإمام ابن باز: «القول بأن الشمس ثابتة وأن الأرض دائرة هو قول شنيع ومنكر، ومن قال

بدوران الأرض وعدم جريان الشمس فقد كفر وضل ويجب أن يُستتاب وإلاّ قُتل كافراً ومرتداً ويكون ماله فيئاً لبيت مال المسلمين». . . هذا هو العلم الصحيح، مهوب تقولي وصلوا للقمر. . .

ـ وما هي أدلة الشيخ؟

ـ كل شيء واضح ما يحتاج إلى دليل. . . يقول الله جلّت قدرته: «وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مُسمى»، «والشمس تجري لمستقر لها»، «وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين»، «فلا أقسم بر المشارق والمغارب»، «جعل لكم الأرض قراراً»، «جعل لكم الأرض مهاداً»، «الذي جعل لكم الأرض فراشاً»، «وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم». . . وقد ثبت عن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، أنه قال يوماً: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يُقال لها ارتفعي وارجعي حيث جئت». . . هذا هو العلم ولا علم لنا إلاّ ما علمنا الله ورسوله. . .

ونهض عبد العزيز قائماً وهو يتجه إلى باب الخروج، غير قادر على منع ابتسامة غزت ثغره. لم يكن يعتقد بكثير مما يقوله الشيخ، ولكنه يصلّي في مسجده بعض الأحيان لإحساسه بفطرة الشيخ رغم سذاجته وأفكاره المشوشة. صحيح أن هنالك بعض الأفكار الصحيحة في ما يقوله الشيخ، ولكنه محاط بالكثير من التشويش الذي يغيب الحقيقة. كان يود البقاء أكثر، ولكنه كان في عجلة من أمره، فهو يريد اللحاق بصلاة المغرب في استراحة الشيخ محمود الصرعوني، على الأطراف الشمالية لمدينة بريدة، فهناك هي الأفكار التي يعتقد أنها ستيعد إلى الإسلام روحه الضائعة. فمع الدكتور مفلح، لم يكن

عبد العزيز يحترم من العلماء إلاّ الشيخ محمود، والشيخين ابن باز وابن عثيمين، رغم أن له ملاحظات كثيرة عليهما. فهما، ورغم تقواهما وورعهما وغزارة علمهما وحسن طويتهما، إلاّ أنهما صامتان عن الأعمال الكفرية التي تقوم بها الدولة، والحكم بغير ما أنزل اللّه، والولاء لغير المسلمين، بل ويبرران هذه الأعمال في كثير من الأحيان، بدعوى اتقاء الفتنة وطاعة ولي الأمر في المنشط والمكره وعلى الأثرة، استناداً إلى حديث عبادة بن الصامت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: «بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر وعلى أثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله حتى نرى كفراً بواحاً عندنا من اللّه فيه برهان وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في اللّه لومة لائم». أي فتنة أكثر من فتنة الكفر، والدولة السعودية كافرة كفراً بواحاً، كما أثبت الشيخ أبو محمد المقدسي، فلماذا يسكت الشيخان وهما من أهل العلم؟ ألا يقول ذات الحديث أنهم بايعوا رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، على قول الحق لا يخافون فيه لومة لائم، فلماذا هم خائفون وساكتون عن الصدع بالحق؟ لم يكن يفهم لماذا يقف الشيخان مع الدولة الكافرة رغم علمهما بكفرها، إلاّ أن يكونا من فقهاء السلطان، وهذا يقلّل من قيمتهما كثيراً. ولكن كِلا الشيخين كان من الزهاد المشهود لهم بالبعد عن متاع الدنيا، فهل يؤمنان فعلاً بما يقولان، وقد اتضح كفر الدولة؟ إن كان الأمر كذلك، فقد كفرا، لأن من لا يكفر الكافر فهو كافر مثله، ومن يوالي الكافر فهو كافر مثله.

ناقش هذا الأمر مع الدكتور مفلح، وفي مجلس الشيخ محمود، فلم يلقَ جواباً شافياً. كان الجميع يثنون على علم وورع الشيخين، ولكنهم لا يحيرون جواباً في أسباب وقوفهما مع الدولة، وخاصة في

تلك الفتوى الشهيرة لابن باز أيام حرب الخليج، والتي تبيح للحاكم الاستعانة بالقوات الكافرة لمحاربة إخوتهم في الإسلام. تلك الفتوى تشكّل نقضاً صريحاً لعقيدة الولاء والبراء، والتي هي من أصول الدين. كانا ينصحان بحضور دروس الشيخين في ما لا يتعلق بأمور الحكم والسياسة، أما عدا ذلك فهما الشيخان اللذين لا يشق لهما غبار. لذلك كان عبد العزيز دائم الحضور لدروس الشيخ ابن عثيمين في مسجده في عنيزة، ولكنه كان حذراً في ما يتلقى منه من علم، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالشؤون السياسية، فقد كان مرجعه في ذلك الشيخ محمود والدكتور مفلح...

* * *

في زنزانته الضيقة، جلس محمد السحابي مسنداً ظهره إلى الحائط، وقد دس رأسه بين ركبتيه، وأخذ يفكْر... أسبوعان من الزمان وهو ملقى في هذه الزنزانة، لا يدري ماذا سيكون مصيره... بل هو في الحقيقة يدري، إن هو أصر على عدم التوبة، فهي الردة والقتل السريع. أسبوعان وهو يأكل ويشرب ويفكّر... ماذا يفعل حين يحولونه إلى القضاء، وهو يعلم أن القضاة لن يكونوا أكثر رحمة من أساتذته، فكلهم يخافون على مواقعهم، ولذلك هم مستأسدون على من يخالفهم، ويهدد مكانتهم سواء بقول أو فعل. ولا يدري لماذا مرّ بخاطره في هذه اللحظة أبيات عمران بن حطان في هجاء الحجاج بن يوسف، حين فرّ من مواجهة غزالة الحرورية: «أسد عليّ وفي الحروب نعامة، ربداء تجفل من صفير العصافير. هلا برزت إلى غزالة في الوغى، بل كان قلبك في جناحي طائر»...

ابتسم للحظات، ثم عاد إلى القلق... الخوف من المصير الذي

ينتظره في ما لو أصرّ على أقواله، وتحدي من يسميهم حراس الفضيلة... وابتسم مرة أخرى وهو لا يزال في حوار مع نفسه... حراس الفضيلة؟ أي فضيلة هذه التي لا يعرفها إلاّ هم؟ وهل كانت الفضيلة محتاجة إلى حراسة في أي يوم من الأيام؟ إن لم تكن الفضيلة قناعة في النفس، وفطرة في الذات، وتلقائية في السلوك، فإنها لا يمكن أن تكون فضيلة... فقد يُجبَر الإنسان على تصور معيَّن للفضيلة، ولكنه لن يكون فاضلاً إن انتفت القناعة الداخلية... فقد يُجبَر الحصان على الذهاب إلى الماء، ولكن لا يمكن أن يُجبر على الشرب، كما يقول الإنكليز... وقد لا يجد اللّص فرصة للسرقة، فيظن نفسه شريفاً، ولكنه ليس شريفاً طالما كان لصاً في داخله... الفضيلة لا تُباع ولا تُشترى ولا تُفرض ولا تُحرس، فإن تحولت إلى ذلك لم تعد فضيلة... بل هي رذيلة في ثوب فضيلة...

وعاد إلى وضعه، وما ينتظره... إنه في حيرة لا يدري كيف يتعامل معها... فهو لا يريد أن يموت، ولكنه لا يريد أن يخضع لشيء غير مقتنع به... القضية بالنسبة لهم ليست قضية اقتناع أو فهم، بقدر ما أنها قضية مواقع يريدون الحفاظ عليها بالحفاظ على خطابهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من أمامه أو من خلفه... لا يدري ماذا يفعل... وأخذ يذرع زنزانته الضيقة وهو يغني بصوت خافت:

منتصبَ القامةِ أمشي مرفوعَ الهامة أمشي
في كفي قصفة زيتونٍ وعلى كتفي نعشي
وأنا أمشي وأنا أمشي...
قلبي قمرٌ أحمر قلبي بستان

فيه فيه العوسج　　فيه الريحان
شفتاي سماءٌ تمطر　　ناراً حيناً حباً أحيان...
في كفي قصفة زيتونٍ　　وعلى كتفي نعشي
وأنا أمشي وأنا أمشي...

ثم وهو يضحك في سره: «بلا منتصب القامة بلا مرفوع الهامة... أي قامة وأي هامة... لو كنت مكاني يا مارسيل، ماذا كنت تفعل؟ هل ستبقى منتصب القامة مرفوع الهامة؟ لم يعد هناك هامات ولا قامات... لم يعد إلاّ هم... هم... وقرر في النهاية ألا يموت... قرر أن يتوب...

* * *

ـ من أعظم مقتضيات بغض الكافرين ومعاداتهم، هجر شعائرهم وطقوسهم، وأعظم شعائرهم أعيادهم المكانية والزمانية، فيجب على المسلم هجرها، والابتعاد عنها...

قال الشيخ الضرير مستهلاً حديثه المعتاد بعد صلاة المغرب، في ما تجمع مريدوه من حوله، وقد جلس عبد العزيز في المقدمة، يستمع لأعذب حديث إلى قلبه، وهو يشعر أنه بين أهله الحق، وكان ذلك يعطيه إحساساً بسعادة لا يمكن وصفها...

ـ وأما مشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم بالأمور المباحة، وتعزيتهم في المصائب، فالصواب أنه لا تجوز تهنئتهم ولا تعزيتهم، كما جزم به كثير من علماء السلف، وعللوا ذلك بأنه تحصل الموالاة لهم، وتثبت المحبة بسبب ذلك، ولما فيه من تعظيمهم، فيحرم لهذه المحاذير، كما تحرم بداءتهم بالسلام، والتوسيع لهم في الطريق. العلاقة مع الكفار حددها الله ورسوله: فإما الإسلام، أو الجزية، أو

القتال والجهاد... ما ترك قوم الجهاد إلاّ ذلوا... هكذا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم... الجهاد سنام الدين، ومن تركه فقد ترك الدين... ومن مات ولم تحدثه نفسه بالجهاد، فقد مات ميتة جاهلية، أعاذنا اللّه وإياكم من الجهل والجاهلية...

- وماذا بشأن حُكام المسلمين اليوم يا شيخ؟ أفتنا جزاك اللّه خير...

وبعد تردد دام لفترة وجيزة، قال الشيخ:

- لا أقول فيهم إلاّ ما قاله إمام الدعوة، الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب في رسائله... يقول الشيخ رحمه اللّه: «إن هؤلاء الطواغيت الذين يعتقد الناس فيهم وجوب الطاعة من دون اللّه كلهم كفار مرتدون عن الإسلام، كيف لا وهم يحلون ما حرَّم اللّه، ويحرمون ما أحلّ اللّه، ويسعون في الأرض فساداً بقولهم وفعلهم وتأييدهم، ومن جادل عنهم، أو أنكر على من كفرهم، أو زعم أن فعلهم هذا لو كان باطلاً لا ينقلهم إلى الكفر، فأقل أحوال هذا المجادل أنه فاسق، لأنه لا يصح دين الإسلام إلاّ بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم»...

لم تكن تلك الجلسة عادية، لذلك لم يستطع الشيخ أن يكمل درسه المعتاد، إذ فرضت الأحداث الجارية نفسها على الحاضرين. كانت بريدة تغلي في ذلك الوقت، فقد كان هناك مظاهرات أمام قصر الإمارة، ولجأ البعض إلى العنف في هذه المظاهرات، وحاول البعض تسلق أسوار قصر الإمارة بعد أن مُنع الشيخ عبد الرحمن العبد الرحمن من إلقاء محاضرته المسائية المعتادة في المسجد الجامع، وقد اعتقل بعض المشايخ والمريدين، وكان من ضمنهم الدكتور مفلح الرويدي.

وكان بعض الحاضرين ممن شارك في تلك التجمعات أمام قصر الإمارة، فكان الحماس طاغياً على مناقشتهم للأحداث، وهم يطلبون من الشيخ أن يفتيهم في شرعية هذه المظاهرات، وفي الحكم على من يقف في وجه أهل الصلاح والهدى من زبانية النظام الكافر. لم يكونوا حقيقة يسعون إلى الوصول إلى حكم شرعي، فالحكم واضح بالنسبة لهم ولا يحتاج إلى كبير عناء لمعرفته، فكثيراً ما كانوا يرددون حديث سفيان الثوري بأن: «من برى لهم قلماً فهو منهم»، بقدر ما كانوا يريدون دعم الشيخ ومؤازرته، وهو الذي يستطيع بكلمة منه أن يهيج العامة في القصيم كله. كان الشيخ الضرير يعلم ما يريدون، ولذلك توقف قليلاً قبل أن يفتي، طالباً منهم التؤدة والسكينة، قبل أن يقول:

ـ أنا على مذهب الإمام أحمد وأهل السنة والجماعة، أقول بأن حُكام المسلمين في هذا العصر قد خرجوا عن دين اللّه، بارتكابهم نواقض الإيمان، من موالاة لأعداء اللّه، ومن تحكيم غير شرع اللّه، واستحلال ما حرّم اللّه، والتغاضي عمن يستهزئ باللّه ورسوله، وسجن العلماء والمجاهدين والصادعين بكلمة الحق، وتقريب منافقي هذا الزمان من العصرانيين والعلمانيين والرافضة، وتسمية الأشياء بغير أسمائها، فيسمون الجهاد إرهاباً، والتمسك بالدين تطرفاً، ولكني مع ذلك لا أحبذ الخروج عليهم، لما في ذلك من فتنة أشد وأعظم... فالوقت لم يحن... الوقت لم يحن... فالتزموا الهدوء والسكينة يا أبنائي...

خاب أمل المجتمعين من كلام الشيخ، فهم يسعون إلى فتوى صريحة ومباشرة تُكفّر الدولة، وتُجيز الخروج عليها. لم يشجب المظاهرات ولم يؤيدها صراحة في الوقت نفسه، وكذلك امتنع عن تكفير الدولة صراحة، فخاب أمل المجتمعين فيه، فلاذوا بالصمت على

مضض. وبعد أن صلوا العشاء، مدت مائدة الطعام، فتناول الجميع عشائهم بصمت على غير العادة، وأخذوا في الانفضاض. كان عبد العزيز من الممتعضين لموقف الشيخ من الأحداث الجارية، ولكن ذلك لم يقلل من قدره عنده. غير أن الشيخ محمود أشار لعبد العزيز بالبقاء بعد انفضاض السامر، حتى إذا لم يبقَ إلاّ هما، أمسك الشيخ بيد عبد العزيز وقال له دون مقدمات:

ـ اسمع يا ولدي. لعلك استغربت موقفي مما يجري هذه الأيام؟

ولاذ عبد العزيز بالصمت، فهو لا يريد أن يُعبّر عن امتعاضه لموقف الشيخ الذي يُقدر، وغير قادر على فهم الأسباب التي تقف وراء هذا الموقف، مع يقينه بأن لدى الشيخ ما يبرر به موقفه، فهو ليس جباناً ولا من مشايخ السلطان، إذ لا تأخذه في الحق لومة لائم، وكم من مرة استدعي إلى وزارة الداخلية لمقابلة الوزير شخصياً، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه، بل زاده ذلك إصراراً على موقفه، وكان يجاهر به أمام الوزير دون خوف أو وجل، فمن يخاف اللّه لا يخاف أحداً.

ـ الجهاد ليس هنا يا ولدي، الجهاد الحقيقي هناك...

قال الشيخ ذلك وهو يرتشف آخر قطرة من فنجان القهوة المرة، وقد جلسا غير بعيد عن وجار يتلظى جرمه، وقد اصطفت أباريق الشاي ودلال القهوة حوله، في ما التقط عبد العزيز إحدى الدلال وصب مزيداً من القهوة للشيخ، الذي أخذ يرتشفه بهدوء قبل أن يُكمل:

ـ الجهاد هناك يا بني... في أرض أفغانستان حيث يبزغ نور الإسلام من جديد...

ثم وهو يلقي ببقية الفنجان في جوفه، ويلقيه إلى جانبه:

ـ لقد بلغت من العلم شأناً كبيراً يا عبد العزيز، ولكن علماً بدون عمل لا قيمة له...

وسكت الشيخ هنيهة، ارتشف فيها فنجاناً آخر من القهوة المُرة، فيما كان عبد العزيز شاخص البصر إلى وجه الشيخ، وكأنه صحابي في حضرة الرسول وهو يتلقى الوحي من ربه، إلى أن قطع الشيخ الصمت قائلاً:

ـ إني أظنك من عباد الله الصالحين، ولا نزكي على الله أحداً، ولذلك اصطفيتك لعمل فيه خير الإسلام والمسلمين، وخيرك في الدارين إن شاء الله...

وقبل أن يكمل الشيخ، قال له:

ـ ولكن قبل ذلك، لدي هدية ثمينة لك...

ثم دس يده تحت إحدى الوسائد، وأخرج مجموعة من الكتب يبدو أنها قد استهلكت قراءة ودفعها إليه وهو يقول:

ـ هنا تجد حقيقة دينك.. وحقيقة وضعك...

تلقى عبد العزيز الكتب بشوق عارم، فهو يعلم أن الشيخ لا يزكي شيئاً إلاّ وهو طيب، ونظر إلى العناوين: «إتحاف العباد بفضائل الجهاد» لعبدالله عزام، «ملة إبراهيم»، و«كشف شبهات المجادلين عن عساكر الشرك وأنصار القوانين»، و«الديموقراطية دين»، لأبي محمد المقدسي، و: «عقيدة أهل السنة في الولاء والبراء»، لسعيد عبد الغني، و: «العمدة في إعداد العدة»، لعبد القادر عبد العزيز...

ـ اقرأ هذه الكتب ففيها علم كثير، في زمن قل فيه علماء الصدق، وكثر فيه الرويبضة... أنا أعلم أنك بلغت من العلم شأواً بعيداً، ولكن المسلم الحق لا يتوقف عن طلب العلم حتى يلتحق بالرفيق

الأعلى... وطلب الشيخ من عبد العزيز أن يصب له فنجاناً من القهوة وهو مواصلاً للحديث:

ـ ولكن عليك أن تقرن هذا العلم بالعمل... هناك في أفغانستان أخوة لك يجاهدون أعداء الله، فعليك باللحاق بهم... تعلمهم ما أنعم الله به عليك من علم، وتجاهد معهم في سبيل جعل كلمة الله هي العليا، فتفوز بنعيم الدنيا والآخرة معاً... لقد دحر المجاهدون في أفغانستان قوى الإلحاد الروسي، ولكن الجهاد لم ينته بعد هناك... المنافقون وطلاب الدنيا لن يدعوا المجاهدين وشأنهم بعد انتصارهم على الكفرة من الروس... والأمريكان لن يدعوا أخوتنا يبنون دولة الرسول على تلك الرقعة المباركة من الأرض... لقد تداعت علينا الأمم من كل حدب وصوب، كما قال رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، يريدون إطفاء نور الله، والله غالب على أمره ولو كره الكافرون... هناك سوف تقوم دولة الإسلام كما قامت لأول مرة في المدينة، ومنها سينطلق شعاع الإسلام ليشمل العالم كله، فهناك الجهاد وعليك به يا عبد العزيز، فإن فوته فإنك تفوت خيراً كثيراً يا بني...

كان عبد العزيز خلال ذلك يتشرب كلمات الشيخ تشرباً، وقد أحس بالنار تشتعل في كل خلية من خلايا جسده الفاني، وود لو أن في إمكانه أن يطير على بساط سحري سريع إلى أفغانستان في هذه اللحظة. كانت يداه ترتجفان من فرط الحماسة، والعرق الغزير ينساب غزيراً على جبهته الواسعة، وشيء لا يدري كنهه يكاد ينفجر في أعماقه. وبدون شعور أو قدرة على كبح النفس، نهض وهو يرتعد حماسة، وقبل رأس الشيخ ويده وهو يقول بصوت خافت وصارم في الوقت ذاته:

ـ بارك الله فيك يا شيخ وأمد في عمرك، وجعلك نبراساً لنا في

أيام الظلام والجاهلية هذه... وكيف أفوت خيراً كثيراً كهذا، فإما عزة في الدنيا، أو جنة عرضها السماوات والأرض... ما كنت أدري ما أفعل لولاك بعد الله يا شيخ... فجزاك الله عن المسلمين خير الجزاء... جزاك الله خيراً...

- أستغفر الله يا بني... أستغفر الله... فما أنا إلاّ سبب خير وضعه الله في طريقك، ولولا أن الله يحبك، ما جعلك من الصالحين...

ونهض عبد العزيز مغادراً، بعد أن قبل جبين الشيخ مرة أخرى، وقد عقد العزم على الذهاب إلى أفغانستان في أقرب فرصة ممكنة.

* * *

«وكون جهاد هؤلاء الطواغيت فرض عين، هو من العلم الواجب إشاعته في عموم المسلمين، ليعلم كل مسلم أنه مأمور شخصياً من ربه سبحانه بقتال هؤلاء. فإن هؤلاء الطواغيت يضربون سياجاً من العزلة المميتة بين عامة المسلمين، وبين المتمسكين بدينهم، ليتسنى لهم ضرب المتمسكين بدينهم وسط جهل العامة وصمتهم، في حين أن كل فرد من العامة مخاطب بنفس الفريضة ما دام مسلماً، وإن كان فاسقاً ومرتكباً للموبقات، فإن الفسق لا يُسقط الخطاب الشرعي بالجهاد...»، وألقى عبد العزيز كتاب «العمدة في إعداد العدة»، وتناول كتاباً آخر، وأخذ يقرأ: «ليس كل من ادعى التوحيد أو انتسب إليه ولو إسماً يحرم ماله ودمه ويكون من الموحدين، بل لا يكون كذلك حتى يكفر بكل ما يعبد من دون الله ويبرأ منه سواء عبادة أو سجود أو ذبح أو دعاء أم عبادة تشريع واستسلام وتحاكم، فالإشراك بالله في حكمه من الإشراك به في عبادته... لا فرق بين شرك القبور

وشرك الدستور. . . إنه لا يجوز لمسلم موحد شم رائحة التوحيد وعرف الشرك أن يكون معيناً لهذه الدولة وأمثالها من الدول المرتدة الكافرة. . . فلا يجوز له بحال أن يعمل في عساكرها ولا حرسها الوطني ولا جيشها أو شرطتها ولا مخابراتها أو أمنها وجواسيسها، فإن هذا كله من توليها ونصرتها على المؤمنين الموحدين المتبرئين منها الكافرين بها، فهو بذلك لا يقف عند حدود المعصية بل يتعداه إلى الكفر والردة. . .»، ألقى عبد العزيز كتاب «الكواشف الجلية»، وتناول كتاباً آخر وأخذ يقرأ: «إن الديموقراطية دين غير دين اللّه، وملة غير ملة التوحيد، وإن مجالسها النيابية ليست إلاّ صروحاً للشرك ومعاقل للوثنية، يجب إجتنابها لتحقيق التوحيد الذي هو حق اللّه على العبيد، بل السعي لهدمها ومعاداة أوليائها وبغضهم وجهادهم. . . فالديموقراطية كفر باللّه العظيم، وشرك برب السماوات والأرضين، ومناقضة لملة التوحيد ودين المرسلين. . .» ثم ألقى عبد العزيز كتاب «الديموقراطية دين» جانباً، وتناول آخر، وأخذ يقرأ وهو ساه عن كل ما حوله.

لم ينم عبد العزيز تلك الليلة إلاّ بعد أن صلى صلاة الفجر، فقد كان في غاية الحماسة لما قاله الشيخ محمود. قرأ عبد العزيز الكتب بشغف بالغ، فأصبح على يقين تام من أن الجاهلية ضاربة اطنابها في كل العالم، ولا بدّ من طليعة المؤمنين التي تحدث عنها الشهيد سيد قطب من أن تعود إلى ممارسة دورها في الأخذ بيد العالم من الظلمات إلى النور، كما فعل سيد الخلق محمد بن عبد اللّه، صلى اللّه عليه وسلم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. كم قلبته الحياة وقلبها منذ أن غادر قريتهم الصغيرة في أعماق تهامة، ولم يجد نفسه إلاّ هنا. . . في بريدة. . . حيث الشيخ والدكتور. في بريدة أحس بأنه قد عاد إلى

جذوره الحقيقية، بل أن بريدة بدت له وكأنها مدينة الرسول حين كان الصحابة يحلون بها. واستغفر اللّه كثيراً، حين عقد مقارنة بين مكة وبريدة، فكانت بريدة أقرب إلى نفسه من مكة، أطهر بقاع الأرض، وأرجع ذلك إلى همزات الشيطان الذي يجري فيه مجرى الدم، إذ كيف تكون بريدة أحب إليه من مكة الطاهرة المطهرة؟ لعن اللّه الهوى، بل لعن اللّه إبليس، فهو الذي ينفذ إلى القلب عن طريق الهوى، كما نفذ إلى الجنة لإغواء آدم مختبئاً في فم الحية. استعاذ باللّه كثيراً، واستغفر كثيراً، ولكن المقارنة بين مكة وبريدة لا تريد أن تفارقه، فيعاود التعوذ والاستغفار...

* * *

خرج عبد العزيز إلى الدنيا يتيماً، فقد ولدته أمه بعد وفاة أبيه بعدة أشهر، في قرية ساحلية صغيرة في أقصى الجنوب، وترعرع في كنف خاله القاسي، بعد أن رفض أعمامه العناية به أو رعايته، فقد تزوج والده من امرأة من أسرة بينهم وبينها حزازات قديمة. لم يدخر خاله حيلة في إهانته منذ أن بدأ يتفتح لديه الوعي. وفيما كان الصبية في القرية يلعبون، دفعه خاله إلى العمل وهو لم يتجاوز السادسة من العمر، على أحد المراكب الصغيرة التي تجوب البحر الأحمر بحثاً عن الرزق، وهو يقول: «اطلع لقمتك ولقمة أمك، لعنة اللّه على اليوم الذي عرفنا فيه أبوك». وكلما كان عوده يشتد، كان مقته لخاله يزداد، حتى فكر ذات يوم بقتله، ولكن شجاعته وخوفه خذلاه في آخر لحظة. وكان يفكر بالهرب كثيراً، ولكن حبه لأمه وشفقته عليها جعلتاه يعدل عن ذلك، خاصة بعد أن أخبرها ذات مرة بمكنونات قلبه، فأخذت تبكي بحرقة وهي تخبره بأنها ستموت إن فعل. وعندما بلغ الثانية عشر

من العمر، توفيت أمه بذات الرئة، فلم يعد لديه ما يخاف عليه، فهرب في اليوم التالي لموتها مباشرة. ظل يتنقل عدة أشهر من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية على الساحل وفوق الجبال، يلتقط رزقه بكافة الوسائل الممكنة، حتى أنه اضطر إلى التسول مرة وإلى السرقة مرة أخرى كي يسد جوع بطنه، حتى انتهى به المطاف في مدينة جدة، هذه المدينة الكبيرة التي كانت غاية كل صاحب طموح في منطقتهم، وعمل صبياً في أحد مقاهيها الكثيرة، وهو لم يبلغ الرابعة عشرة من العمر بعد.

كان الحرف دائماً مصدر انبهار له، كان يقف مبهوراً أمام الحرف، وخاصة عندما يلتقط جريدة أو مجلة أو كتاباً، ويقف عند تلك الحروف المتراصة التي لا يفقه لها معنى ولكنها تأسره. كم يتمنى لو أنه كان قادراً على فك أسرار وطلاسم هذه الحروف، وها هي الفرصة تسنح له في هذه المدينة الكبيرة. التحق بأحد المدارس الليلية حتى أنهى فيها الدراسة الابتدائية، ثم التحق بأحد المعاهد العلمية حيث العلم والمرتب الذي يغنيه عن تلك القروش القليلة التي يجنيها من تلبية أوامر الآخرين، في جو لم يحبه منذ البداية، فقد كانت المقاهي تعج بالمنحرفين والمتسكعين الذين رزقهم الله الوقت، فأخذوا يبددونه فيما لا ينفع النفس ولا يُرضي الرب. لقد كانت نفسه تمج هذه الأشياء، وكان يجد نفسه أكثر ما يكون في المساجد. لقد كان ذو حس ديني مرهف منذ طفولته، فأمام قسوة خاله والظروف، ووجوده بين أناس لا يرحمون ولا يشفقون، لم يجد غير أن يلقي بأحماله على خالق الكون والناس، فليس له من ملجأ غيره. وكانت أمه تقية ورعة، وكان خاله، رغم قسوته، لا يفوت فرضاً من فروض الله، أما هنا في جدة فإن كل شيء مختلف. . . حياة مختلفة وأناس مختلفون لا يراعون الله في

حياتهم، رغم أنهم يجاورون بيت اللّه. وتخرج من المعهد العلمي بامتياز مما جعله من المقبولين في الجامعة بسهولة. وهناك وجد ما يبتغيه من علم بعد أن التحق بكلية العقيدة وأصول الدين، ولكنه لم يكن راضياً عن بعض الانحرافات العقدية لدى بعض الأساتذة وبعض الطلبة، وكان يدخل معهم في مشادات حادة، لا يلبث بعدها أن يستشيط غضباً ناعتاً إياهم بالجهلة وذوي الهوى والعلمانيين، منافقي هذا الزمان. وفي الجامعة تعرف على بعض الأخوة الذين شاطروه آرائه، فأصبح لا يفارقهم في لحظة من ليل أو نهار... يسافر معهم إلى مكة والمدينة، وإلى مناطق كثيرة في المملكة، حيث ينشرون الدعوة إلى العودة إلى المحجة البيضاء، ومعهم بدأ يشعر بالأمان... لم تعد لقمة العيش مشكلة، ولم يعد المأوى مشكلة، ولم تعد النفس وحيدة منعزلة. معهم، بدأ يشعر بالقوة، هو قوي باللّه ثم بهم، وكان ذلك يدفعه إلى الالتصاق بهم أكثر وأكثر... ولعل تعرفه إلى هؤلاء كان إشارة إلهية أخرى لما يجب عليه فعله. سبحانك ربي... لا شيء متروك للصدفة كما يقول العلمانيون... وكان بذلك يزداد التصاقاً بهم، حتى أن الحياة أصبحت هم، وأصبحوا هم الحياة.

ومع هؤلاء الأخوة بدأ يتعرف على العلم الصحيح، من خلال تلك الكتب التي كانوا يزودونه بها، ومن خلال الذهاب إلى محاضرات منزلية لبعض الشيوخ الذين يرون أن الجاهلية قد عادت من جديد، وأن المسلمين لم يعودوا من المسلمين بعد أن حكموا بغير ما أنزل اللّه، وبعد أن تشبهوا بالكفار ووالوهم. شاطرهم رحلاتهم إلى مختلف مدن المملكة، حيث كانوا يلتقون بإخوة لهم من المتمسكين بدين الحق، ويحاضرون عن ضياع الإسلام في هذا الزمان. وأقنعه الأخوة أن الجامعة في مكة ليست هي المكان المناسب له، وعليه الانتقال إلى

الجامعة في الرياض أو أحد فروعها في الجنوب أو الأحساء أو القصيم. لم يكن يحب الرياض كثيراً بعد أن زارها عدة مرات، فهي مدينة فاسقة يكثر فيها الفساد، وهو غير قادر على معايشة الرافضة في الأحساء. ولا يريد العودة إلى الجنوب وتلك الذكريات الحزينة، فقر قراره أن يذهب إلى القصيم، فهناك التقوى وهناك شيوخ الصحوة والداعين لها، وهناك الدكتور مفلح، مضحياً بسنتين من الدراسة الجامعية، ولكن لا شيء يهم أمام طلب العلم الصحيح...

* * *

ـ كانت المضيفات يستعددن لتقديم وجبة الإفطار، على الرحلة رقم 39، والمتجهة إلى سان فرانسيسكو، بعد أن أُطفئت شارة ربط الأحزمة، في الوقت الذي اضاءت إشارة طلب الخدمة من أحد الركاب. اتجهت إلى المقعد المُنادي، وقد احتلت البسمة كامل وجهها وهي تنحني سائلة الراكب عن طلبه، فطلب كأساً من الشمبانيا الباردة، فاستدارت لتلبية طلبه والبسمة لا تغادر وجهها، وهي مستغربة كيف أن أحدهم يطلب كحولاً في هذه الساعة المبكرة من الصباح، إلاّ أن يكون مدمناً، أو لديه من المشاكل ما يريد نسيانه. في الوقت الذي استدارت فيه المضيفة، نهض الراكب من على مقعده بسرعة، واستل شفرة حادة من جيبه، وهوى بها على مضيف كان يتفقد الركاب، ثم اندفع إلى الأمام، تاركاً المضيف يتخبط في دمائه، وسط صيحات الركاب وذهولهم.، وهو يصيح: «الله أكبر... الله أكبر»، حتى إذا ما وصل إلى قمرة القيادة، كان هنالك راكب آخر سبقه إلى هناك، وكان شاهراً شفرته أيضاً. فتحوا باب القمرة، فخرجت مضيفة خدمات طاقم الطائرة، وهي ترتعش وتقول بصوت متهدج: «لا تقتلوني... أرجوكم

لا تقتلوني...» ازاحها ابن الجراح جانباً، فسقطت على الأرض، ثم دخلا القمرة:

ـ ما الأمر يا ديبورا...

قال القبطان مخاطباً المضيفة، قبل أن يُفاجأ بدخول غريبين إلى قمرة القيادة:

ـ ماذا تريدان؟

قال القبطان وهو في غاية الغضب، هاماً بالنهوض، مؤشراً بيده وهو يقول:

ـ هيا اخرجا... هيا اخر...جا.

وقبل أن يتم جملته، كانت شفرة زياد قد هوت على عنقه، في الوقت الذي كانت فيه شفرة أحمد بن الجراح قد قطعت حنجرة مساعد القبطان. حاولت مساعدة القبطان المقاومة، ولكن شفرة أحمد بن الجراح كانت أسرع، فلحقت برفيقيها. سحبا الجثث، وألقوها خارج القمرة، والدم يسير كجدول في اتجاه الدرجة الأولى. احتلا مقعدي القيادة، وأمسك زياد بالميكرفون معلناً: «سيداتي سادتي، القبطان معكم... هنالك قنبلة على الطائرة، وسنعود أدراجنا إلى نيوأرك... الرجاء التزام الهدوء، وسيكون كل شيء على ما يرام». لم يصدق الركاب ما أذاعه القبطان الجديد، فجثة المضيف الملقي بين مقاعد الدرجة الأولى قد وصلت أخبارها إلى بقية الركاب، كما أن هنالك شخصين يشهران شفراتهما في وجه الركاب، ويدفعونهم دفعاً إلى مؤخرة الطائرة... الطائرة مختطفة... ولكن ماذا يريدون؟ هذا كان هاجس الركاب في تلك اللحظة...

ـ هنالك شيء غريب يجري يا بيتر...

قال تود بيمر، أحد ركاب الرحلة، لراكب آخر من المحشورين في مؤخرة الطائرة، بعد أن استولى زياد وأحمد بن الجراح على الطائرة، فيما كان سعيد وأحمد أبو هشام يحاولان السيطرة على الوضع داخل الطائرة.

ـ بالطبع هناك شيء غريب يا تود... الطائرة مختطفة، أم أنك لست معنا؟

قال بيتر وهو يبتسم ساخراً...

ـ بالطبع أعلم أن الطائرة مختطفة، ولكن لا أظنه اختطافاً عادياً...

ـ ماذا تقصد يا تود؟ كلامك يرعبني أكثر مما أنا مرعوب...

ـ لقد اتصلت بي زوجتي، وقالت أن برجي مركز التجارة العالمي ومبنى البنتاغون قد دمرت بثلاث طائرات إنتحارية قبل قليل...

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن المسألة ليست مجرد خطف طائرة، والمطالبة بأشياء معينة، كما هو الوضع في مثل هذه الحالات... وليس هناك قنبلة على متن الطائرة، كما أعلن مختطفوا الطائرة... هؤلاء انتحاريون... سيفعلون ما فعله الآخرون في نيويورك وواشنطن...

وأخذت يدا بيتر ترتعشان بشدة وهو يقول:

ـ اتعني أننا سنموت؟ كلا... لا يمكن... لا بدّ أن زوجتك أساءت الفهم...

ـ كلا... الأمور واضحة... ألاَ ترى أن الطائرة لا تتجه غرباً أو شرقاً، بل هي متجهة جنوباً... والجنوب الشرقي تحديداً...

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ أنظر إلى الشمس يا عزيزي بيتر... إنها على شمالك تقريباً وليست خلفنا أو أمامنا... المفروض أننا متجهون غرباً إلى فريسكو، أو شرقاً إلى جرسي... أعتقد أننا نسير باتجاه واشنطن العاصمة...

وتلفت بيتر يمنة ويسرة، وتأكد من أن الشمس على يسارهم تماماً، فأخذ العرق الغزير يتصبب من على جبينه وهو يقول:

ـ وماذا يمكن أن نفعل؟ ماذا يمكن أن نفعل يا تود؟

ـ لا أدري... لا أدري... ولكن يجب أن نفعل شيئاً ما... فنحن ميتون لا محالة إن بقينا مستسلمين...

وانتقل الخبر إلى باقي الركاب، فساد الهرج والمرج، وعلت الأصوات والصراخ، خاصة بعد أن تلقى عدة أشخاص آخرين مكالمات من ذويهم تبلغهم خبر الطائرات الإنتحارية الثلاث، ولم يكون في مقدور سعيد وأحمد أبو هشام أن يفعلا أي شيء، خاصة بعد أن ذبحا راكبين، ولم يرعب ذلك الركاب كثيراً، إذ بدأوا في مهاجمتهما غير عابئين بالشفرات التي يحملان، فأخذوا يقذفونهما بالملاعق والشوك والسكاكين وأطباق الطعام، متسلحين بموائد الطعام، فلم يجد سعيد وأحمد بداً من الفرار إلى قمرة القيادة وإغلاق الباب ورائهما بقوة:

ـ الركاب ثائرون... لا يمكننا السيطرة على الوضع...

قال سعيد وهو في غاية الإرتباك:

ـ لقد علموا بغزوة نيويورك وواشنطن، ولم يعد بالإمكان السيطرة عليهم...

لم يدر زياد ماذا يفعل، فلم يكن يتوقع مثل هذه المفاجأة، فقال:

ـ لو كنا أكثر لاستطعنا السيطرة على الطائرة. . . ولكن أعوذ بالله من لو. . .

ـ المهم. . . ما العمل يا أبا طارق؟

قال ابن الجراح بتوتر واضح. . .

ـ لا أدري. . . لا أدري. . . ولكن يجب أن لا تفشل الغزوة. . .

في هذه اللحظة، كانت أصوات الركاب الثائرين تصل إليهم من وراء الباب المغلق: «إلى قمرة القيادة وإلاّ فإننا هالكون. . .»، «لنندفع إلى الأمام. . . هيا. . .»، وصوت راكبة تحدث أحدهم على المحمول بصوت مرتفع: «الجميع يتجهون إلى الدرجة الأولى، علي الذهاب. . . وداعاً. . .».

كان الركاب قد وصلوا إلى قمرة القيادة، وأخذوا يحاولون فتح الباب باستخدام موائد الطعام على الطائرة، فما كان من زياد إلاّ أن أخذ يؤرجح الطائرة يميناً وشمالاً، لعله يستطيع بذلك أن يتخلص من الركاب المتزاحمين وراء باب القمرة، ولكن محاولات فتح الباب لا زالت مستمرة، بل بدأ الباب يتحطم، ولم تفلح محاولات زياد. . .

ـ يجب أن نفعل شيئاً يا أبا طارق. . .

قال أحمد بن الجراح:

ـ واشنطن لا زالت بعيدة، والباب بدأ في التحطم، ولا يلبث الركاب أن يقتحموا القمرة. . . لا بدّ من أن نفعل شيئاً. . . افعل شيئاً يا أبا طارق. . .

ووجم زياد، وأخذ يفكر بسرعة ويداه متصلبتان على المقود. وأخيراً نظر إلى رفاقه بصمت والدموع تصارع للخروج من عينيه، قبل أن يقول:

ـ لقد فشلت غزوتنا يا أخوان... لن نستطيع الوصول إلى واشنطن... لن نلتحق بأبي عبد الرحمن وأبي العباس وأبي القعقاع وعروة وبقية الأخوة في جنة الفردوس...

ولم يستطع أن يحبس دموعه هذه المرة، فاندفعت بغزارة من عينيه...

ـ بل سنلحق بهم إن شاء اللّه يا أبا طارق...

قال ابن الجراح، وقد برقت عيناه ببريق غريب وهو يجول بنظره بين الجميع قبل أن يقول:

ـ سنحطم الطائرة بمن فيها... نعم سنحطمها... ونقضي على أعداء اللّه فيها، وكفى بذلك شهادة...

صاح الجميع: «اللّه أكبر... اللّه أكبر... نعم الرأي يا بن الجراح»، ثم وهو يضع يده على منكب زياد:

ـ دمرها يا أبا طارق... دمرها يا أخي... ويا حبذا لو كان هناك مدينة قريبة، فندمرها في قلبها...

وتبادل الاثنان نظرة طويلة، ثم تعانقا بحرارة، وعانقا سعيد وأحمد أبو هشام، وهم يهمسون لبعضهم البعض «موعدنا الجنة بعد قليل إن شاء اللّه... موعدنا الجنة...»، ثم صاحوا بصوت واحد: «اللّه أكبر... اللّه أكبر... لا إله إلاّ اللّه، محمد رسول اللّه... لا إله إلاّ اللّه، محمد رسول اللّه...»، في الوقت الذي ترك فيه زياد الطائرة لحالها، فأخذت تهوي إلى الأرض بسرعة كبيرة. وأخذت الأرض تقترب شيئاً فشيئاً، والتكبير والتهليل يملأ جو القمرة، فيما كان زياد يقول بصوت هامس: «اللهم رضاك والجنة... اللهم رضاك والجنة... أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأشهد أن محمداً

رسول الله. . .»، ولكن وجه أسيل لا يريد تركه، حتى في هذه اللحظات الحاسمة. حاول إبعاده، ولكنها لا تريد أن تتركه، فوجد نفسه يردد دون إرادة منه: «أحبك يا أسيل. . . أحبك. . .» وكانت تلك آخر كلماته في الدنيا. . .

* * *

أعلن مذيع الطائرة عن الوصول بحمد الله وسلامته إلى مطار إسلام أباد، فتنفس محمد الصعداء بعمق وهو يدعو: «اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين. أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها». كم كانت رحلة متعبة من هامبورغ إلى زيورخ إلى استانبول إلى كراتشي، وأخيراً ها هو في إسلام أباد يكاد يشم رائحة أرض الجهاد. . . يكاد يشم رائحة أفغانستان. إنه يعلم أن هذه ليست نهاية الرحلة، فأمامه أكثر من 300 كيلو متر حتى الوصول إلى بيشاور، ومن ثم اختراق الحدود الباكستانية الأفغانية وصولاً إلى كابول. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى باكستان وأفغانستان، بل سبق له المجيء ولكنه لم يمكث كثيراً في أفغانستان، ولم يتلق تدريباً مكثفاً. كانت المرة الأولى عندما جاء إلى «كويتا»، ثم انطلق إلى قندهار، حيث بقي ما يقارب الشهر، تعرف فيه إلى الجهاد والمجاهدين، وكان مبهوراً بما يفعلونه، وبكل تلك المعجزات التي حدثت وتحدث في أرض الجهاد. رأى السعادة على الوجوه في كل مكان لوصول قوات طالبان إلى السلطة، وحكمهم بشريعة الرحمن. وكانوا يحدثونه كيف أن الرزق أصبح وفيراً منذ أن أصبح الملا عمر خليفة للمسلمين، فكان

محمد متعجباً من كل ذلك، ولكنه تذكر قول الله تعالى: «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذنهم بما كانوا يكسبون»، فزال تعجبه، وحمد الله وأثنى عليه. . .

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، وكان في استقباله في مطار إسلام أباد أخ عرف نفسه بأبي العباس المغربي، كان ينتظره عند باب الدخول إلى المطار مباشرة. كانت علامة التعريف بينهما هي قول أبي العباس: «ادخلوها آمنين إن شاء الله»، فيرد عليه محمد: «آمنون إن شاء الله». أنهى إجراءات الدخول إلى باكستان بسرعة، وترحيب ضابط الجوازات به وهو يقول: «هنالك عرب كثيرون يأتون إلينا هذه الأيام. . . إنهم يذهبون إلى أفغانستان لفعل الخير. . . وفقكم الله» ابتسم محمد وهو يستعيد جوازه قائلاً: «جزاكم الله خيراً. . . جزاكم الله خيراً، وأعاننا على نصرة الإسلام والمسلمين»، واتجه إلى صالة الجمارك، فيما كان الضابط يتابعه بنظراته، وطيف ابتسامة يلوح على محياه، في الوقت ذاته الذي كان فيه ذات الطيف يلوح على محيا أبي العباس.

وخرج إلى ساحة المطار حيث كانت بانتظاره سيارة فورد قديمة، ربما كانت من طراز ١٩٥٦، ولكنها تُعتبر جديدة بالمعايير الباكستانية، لم تلبث أن انطلقت إلى بيشاور. لم يضع في حسابه أن تستمر الرحلة إلى بيشاور بهذا الشكل، فقد كان يُمني النفس بليلة هادئة في إسلام أباد، رغم الشوق في الوصول إلى أفغانستان بأسرع ما يمكن، ومن ثم الانطلاق إلى بيشاور ثم أفغانستان، ولكن السيارة انطلقت دون استئذان منه. فوض أمره إلى الله وهو يركب، ويردد دعاء السفر للمرة الرابعة في رحلته هذه: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. سبحان الذي سخر لنا

هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوي عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل»...

كانت الطريق في غاية السوء، وهاد ومرتفعات، كما كانت مليئة بالبشر والسيارات والحيوانات، ولكن ذلك لم يمنعه من الإغفاء طوال الرحلة، فقد كان في غاية الإجهاد لدرجة أنه تخيل أنه إنما يسير حبوراً في أزقة القاهرة القديمة، رغم علمه أنه في باكستان. وعندما كان قرص الشمس يحمر في الغرب، معلناً بداية نهاية النهار، كانت السيارة قد دخلت أطراف بيشاور. سارت بين الأزقة والطرق المتعرجة، ثم واصلت طريقها حتى خارج بيشاور لمسافة تقرب من نصف ساعة، حتى أشرفوا على قرية قريبة لم يلبثوا أن دخلوها، ثم توقفوا عند منزل أنيق المظهر رغم بساطته، ولكنه يوحي بالراحة والهدوء، بعيداً عن الأسواق المزدحمة بالباعة والجوالين الذين يبيعون كل شيء، من أعشاب العطارة والعطور التقليدية، حتى السلاح والمخدرات. وهنا فقط التفت إليه مرافقه أبو العباس قائلاً، والبسمة تحاول الظهور من بين الشعر الذي غطى كل وجهه:

ـ حمداً لله على السلامة يا أخ أبو عبد الرحمن... مرحباً بك في بابي... آن لك أن ترتاح بعد عناء الطريق ووعثاء السفر...

ثم وهو يهبط من السيارة، وقد أمر بعض العاملين حول المبنى بإنزال حاجيات محمد:

ـ هذا النزل من أقدم المضافات الخيرية في بيشاور... كان اسمه

بيت الأنصار، وقد أنشأه الشيخ الشهيد عبد الله عزام، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، وبعض أهل الخير من السعوديين في بداية الجهاد ضد الروس، وهو اليوم لا يُستخدم إلاّ لاستضافة كبار المجاهدين... لقد كان الشيخ عبد الله عزام رحمه الله لا يستريح إلاّ فيه...

قال ذلك وهو يغمز بعينه لمحمد، الذي رد بابتسامة سريعة، وهو يتخيل أي فراش يمكن الاستلقاء عليه. أدخلوه إلى غرفة مفروشة ببسط أنيقة وجميلة، رغم عدم غلاء ثمنها، وكانت المفارش تحتل أركان الغرفة، مع وسائد ومساند للإرتكاء. كانت في غاية النظافة رغم بساطتها المتناهية، وعلى الجوانب كان هنالك عدة فرش، مرتبة وفي غاية النظافة، فألقى محمد بنفسه على أحد تلك الفرش، ولكنه أفاق بسرعة، فلن ينام قبل أن يصلي صلاة العشاء...

بعد صلاة المغرب مباشرة، التي أداها مع جمع من الضيوف في الغرفة التي خُصصت مسجداً، وقد أصر عليه الجميع أن يؤمهم في الصلاة وهو كاره، فهو في باكستان وهؤلاء المجاهدين بلحاهم الكثة وقروح السجود على جباههم، يبدون أكثر أهلية منه للإمامة. ولكن الأخ أبو العباس المغربي دفعه إلى الأمام وهو يبتسم. بعد الصلاة، مُدت سفرة كبيرة في الغرفة التي يحتلها محمد، وضع في وسطها طبق كبير من الأرز تعلوه ذبيحة كاملة، وقد تناثرت إلى جنباته أطباق صغيرة من السلطة ومرقة البطاطس السابحة في دهن كثيف، والكثير من أرغفة الخبز الأفغاني. لم يستطع محمد أن يأكل كثيراً، فهو بحاجة إلى النوم أكثر منه إلى الطعام. احتسى ما قدم له من شاي أخضر بعد العشاء، لعله يزيل هذه الحموضة التي بدأ يشعر بها بعد العشاء مباشرة، ولكن عينيه كانتا تطبقان بالرغم منه، وسط أحاديث وضحكات من الأخوان

لا يستطيع أن يفهمها. بعد صلاة العشاء مباشرة، ألقى بنفسه على أحد السرر، وجاءه أبو العباس ببطانية جديدة من المستودع، ثم أطفأ النور وغادر وابتسامته ما زالت تحاول النفاذ من كل الحصار الشعري الذي يحيطها. «أخيراً سوف أنام»، قال محمد مخاطباً نفسه، ولكن الغريب أنه لا ينام. إنه في غاية الإرهاق بحيث لا يستطيع النوم... وابتسم في ظلام دامس يحيط به، وهدوء لا يزعجه إلاّ أصوات متقطعة لأناس تأتي أصواتهم مبهمة من بعيد. غفت عينه للحظات، ولكنه ما لبث أن أفاق وهو يرتعد... لقد رأى كابوساً مزعجاً. انقلب على جانبه الآخر، بعد أن تفل عدة تفلات وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكن النوم يجافيه. جلس وهو ينظر حوله، فلا يرى إلاّ بصيص نور قادم من بعيد، فتناول إبريق الشاي وصب لنفسه كأساً من شاي بارد أخذ يحتسيه دون شعور... ها هو في باكستان... في بيشاور ليس بعيداً عن الحدود الأفغانية... وغداً... غداً سيسافر إلى أرض الجهاد. أحس بالحماسة تجتاحه، وبالحرارة تخترق جمجمته، فجرع الشاي دفعة واحدة وهو يغيب في اللازمان...

* * *

ـ السلام عليكم يا أخ محمد...

نظر محمد إلى القادم، ثم عاد بنظره إلى المصحف المفرود أمامه، وهو يقول بتلقائية ودون اكتراث:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته...

ـ أقدم لك نفسي... أنا أخيك محمد حيدر الزمار... عربي ألماني... من مدينة حلب في سوريا، مدينة سيف الدولة وأبي فراس... جئت لألمانيا وأنا عمري عشر سنوات مع والدي هرباً من

ظلم الطغاة أعداء الدين، وبحثاً عن لقمة عيش في بلاد الكفر... أترى كيف أصبح حال المسلمين؟! يبحثون عن اللقمة في بلاد أعدائهم...

أطبق محمد المصحف بهدوء، بعد أن وضع علامة إلى حيث وصل، وقد أثار ذكر حلب شجون كثيرة في نفسه، ثم نظر إلى الجالس بجانبه دون استئذان: شاب وسيم المحيا في نهاية سنوات الشباب، في حدود الأربعين أو أقل منها قليلاً أو أكثر قليلاً، أبيض البشرة، ضخم الجسد، يميل إلى السمنة، كث اللحية شديد سوادها، وبسمة تكشف عن أسنان بيضاء لا تغادر محياه، يرتدي جلباباً قصيراً أبيض، وسروال أبيض، وطاقية مخرمة بيضاء هي الأخرى. لقد رآه عدة مرات في مسجد المجاهدين، ولا زال يذكر خطبته النارية قبل فترة حين قال إن المسلمين لا يمكن أن يجلسوا مكتوفي الأيدي أمام إذلال الغرب لهم، وأن العالم الذي يزعم أنه متحضر هو أسوأ الإرهابيين. لم يشعر محمد بارتياح لهذا الشخص، رغم أن كل ما فيه يُشعر بالارتياح، وإن كان حديث الغريب قد مس وتراً حساساً في قلبه، ولكنه لا يستطيع أن يطرده من بيت الله. ابتسم إحدى تلك الابتسامات النادرة وهو يقول:

ـ مرحباً بك يا أخ... ماذا قلت اسمك؟

ـ محمد حيدر...

ثم وهو يضحك بحبور:

ـ الأصدقاء يسمونني الزمر... عبده الزمر... تعرف ما أعني... الزمر... الزمار...

ويواصل الضحك فيما عاد محمد إلى عبوسه المعتاد، وهو يتمنى مفارقة هذا الثقيل والعودة إلى مصحفه.

ـ لقد التقينا قبل ذلك عدة مرات، ولكن يبدو أنك لا تذكرني. . .

ثم وهو يمسد لحيته الطويلة وينظر إليه نظرة ذات معنى:

ـ كنت مثلك أتابع دروس الشيخ محمد بن ناصر بلفاس، وكنت دائماً من المعجبين بأسئلتك ونقاشاتك مع الشيخ. . .

ثم وهو يبلع ريقه:

ـ بل إنني كنت من المتابعين لك منذ أن بدأت الصلاة في مسجد القدس هذا قبل أربع سنوات. . . كان يعجبني سمتك ووقارك وتقواك والتزامك بالصلاة في مواعيدها، على خلاف الكثيرين، هداهم الله، الذين يفوتون بعض الفروض في المسجد. . .

ثم وهو يضحك باقتضاب:

ـ حتى أني أظن أنك أكثر التزاماً من إمام مسجدنا الشيخ محمد بن محمد الفيزازي. . .

كان محمد طوال الوقت يستمع إلى هذا الغريب، وتذكر أنه بالفعل شاهده مرة أو مرتين في دروس الشيخ بلفاس، ولكنه يكاد لا يكون موجوداً، فهو لا يناقش ولا يتكلم على الإطلاق. بل إنه يظهر فجأة ويختفي فجأة، دون أن يلحظ أحد مجيئه أو رحيله. ماذا يريد منه هذا الغريب، ولماذا انتقاه للحديث المنفرد معه دون بقية رواد المسجد. أسئلة كثيرة لا تجد جواباً، وهو غير مهتم حقيقة بإجابتها، فهو يريد الخلوة إلى نفسه في هذه الجمعة الفضيلة، ولا يريد أن يفوت الفرصة لاقتناص تلك الساعة التي لا يدعو الله فيها أحد إلاّ استجاب له. لم يجد بدأ من الرد على هذا الغريب، ولو من باب المجاملة، فقال وهو يحاول إنهاء النقاش بأية طريقة:

ـ جزاك الله خيراً... جزاك الله خيراً... أرجو أن أكون عند حسن ظنك...

ـ أنت كذلك... أنت كذلك إن شاء الله... ولا نزكي على الله أحداً...

ثم فجأة انقلبت سحنة الزمر، وكأنه قد أصبح شخصاً آخر، فأمسك بيد محمد وهو ينظر إليه بعينين اتسعت حدقاتهما، وقد فارقت الابتسامة كل أجزاء وجهه، ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ اسمع يا أخ محمد... أراك بعد الصلاة في مكتبة التوحيد... أنت تعرفها، فأنا أعلم أنك تتردد عليها كثيراً... بعد أن تدخل المكتبة اسأل عن كتاب «صفات الحور العين في الجنة» لمحمد بن عبد البر العشري، وسيأخذونك إلى مكتب خاص خلف المكتبة، وهناك ستجدني بانتظارك... الأمر في غاية الأهمية، أرجو أن لا تتأخر...

لم يمنح الزمر محمد أية فرصة للرد، بل غادر مسرعاً وهو يشير بسبابته إلى محمد قائلاً:

ـ أنا في انتظارك... لا تتأخر...

* * *

كان محمد متردداً في الذهاب إلى المكتبة، فقد كان نافراً من هذا الزمر لسبب لا يدريه. ولكنه في النهاية صلى ركعتين واستخار الله، وقرر أن يذهب. دخل المكتبة التي يعرفها جيداً، فاستقبله أمينها الذي يعرفه جيداً بجلبابه القصير، وتلك العمامة الأفغانية التي لا تفارق رأسه. ولفت انتباهه أنه وبالرغم من تردده على المكتبة كثيراً، إلاّ أنه لا يعرف اسم أمينها، ولم يحاول يوماً أن يفعل. حياه الأمين رداً على تحيته دون اهتمام كبير، وهو يقلب كتاب «إغاثة اللهفان من مصايد

الشيطان»، لابن قيم الجوزية. توقف محمد لبرهة، ثم سأل الأمين:

ـ هل أجد عندكم كتاب «صفات الحور العين في الجنة»، لمحمد بن عبد البر العشري، جزاك الله خيراً؟

أغلق الأمين الكتاب الضخم بعد أن نظر إليه بطرف عينه، ووضع الكتاب جانباً، واستدار متجهاً إلى خلف المكتبة دون أن ينبس ببنت شفة، طالباً، بل آمراً محمد أن يتبعه. فتح الأمين باباً خلفياً في المكتبة، بعد أن تلفت يمنة ويسرة متأكداً أن أحداً لا يراقب، ثم دخل بسرعة وهو يشير لمحمد بالدخول، وسرعان ما أغلق الباب بسرعة. نظر محمد حوله وهو يكتشف المكان الذي لم يخطر بباله أنه كان موجوداً في المكتبة التي يعرفها جيداً. كانت الغرفة عبارة عن مخزن كبير يضم أشياء كثيرة متراكمة على بعضها البعض: كتب، أشرطة فيديو، أشرطة كاسيت، كمبيوترات عديدة، بالإضافة إلى الكثير من الأوراق المتراكمة فوق بعضها البعض في كل مكان. سار الأمين متعرجاً بين أكوام الكتب والأشرطة، حتى وصل إلى نهاية الغرفة حيث كان الزمار، كما بدأ محمد يدعوه، قابعاً خلف مكتب خشبي قديم، وهو يقرأ موضوعاً في جريدة «زود دويتشه» باهتمام واضح. ألقى الجريدة جانباً، وانتصب واقفاً ما أن رأى محمد يقف أمامه، وشد على يده مصافحاً بحرارة وهو يبتسم قائلاً:

ـ ها قد جئت... كنت واثقاً من أنك ستأتي... تقويمي للناس لا يخطئ أبداً... تفضل... تفضل بالجلوس... وأشار إلى مقعد جلدي في الجهة الثانية من المكتب. جلس محمد وهو يدور بعينيه في أرجاء الغرفة، فيما أمر الزمر الأمين أن ينصرف. ساد الصمت للحظات لم يكن يعكر صفوها إلاّ صوت القطارات القادمة والذاهبة في المحطة

القرية، ومحمد كله آذان صاغية لالتقاط أي شيء وكل شيء:

ـ كنت اقرأ موضوعاً عن التفجيرات التي حدثت في مركز التجارة العالمي قبل سنوات قليلة... يا لهؤلاء الغربيين، إنهم لا ينسون وينبشون في الأوراق القديمة إذا كان ذلك يخدم أغراضهم الدنيئة... إنهم لا يتوانون عن اتهام الإسلام والكيد له بكل ما أوتوا من قوة... هل تصدق... يقول كاتب المقال إن الإسلام دين قائم على العنف منذ تأسيسه على يد محمد، المعروف بعنفه وشهوانيته، وأن الإسلام انتشر بقوة السيف وليس بقوة الكلمة مثل النصرانية... أعوذ باللّه مما يقولون... قاتلهم اللّه أنى يؤفكون... قاتلهم اللّه... إنهم لا يعلمون أن المسلم مجاهد إذا مُس دينه أو عرضه أو كرامته، وأميركا اليوم تعادي الإسلام والمسلمين وتمرغ أنوفهم بالتراب، فهل نسكت؟ كلا... هو الجهاد، وإلاّ فنحن نستحق ما يجري علينا... فما ترك قوم الجهاد إلاّ ذلوا... الإسلام دين الحق والتسامح، ولكن التسامح لا يعني الهوان... إنهم لا يعلمون ذلك، ولا يريدون أن يعلموا... ألاّ لعنة اللّه على الكافرين... لعنة اللّه على الكافرين...

ثم بعد لحظة سريعة من الصمت:

ـ اسمع يا أخ محمد...

قطع الزمر حبال الصمت المخيمة:

ـ أنت لا تعرفني، ولكني أعرفك تماماً... فدعني أقدم لك نفسي...

وأخذ يملس على لحيته الكثة قبل أن يقول:

ـ اسمي محمد حيدر الزمار، من مواليد حلب الشهباء، عام ١٩٦١، كما سبق أن قلت لك... أتيت إلى ألمانيا عام ١٩٧١ مع

والدي بحثاً عن لقمة العيش، وهرباً من النظام الكافر هناك... كنت بتوفيق من الله، ثم بتربية والدي الطيبة، من المواظبين دائماً على أداء فروضي الدينية، والتعلق بهويتي الإسلامية رغم ألمانيتي، فكنت من مرتادي مساجد الإمام علي والقدس وجامع المجاهدين، حيث اعتدت أنت أن تتناول إفطارك أيام رمضان... أليس كذلك؟

قال الزمر ذلك وهو يبتسم، فيما كان محمد في غاية الدهشة لهذه المعلومات الدقيقة عنه:

ـ المهم...

قال الزمر:

ـ وعندما أصبحت في العشرين من عمري، تعرفت إلى الأخوان في هامبورغ، عن طريق الأخ مأمون، أنت تعرفه، جزاه اللّه خيراً عن الإسلام والمسلمين... بعد تخرجي من الثانوية، ذهبت إلى كلية تصنيع المعادن، وتلقيت تدريباً في شركة مرسيدس للسيارات... وخلال الثمانينيات، ذهبت إلى السعودية، وكنت أمني النفس بأنني سأعيش في جنة الفردوس، فهناك يُطبق شرع اللّه، وتُقام الحدود، ولكنني اكتشفت العكس... فالسعوديون يعيشون في ظل حكومة كافرة، تستغل الدين ولا تطبقه... صُدمت بما وجدته هناك، فعدت إلى ألمانيا لأعمل سائقاً في شركة نقل... فإن أعمل مع الكافرين خير لي من العمل مع المنافقين من أبناء جلدتي... وفي عام ١٩٩١، وبعد انتهاء حرب الخليج، قررت أن أتفرغ للجهاد... سافرت إلى باكستان، ومن هناك ذهبت إلى أفغانستان حيث تدربت على السلاح وفنون القتال مع مجاهدين آخرين، ثم أخذوني إلى معسكر «خلدن» حيث تدربت على الأسلحة الأكثر تعقيداً... عدت إلى هامبورغ في

آخر العام، ومن ثم سافرت إلى سوريا والأردن وتركيا والسويد...
وفي عام ١٩٩٥، ذهبت إلى البوسنة مجاهداً، حيث أقمت في زينتسا مع مجاهدين عرب آخرين... ومنذ عام ١٩٩٦ وأنا متفرغ تماماً للجهاد، تحت قيادة الشيخ أبو عبد الله، أيده الله ونصره...

وتوقف الزمر عن الحديث لبرهة، ثم لم يلبث أن قال:

ـ لا أريد أن أطيل في الموضوع... نحن نعرفك منذ زمن وأنت لا تدري... فقد كنا نراقبك ونراقب غيرك من اخواننا مرتادي المسجد، وقد وجدت فيك مسلماً صالحاً يحب الخير لأمته... أم أنا مخطئ؟

ـ أنتم؟ من أنتم؟ أريد أن...

لم يمنحه الزمر فرصة للحديث:

ـ كلا... لا أظن أني من المخطئين...

ثم وكأنه استدرك شيئاً فاته:

ـ آه... نسيت واجب الضيافة... قهوة أم شاي؟ أظنك تفضل القهوة، وأنا أفضل من يُعد القهوة في هامبورغ كلها...

ثم وهو يهم بالنهوض:

ـ هل تعلم أن القهوة كانت اسماً من أسماء الخمرة عند العرب، ولكن الله ابدلنا بخير منها، رغم أن الاسم واحد...

قال ذلك وهو يضحك باقتضاب كعادته، ونهض ثم عاد بسرعة وهو يحمل كوبين من قهوة حالكة السواد، قدم أحدهما لمحمد وهو يقول:

ـ أنا أعلم أنك تحبها سوداء، وبدون سكر... مثلي تماماً...

ثم وهو يرتشف رشفة سريعة:

ـ أنت تعلم يا أخ محمد أن سبب هوان المسلمين في هذا العصر هو تركهم للفريضة الغائبة... تركهم للجهاد الذي هو سنام الإسلام، ما تركه قوم إلاّ ذلوا، كما قال سيدنا المصطفى الأمين عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم...

ثم وهو يقترب برأسه أكثر من محمد:

ـ وأنت تعلم أن أميركا الصليبية، وإسرائيل اليهودية هما أعدى أعداء الإسلام اليوم. فبعد أن سقط الإتحاد السوفياتي الملحد بجهود إخواننا المسلمين المجاهدين في أفغانستان، بدأت أميركا الصليبية واليهودية تخشيان بعثاً إسلامياً يدمرهما بعد أن دمر الملحدين الروس، ولذلك أعلنت أميركا الحرب على الإسلام، تحت ستار مكافحة الإرهاب... ولكنهم هم الإرهابيون ولكن لا يعلمون...

ثم وهو يضحك:

ـ بل وهم يعلمون... ولذلك قام الشيخ أسامة بن لادن وأخوانه من المجاهدين في مصر وباكستان وبنغلاديش بتوحيد الجهود، وتأسيس جبهة إسلامية عالمية للجهاد ضد اليهود والنصارى هذا العام... لقد ظن الأمريكان أن المسلمين لعبة في أيديهم، وأن الجهاد أداة من أدوات سياستهم الخارجية، ولكن أفغانستان أثبتت لهم العكس... لقد أسقطنا الحكومة الكافرة هناك، وأسقطنا معها إتحاد الإلحاد، وهنا بدأت أميركا تتعرف إلى من هم المسلمون الحق...

وارتشف الزمر جرعة أخرى من قهوته الفاترة:

ـ أنت تعلم أن الشيخ أسامة كان قد أسس تنظيماً جهادياً قبل ذلك هو القاعدة، ولكن الجهد الإسلامي الآن أصبح واحداً بعد أن اتحد

المسلمون في القاعدة، بالمسلمين في الجهاد الإسلامي في مصر، وجمعية الدارسين في باكستان، وحركة الجهاد في بنغلاديش، والجماعة المصرية. . . وقبل هذا الإتحاد المبارك بعامين، أعلن الشيخ أسامة الحرب على طاغوت العصر. . . على هُبل العصر. . . على أميركا. . .

ثم وهو يصمت لعدة لحظات، ارتشف فيها ما بقي في كوبه من قهوة فاترة:

- أنا أدعوك يا أخ محمد إلى أن تنضم إلى الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين. . .

وساد الصمت من جديد، فيما كانت عينا محمد تبرقان ببريق غريب، فيما كانت ذكريات كثيرة وسريعة تتزاحم على بوابة رأسه. . . وجه أحمد، وجه الشيخ محمود، وجوه أمه وأختيه. . . ما أشبه الليلة بالبارحة، أخذ يحدث نفسه، فها هو الزمر يدعوه إلى ما كان يدعوه إليه أحمد والأخوان في مصر، ولكنه اليوم غيره بالأمس. بالأمس كانت لديه بقايا من مشاعر يلعب الشيطان على وترها، أما اليوم فهو شخص مختلف لا يهمه إلاّ رضا الرحمن وقهر الأمريكان والفوز بالجنة. فمنذ اختفاء صديقه أحمد وهو يُحس أنه شخص مختلف تماماً. لم يعد محمد الضعيف الخجول المتردد، بل هو اليوم محمد آخر، لا تعرف الرحمة إلى قلبه طريقاً، إذا كان الأمر متعلقاً بربه ودينه. كم أراد بعد اختفاء أحمد بفترة وجيزة أن ينضم للأخوان في جماعة «طلاب الجنة»، ولكن حصوله على منحة للدراسة في ألمانيا جعلته يعدل عن المشروع، والخيرة فيما اختاره اللّه. حتى صلاته بالأخوان انقطعت بعد اختفاء أحمد، لا لخوف منه، ولكن لأنهم تشتتوا ولا يعلم أي مصير انتهوا

إليه. فقد قبض الزبانية على الشيخ محمود وكل الأخوان الذين كانوا يجتمعون به بعد حادثة السياح، وسافر أحمد إلى البوسنة ولم يعد يعلم عنه شيئاً. بل أنه هو قد حُقق معه لفترة وجيزة، ولم يثبت عليه أي شيء. وأخذ يقلب فنجان القهوة أمامه دون أن يشرب منه شيئاً، فيما كان هدير القطارات قد أصبح جزءاً من الصمت بعد أن اعتادت عليه الأذن:

ـ «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو اللّه وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللّه يعلمهم وما تنفقون من شيء في سبيل اللّه يوف إليكم وأنتم لا تُظلمون...»، قال محمد بصوت أقرب إلى الهمس، ثم عاد الصمت وهدير القطارات إلى احتلال الفراغ، من جديد، فيما كان كل من الزمر ومحمد ينظر في عيني الثاني مباشرة:

ـ ها... ماذا قلت يا أخ محمد؟

ـ قد قلت يا أخ محمد...

ـ على بركة اللّه إذن؟

ـ على بركة اللّه...

ـ إذاً سأعرفك ببعض المجاهدين هنا في هامبورغ، وسوف يقومون باللازم كي تصبح مجاهداً في سبيل اللّه، وتنصر كلمة التوحيد، وتقاتل تحت رايتها إن شاء اللّه...

وخرج محمد من المكتبة وهو محمل بالعديد من الكتب والأشرطة التي تتحدث عن الجهاد وفريضة الجهاد التي أهملها المسلمون، وكان في غاية السعادة... فها هو اليوم يجد ما كان يبحث عنه طوال عمره. لا شك في أن أحمد سوف يكون سعيداً به اليوم،

فقد أصبح مجاهداً بالفعل، واكتمل إيمانه إن شاء الله... وابتلعه الشارع وصوت مُقرئ في داخله يأتيه خافتاً من بعيد: «فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً. وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً»...

* * *

«هذا، وتؤكد آخر الأخبار القادمة من واشنطن، أن الطائرة المصرية المنكوبة، قد سقطت في مياه المحيط الأطلسي بعد إقلاعها بقليل من مطار كينيدي في نيويورك، بفعل فاعل من داخل الطائرة، وليس نتيجة خلل فني، كما كانت بعض التحليلات تؤكد قبل ذلك، ولا نتيجة إصابتها بصاروخ أرضي منطلق من قاعدة عسكرية أميركية قريبة، كما أكد بعض المحللين. وتقول الأنباء الواردة من واشنطن، أن مساعد الطيار هو الذي أسقطها في عملية انتحارية، ولا يُعرف بعد الأسباب التي دفعت المساعد إلى إسقاط الطائرة». أقفل محمد جهاز التلفزيون قبل أن يُكمل المذيع قراءة الأخبار، وسط دهشة زملائه في الشقة: مروان ورمزي وسعيد، الذين يعلمون مدى حرصه على متابعة الأخبار، رغم كرهه للتلفزيون ومن اخترعه من اليهود، كي يضلوا الناس ويبعدونهم عن الجاد من الأمور، فيخلو لهم الجو كي يحكموا العالم، كما توصي بذلك بروتوكولات حكمائهم. لقد التمعت في ذهنه

فكرة جهنمية أشغلته عن كل شيء آخر، سوف يدكون من خلالها عرش طاغوت العصر، بإذن واحد أحد. أخذ محمد يذرع الشقة ذات الغرف الثلاث، أو «بيت التابعين» كما كانوا يسمونها، وهو يبدو غائباً عما حوله، ثم التفت فجأة إلى رمزي وقال:

ـ علينا أن نعقد اجتماعاً بأسرع وقت ممكن. . .

ـ لماذا؟ أنت تعرف أن الاجتماعات بيننا لا تعقد إلاّ لأمر جلل!

ـ وهو أمر جلل. . .

ـ وما هو؟

ـ ستعرف لاحقاً. . . المهم علينا دعوة الآخرين. . .

ـ ألاّ يمكن أن نجتمع في المسجد أو المكتبة كالعادة؟

ـ كلا. . . الأمر أخطر من ذلك. . . وستعرف بنفسك. . .

مساء اليوم التالي، كان هنالك ثلاثة أشخاص يصلون إلى شارع مارين شتراسه، ويصعدون الدرج إلى الدور الثاني في تلك البناية حيث يقع بيت التابعين: زياد وزكريا ومنير والزمر. اجتمع الثمانية في حلقة وسط الصالة، ثم نهض محمد فجأة وأغلق ستائر النوافذ وهو يقول:

ـ جارتنا الفضولية. . . دائماً تسترق النظر من نافذة مطبخها إلى شقتنا، وقد كانت واقفة هناك كالعادة تطهو العشاء لزوجها كما يبدو، ولكني لا أدري ماذا تريد. . . الحذر واجب في أية حال. . .

ـ لعلها تبحث عن زوج جديد. . . فهؤلاء الكفار تشغلهم فروجهم عن أي شيء آخر. . . وزوجها قد أكل عليه الدهر وشرب. . . أصبح خرقة بالية. . .

قال مروان ضاحكاً:

ـ اللهم اجعلها من سبايانا...

ـ أي سبايا يا أبا القعقاع...

قال زياد:

ـ إنها لا تصلح لشيء...

وضحك الجميع، فيما عدا محمد الذي بقي على تجهمه، ثم قاطع ضحكاتهم بصوت صارم:

ـ أنتم تضحكون وكأنكم قد فزتم بالجنة، بينما هناك أخوان لكم يموتون في كل مكان... كفاكم ضحكاً ومزاحاً، فالقلب يموت من المزاح... وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال عندما رأى بعض الصحابة يضحكون: لو علمتم ما أعلم، لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً، أو كما قال رسول الله... وساد الصمت بعد أن صلى الجميع على رسول الله، ثم قطع محمد الصمت بالقول:

ـ أنتم تعلمون أننا مجاهدون، وقد تعاهدنا على الموت في سبيل الله...

وأمن الجميع على قوله بالتهليل والتكبير:

ـ وتعلمون أن أخواننا من المجاهدين قد فشلوا في تفجير إثنا عشر طائرة أميركية فوق المحيط الهادي قبل سنوات أربع، وخطة للهجوم على مقر المخابرات الأميركية بطائرة مملوءة بالمتفجرات، لا بذكاء من الأمريكان، ولكن بتعاون عملائهم من الفلبينيين...

وأمن الجميع على كلامه بهز الرؤوس هذه المرة:

ـ وتعلمون أن عملية مركز التجارة العالمي في نيويورك قبل ست من السنوات لم تصب العدو في مقتل...

وصمت محمد للحظات، فيما كان المتحلقون في حيرة من أمرهم، فهم لا يعرفون حتى الآن ماذا يريد أن يقول الأخ أبو عبد الرحمن. أخذ الجميع رشفات من الشاي أمامهم، فيما بقي محمد جائلاً بنظره بينهم قبل أن يقول:

ـ هل سمعتم بخبر سقوط الطائرة المصرية في أعماق المحيط؟

هز الجميع رؤوسهم دلالة الإيجاب، فيما واصل محمد:

ـ ألهمني اللّه سبحانه وتعالى فكرة سوف تصيب العدو الأميركي في مقتل إن شاء اللّه... وهي لا تحتاج إلى أي سلاح... سلاح الإيمان فقط...

وهنا استطاع محمد أن يستثير اهتمام المتحلقين، فقد اشرأبت إليه الأعناق، واتسعت حدقات العيون التي أصبحت تلتقي عند نقطة واحدة هي وجه محمد، والكل يردد كيف؟ مستحيل... فسر... وضح. شعر محمد بالرضا والسعادة والفخر وهو يرى أنه قد استطاع أن يربط الجميع بخيط واحد، فقال:

ـ نعم... لن يكون هنالك أسلحة... الطائرة نفسها سوف تكون هي السلاح...

ثم أخرج من جيبه قصاصة من الورق وأخذ يقرأ:

ـ طائرة واحدة من طراز بوينغ 767-200، تزن ٣٥١ ألف طن، وبها خزان وقود يتسع لعشرين ألفاً و٤٥٠ جالوناً من وقود الطائرات، الذي يولد طاقة تقترب من ٣٥٠٠ درجة...

ثم وهو يُعيد القصاصة إلى جيبه:

ـ تصوروا لو أن مثل هذه الطائرة أُسقطت وهي مملوءة بالوقود على هدف مختار، لنقل أنه مبنى مخابرات الطاغوت الأكبر في

واشنطن. . . ماذا ستكون النتيجة؟

وافتر ثغر محمد عن ابتسامة جذلى وهو يرى وجوه أصحابه، وقد أخذت تحدق في بعضها البعض، غير مصدقة ما تسمع. وأخيراً تحدث مروان قائلاً:

ـ يا لها من فكرة! ولكنها تحتاج إلى طيارين. . .

ـ لا عليك من ذلك. . . التفاصيل تناقش لاحقاً، ما رأيكم بالفكرة؟

ـ مدهشة. . .

قال رمزي:

ـ ولكن يجب عرضها أولاً على أبي عبد اللّه وبقية الأخوان في الشركة. . .

ـ بالطبع. . . بالطبع. . .

قال محمد وقد اكتسى وجهه قسوة فوق قسوته، فيما أخذ الجميع يحتسون الشاي بهدوء وصمت مطبقين، فيما كانت عيونهم تقول الكثير. . .

* * *

وأخيراً ها هو في أفغانستان، أرض الجهاد، وحيث النظام الإسلامي الوحيد في العالم. هنا يحكم طلبة العلم بشريعة الرب، ولا يحركون ساكناً إلا برضا العلماء الربانيين، وليس علماء السلاطين ومشايخهم الذي انتشروا كالوباء في كل بلاد الإسلام، فكانوا وبالاً عليه. باعوا دينهم بدنياهم، وقبلوا الدنية بدينهم. هنا يحكم الإسلام، وهنا سوف يعود الإسلام للسيطرة على عالم عاد إلى الجاهلية الأولى،

بعد أن تمتع للحظات بإشراقة نور الإسلام. من هنا سوف يعود خالد بن الوليد وصلاح الدين وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن عبادة وابن الخطاب، بل من هنا سوف يعود زمن الغزوات والجهاد الذي أغفله المسلمون فأغفلهم الزمن، تركوا الجهاد فتركهم المجد والسؤدد... هنا المدينة الجديدة، ومنها سوف يتحرر العالم من رق العبودية لغير الله، ويسقط الطواغيت والأوثان في كل مكان.

كان يحس بشيء عظيم يملأ صدره لا يعرف كنهه، ولا يستطيع له تحديداً. شيء عظيم وكبير وجميل لم يجربه قبلاً، وهو يرى الأرض التي سينبثق منها نور الإسلام من جديد. ها هو في أرض الشيخ أسامة، الذي ستكتحل عيناه بمرآه أخيراً، الرجل الذي قام بما لم يقم به مسلم قبله، حين أعلن الحرب على أميركا وأهلها، أساس كل بلاء في هذه الدنيا. وأرض أمير المؤمنين الملا عمر، الذي فعل ما لم يفعله أفغاني قبله، فقد أعاد أفغانستان إلى الإسلام، وهو الضعيف في مواجهة قوات أكبر منه... الله أكبر... الله أكبر... أيام بدر وأُحد والخندق قادمة، فليرتجف الأمريكان ومن خضع لهم من حكام المسلمين... بل ليرتجف كفار هذا الزمان، فمحمد لم يمت... محمد لم يمت... ها هو يُبعث من جديد في هذه الأرض المباركة.

كان يشعر بمزيج من الزهو والحماسة والفخر يملأ عليه نفسه، وكل شيء حوله منذ أن غادر الحدود الباكستانية يبدو وكأنه السحر... كل شيء ساحر، حتى تراب أفغانستان وجبالها ووديانها. ورغم أنه كان في غاية الإرهاق، إلاّ أنه لم يكن يريد أن يفوت أي منظر عن عينيه منذ أن غادروا بيشاور بعد صلاة الفجر مباشرة. هناك جبال الهندكوش بكل جلالها وجمالها، ونهر كونر يتلألأ من بعيد، وأودية سحيقة تعني الموت المؤكد فيما لو انحرفت بهم السيارة عن طريقها المتعرج، ومع

ذلك تبقى غاية في الجمال. كل شيء في أفغانستان جميل وساحر، وكأنها قطعة من الجنة سقطت إلى هذه الدنيا. ولم يكدر خاطره في هذه الرحلة إلاّ اضطرارهم لدفع «إتاوة» لرجال القبائل الأفغانية الذين كانوا يعترضون طريقهم، فإما الدفع وإما عدم المرور. استغرب هذا الأمر كثيراً، فمن المفروض أن يكون الكل هنا من المجاهدين الذين نبذوا الحياة الدنيا وطلبوا الشهادة، طمعاً لما في الجنة من نعيم مقيم، ولكن يبدو أن الملائكة لا تعيش في هذه الدنيا. تناقش مع سائق الحافلة الصغيرة التي تقله وآخرين من المجاهدين العرب، فقال له إن رجال القبائل يرون في الجهاد وتدفق المجاهدين على أفغانستان فرصة للربح، فلم يعجبه هذا الجواب، وسكت على مضض، فلا يمكن أن يكون هذا هو الحال في أرض الجهاد، لا بدَّ أن في الأمر قصة لا يعرفها. وحتى عندما مروا بجانب حقول واسعة أخبره السائق أنها حقول خشخاش، لم يصدق، وبدأ يرتاب في هوية السائق ونواياه.

كان يشعر بالملل وضياع الوقت في بيشاور، حتى أنه عبر عن ملله لرفيق رحلته الأخ أبو العباس المغربي، الذي كان يرد عليه بهدوء، ودون أن تفارق البسمة محياه:

ـ على رسلك يا أخ أبو عبد الرحمن... على رسلك، فاللّه خلق الدنيا في ستة أيام وهو القادر على خلقها بكلمة واحدة، ولكن ليعلمنا الصبر... كل شيء في وقته حلو... عليك بالصبر، فالصبر من شيم المؤمنين... ويضطر محمد للصمت مكرهاً ومرجل في داخله لا يريد التوقف عن الغليان. خمسة أيام قضاها متجولاً في بيشاور، ومتنقلاً من ندوة علمية إلى أخرى، وكم أعجبته كثرة المجاهدين في بيشاور ومن مختلف الجنسيات والألوان، كلهم حماسة للإنطلاق إلى أرض الجهاد في أفغانستان. وبمثل ما أنها مليئة بالمجاهدين، فقد كانت مليئة

بالجواسيس وعملاء المخابرات على اختلاف أنواعهم، أميركيون وبريطانيون ومصريون وسعوديون، ولذلك كان طوال الوقت حذراً في حركاته وأقواله، حتى عندما يكون في ندوة من تلك الندوات التي تُعقد في دور الضيافة المتعددة في بيشاور، كان يحاول أن لا يلفت الأنظار بأي شكل من الأشكال. وما لفت انتباهه في بيشاور كثرة جمعيات الإغاثة، وكثرة المخزون من مواد الإغاثة، بحيث إنه شعر بأن المسلمون لا زالوا بخير، وأنهم تواقون إلى عودة الإسلام ونوره، مما جعله أكثر إيماناً بالهدف الذي جعله هدف حياته، وهو الجهاد في سبيل الواحد الأحد. وقد سبق له أن رأى ما يجري في كويتا جنوباً في رحلته السابقة، وهو أكثر مما يجري في بيشاور، فزاده ذلك إيماناً على إيمان...

بعد خمسة أيام من الانتظار في دار الضيافة في بيشاور، أخبره أبو العباس بعد أن انتهوا من صلاة العشاء بأن أوان الرحيل قد أزف، وأنهم منطلقون بعد صلاة الفجر إن شاء الله، فقد جاءت التعليمات من كابول أخيراً. كاد أن يعانق أبو العباس، بل كاد يبكي، ولكنه تمالك نفسه ولم يظهر أياً من تلك المشاعر التي كانت تتأجج في صدره، وبدا وكأن الأمر لا يهمه...

* * *

قبيل العصر بقليل، كانوا قد وصلوا إلى معبر «ميرم شاه»، وهي قرية لا تبعد كثيراً عن الحدود الباكستانية، واتجهوا مباشرة إلى مضافة المجاهدين العرب هناك، حيث أخذوا قسطاً من الراحة، وباتوا ليلتهم. بعد صلاة الفجر مباشرة واصلوا رحلتهم، وبعد سفر مضن وطويل، بدأت مباني قندهار الطينية المتواضعة تظهر في الأفق، ولم يلبثوا أن

دخلوا أجمل مدينة رآها في حياته، حيث كل شيء يوحي بأنهم في مدينة الرسول أيام مجد الإسلام. كان مستغرباً من ذهابهم إلى قندهار، فقد كان المفروض أن يذهبوا إلى جلال أباد أولاً ثم كابول، أو هكذا كان يتوقع، ولذلك انطلقوا من بيشاور عبر منفذ ميرام شاه، وإلاّ فإن الإنطلاق من «كويتا» ثم معبر «شمن» كان أفضل طالما أن الهدف هو قندهار. حاول أن يسأل مرافقه عن الأمر، ولكن الإجابة كانت هزة من الرأس والسبابة معاً، أي لا تسأل.

في قندهار توجهوا إلى دار ضيافة الغمد، وهناك كان زياد الذي سبقه في الحضور، وثلاثة من السعوديين يراهم لأول مرة: الأخ خالد (سنان)، والأخ نواف (أبو ربيعة المكي)، والأخ عبد العزيز (أبو العباس الجنوبي). وبعد عدة أيام من وصول محمد إلى قندهار، جاء مروان ورمزي، ثم غادر الجميع إلى جلال أباد، دون أن يعرفوا لماذا جاؤوا إلى قندهار أولاً، وقد كانوا على مقربة من جلال أباد حين انطلقوا من بيشاور. لا بدّ أن ذلك كان لأمر غاية في الأهمية، ولكنهم لا يدرون.

وكانت أولى المفاجآت أنهم لم يدخلوا جلال أباد، فعندما لم يبقَ إلاّ ميلاً أو بعض الميل، انحرفت السيارة باتجاه الشمال الشرقي من المدينة وسط استغراب محمد، فلم يتمالك نفسه من السؤال:

ـ ألسنا ذاهبون إلى جلال آباد؟

ابتسم أبو العباس وهو يقول:

ـ هذه أولى المفاجآت... كلا... نحن ذاهبون إلى قرية على بعد ستة أميال منها تُدعى دارونتا... قرية في غاية الجمال، تقع على ضفة نهر دارونتا، وماء لم تعرف الدنيا صفاءً بصفائه...

ـ وهل سيكون الشيخان الفاضلان هناك؟

تساءل محمد، فهو لا يحب المفاجآت بطبعه...

ـ قلت لك، كل شيء في وقته حلو... ليس لك أن تسأل أسئلة كهذه...

وساد الصمت ركاب السيارة، فيما كانت السيارة تثير الكثير من الغبار الأصفر وراءها، وهي تتعثر بين الأحجار والحفر التي ملأت الطريق. كان حريصاً كل الحرص على مقابلة الشيخ أبو عبد الله، أو الدكتور أيمن، أو الشيخ أبو حفص المصري، وذلك لعرض فكرته حول طريقة وكيفية تنفيذ العملية الإستشهادية ضد طاغوت العصر، أميركا. فمنذ عدة أشهر كان هناك اتفاق على ضرب أميركا في عقر دارها، ولكن كيفية تنفيذ ذلك لم تتحدد بعد. ومنذ أن سمع بخبر سقوط الطائرة المصرية في مياه المحيط، كانت تدور في رأسه فكرة لكيفية تنفيذ العملية عن طريق استخدام الطائرات في ضرب أهداف معينة داخل أميركا، دون حاجة لاستخدام متفجرات أو غيرها، فالطائرة نفسها هي القنبلة الأضخم...

ترجل المسافرون أمام بيت طيني متواضع في القرية، وكان هناك من ينتظرهم ومعه مجموعة من الحمير القوية، لم يلبث أن امتطى أبو العباس أحدهما، وأمر الآخرين بالركوب على الحمير الباقية. أراد أن يسأله ما الحكاية، ولكنه صمت وقد كادت الكلمات أن تفلت منه، فالسؤال ممنوع، وكل شيء يحيطه السحر والطلاسم والمفاجآت. سار أبو العباس يتبعه الجميع في طريق وعرة ومتعرجة، وهم يصعدون تلة تشرف على القرية إشرافاً تاماً. وبعد ما يقارب الساعتين من الصعود، وصلوا إلى قرية تكاد تكون أكبر من القرية التي تشرف عليها، تتكون من عدد كبير من البيوت الطينية الصغيرة التي هي أشبه ما تكون

بصناديق طينية متلاصقة، تحيط بها الجبال من كل ناحية، فيما كان رجال يحملون الرشاشات يذهبون ويجيئون، ومن بعيد كان يسمع أصوات انفجارات متفرقة، بالإضافة إلى صيحات الله أكبر كل حين.

ترجل أبو العباس أمام أحد تلك البيوت، وتجمع حوله بعض الرجال وهم يرحبون به ويهنئونه على سلامة الوصول، ثم يتجهون إلى المجموعة وهم يرحبون بالمجاهدين الجدد ويدعونهم بكنياتهم التي اختاروها. أحس الجميع بالالفة سريعاً بين هؤلاء المسلمين الحقيقيين، وشعروا بأنهم يعرفونهم منذ زمن بعيد، وهم فعلاً يعرفونهم منذ زمن بعيد، فالمؤمنون أخوة منذ الأزل وإلى الأبد. أخذ محمد يتأمل المكان من حوله، ويملأ رئتيه بهواء عليل فقده منذ أزمان وأزمان، فيما كان أبو العباس يتناقش في بعض الأمور مع الرجال من حوله. غاب مع نفسه للحظات وهو يتأمل السماء الزرقاء المموشة ببعض الغيوم البيضاء، ومن بعيد كانت الجبال تبدو وكأنها تريد عناق السماء.

ـ ما الأمر يا أخ أبو عبد الرحمن؟ ماذا تتأمل؟ أرجو ألا تقلل من شأن المكان، فأنت قادم من أوروبا... من هنا سوف يعود الإسلام إلى مجده... وسيسود كل مدن أوروبا وأميركا...

ثم وهو يشير إلى منطقة الجبال البعيدة:

ـ هناك تقع جبال تورا بورا، أو الغبار الأسود بالعربي، وجبال ميلاوا... ملاذنا حين تسوء الأحوال... وهي لن تسوء إن شاء الله... لقد قمنا، وبجهود من الشيخ أسامة حفظه الله، بشق الطرق التي نستطيع من خلالها الوصول إلى أعماق الكهوف في تلك الجبال، وهناك من المجاهدين من يقيم في تلك الكهوف الآن ويجعلها جاهزة دائماً... جزى الله الشيخ عن الإسلام والمسلمين كل خير...

كان المتحدث شخصاً لم ينتبه محمد لحضوره المفاجىء، فقدمه أبو العباس على أنه أبو معاذ الأنصاري، أمير المعكسر. حيا أبو معاذ الجميع وهو يقول:

ـ تفضلوا إلى داركم يا أخوان... أم تحتاجون إلى دعوة؟

ابتسم محمد وهو يسير إلى جانب أبو معاذ، ويدخلون غرفاً محفورة في جوف الأرض، بتهوية من الأعلى يسمونها الخنادق، وهي خنادق معدة لسكنى المجاهدين. كان كل خندق يتسع لعشرة من المجاهدين على الأقل. لم يكن هناك أحد غيرهم عندما دخلوا، فدل الأخ أبو معاذ الساكنين الجدد إلى فرشهم، ثم غاب قليلاً، وعاد وهو يحمل بعض الأشياء التي سلمها لمحمد وبقية المجموعة وهو يقول، دون أن تفارق البسمة محياه:

ـ إليكم... هذا ما تحتاجون إليه في الوقت الحاضر... جلباب إسلامي، أم ظننتم أنكم ستبقون بملابس المخنثين هذه إلى الأبد...

وضحك باقتضاب وهو يقول ذلك:

ـ وأحذية قد لا تكون أنيقة في هامبورغ، ولكنها أجدر بالمجاهدين...

ثم بزهو وقد التمعت عيناه:

ـ وهذا رشاش كلاشينكوف... صناعة ملحدين، ولكنه سيرتد إلى صدورهم وصدور الكافرين من اليهود والنصارى إن شاء الله...

ثم وهو يبتسم ابتسامة غامضة:

ـ كان من المفروض أن تذهبوا بأنفسكم إلى مستودع التموين لتتسلموا حاجتكم بأنفسكم، ولكنكم ضيوف أبو عبد الله أدامه الله، ويبدو أن لكم مكانة خاصة عنده....

لم يكترث محمد كثيراً بنبرة الغيرة التي كانت واضحة في صوت أبو معاذ، فقد كان مشغولاً بتفقد السلاح الذي تمسكه يداه لأول مرة في حياته. أمسك محمد بالرشاش وأخذ يقلبه يمنة ويسرة بفرح أشبه بفرح طفل تلقى لعبة جديدة بعد طول حرمان، ثم وهو يقبله كما يقبل حبيب حبيبته:

ـ نعم... هذا هو ما نحتاج إليه...

وألقى إليه أبو معاذ بمشط معبأ بالرصاص وهو يقول:

ـ لتكن كل رصاصة في صدر عدو من أعداء الله...

وتبادلا النظرات التي تغني عن كل حديث، ثم أخرج أبو معاذ من جيب جلبابه الأفغاني الفضفاض، مجموعة من الأوراق وزعها على الحاضرين وهو يقول:

ـ هذه تعليمات المعسكر وعليكم الالتزام بها حرفياً، وسوف تغنيكم عن أي سؤال يمكن أن يخطر ببالكم...

ثم وهو يتجه إلى باب الخروج ويقول ضاحكاً:

ـ لا تعتقدوا أنكم وحيدون في هذا القصر الفخم... أخوان لكم من المجاهدين سوف يكونون أخوانكم هنا... الخصوصية الغربية شيء لا نعترف به هنا...

ثم وهو يقطع ضحكه:

ـ كل وجباتنا جماعية... الإفطار بعد تدريبات الصباح التي تبدأ بعد صلاة الفجر مباشرة... الغداء، بعد صلاة الظهر... العشاء، بعد صلاة المغرب... كل الوجبات في دار الضيافة، لن تتوهون عنها... ستجدون كل شيء في الأوراق التي معكم...

ثم وهو يضحك بصخب من جديد:

ـ أما خدمات الغرف... فلا وجود لها هنا...

وغادر وهو مستمر في ضحكه...

غاب أبو معاذ لدقائق، ثم عاد ومعه مجموعة من الكتب الصفراء وزعها عليهم وهو يقول:

ـ ستجدون في هذا الكتاب شرحاً لكافة أنواع الأسلحة، وكيفية استخدامه وتفكيكها وتركيبها، من أصغر رصاصة، وحتى المدافع المضادة للطائرات... عليكم بالعافية...

قال ذلك وهو يطلق واحدة من ضحكاته التي بدأت تستفز محمد والمجموعة. أغمض عينيه لفترة طويلة وهو يستنشق هواء ظن أنه قادم من الجنة نفسها، ثم استلقى على فراشه وأخذ يقرأ التعليمات:

أخي المجاهد... هذه تعليمات وضوابط نطلب منك الالتزام بها

١ ـ السمع والطاعة في المنشط والحركة وعلى أثره عليك.

٢ ـ الالتزام ببرنامج المعسكر جملة وتفصيلا في جميع جزئياته.

٣ ـ يمنع التحدث والتناقش في المسائل الخلافية على جميع أقسامها وأنواعها كما يمنع نقد أي جماعة أو تنظيم أو فئة محسوبة على الإسلام أو أفراد من علماء ومفكرين وقادة وسياسيين. ومن كان له علم يستطيع به إحقاق حق أو إبطال باطل بالدليل الشرعي الصحيح فيمكنه ذلك بعد التنسيق مع الإدارة وهو مشكور على هذا.

٤ ـ ممنوع الخروج خارج حدود المعسكر إلاّ بعد الاستئذان.

٥ ـ ممنوع دخول الأماكن الممنوعة التي لا تخصك: الإدارة ـ المطبخ ـ المخازن.

٦ ـ عدم إعطاء أي دروس أو موعظ عامة إلاّ بعد الترتيب مع الإدارة مسبقاً.

٧ ـ تنظيم مكان نومك ومقر إقامتك وتنظيف معسكرك والاعتناء بالمظهر العام.

٨ ـ الاعتناء بالممتلكات العامة لمعسكرك وعدم الإسراف في استعمال ما هو متاح من إمكانيات.

٩ ـ لا تروع أخاك ولا تساعد عليه الشيطان ولا تحاول إيقاعه في الخطأ.

٢٠ ـ التعاون مع إخوانك في أداء الواجبات والإتيان بالطاعات والابتعاد عن السيئات وحسن التعامل معهم.

١١ ـ أداء الصلوات الخمس مع الجماعة في المسجد.

١٢ ـ كتابة جميع الدروس الشرعية والعسكرية.

١٣ ـ حسن النصح للإدارة ولإخوانك المتدربين.

١٤ ـ عدم الاحتكاك أو التعامل مع العمال الأفغان.

١٥ ـ لا تأخذ أغراض المعسكر أو إخوانك إلاّ بعد الاستئذان.

١٦ ـ الاهتمام برفع مستواك الإيماني بكثرة الطاعات والابتعاد عن السيئات دونما إخلال بالواجبات.

١٧ ـ لا تعبث بالذخيرة أو الأسلحة أو المتفجرات أو أي شيء لا تعرفه.

١٨ ـ الحراسة عبادة ومسؤولية فاحرص على أدائها على أفضل وجه ممكن.

١٩ ـ إن عدم تقيدك بأي بند من بنود لائحة المعسكر ستعزز عليه وقد

يصل ذلك إلى الإعفاء من التدريب.

وفقنا الله وإياك إلى ما يحبه ويرضاه.

الإدارة

ثم تناول الكتاب الأصفر، وأخذ يقلب صفحاته، وكانت عيناه قد أغفتا قبل أن يكمل تشريح الرصاصة، وغاب في نوم عميق...

* * *

مرت الأشهر الثلاثة التي قضاها وأخوته من هامبورغ وغيرها في معسكرات التدريب وكأنها حلم من الأحلام، انتقل خلالها من معسكر إلى معسكر في كل أنحاء أفغانستان، من قندهار إلى خوست إلى جلال أباد. تدرب في معسكرات الخلافة وصدى والفاروق والفتح والصديق وخلدن وقبا، حتى انتهى به المطاف إلى معسكر «الفاروق» في منطقة جلال أباد، أو معسكر الصفوة من القاعدة. لم يشعر بالسعادة في حياته كما شعر بها في معسكرات المجاهدين في جلال آباد وخوست وقندهار وكابل. تدرب على كيفية إطلاق النار، وكيفية فك الرشاش وإعادة تركيبه من جديد. تعلم كيف يزحف على بطنه بسرعة وهو يحمل سلاحه، وكيف يجتاز حلقات النار. تعلم كيف يلقي القنبلة اليدوية، وكيف يمارس القتال بالسلاح الأبيض، وكيف يستخدم عضلاته المجردة في صرع الخصم باستخدام طريقة الكاراتيه. تعلم كيف يستخدم الكاتيوشا وأر بي جي والكلاشينكوف والسيمينوف والكلاكوف والإم سيكستين ومسدسات الميكروف بكل أنواعها، وكيف يصنع المتفجرات ويشركها، وكيف يقوم بعملية اغتيال ناجحة، ونقاط الضعف في مختلف الطائرات الحربية المغيرة، والدبابات الغازية. تعلم كيف يمكن أن يكتشف الجاسوس والدخيل، وكيف يستخدم شفرة

الإرسال ويفكها. أشياء كثيرة تعلمها في أفغانستان ما كان ليتعلمها لو بقي حياته كلها يتعلم. كان في غاية السعادة، وخاصة في تلك اللحظات التي كانوا يجربون فيها أثر متفجرات يعدها الأخوان في معامل المعسكر. بل إنه شهد كيفية التعرف على الجواسيس والعملاء بشكل عملي، وكيف يقوم المجاهدون بالتخلص من هؤلاء.

فذات يوم وفد إلى المعسكر شاب عربي من أجل التدريب والجهاد في سبيل الله. كان من ضمن المعلومات التي قدمها أنه لا يعرف القراءة والكتابة، ولكن بعد عدة أيام من مجيئه، ضبط وهو يقلب صفحات كتاب بعيداً عن الأعين. أيقن الأخوة أن هذا الشاب عميل لجهة ما، فقرروا التخلص منه. وفي أحد الأيام التي كان فيها التدريب على الذخيرة الحية، طاشت رصاصة، واستقرت في رأس الشاب، فمات من فوره. لم يستطيعوا تحديد مصدر الرصاصة الطائشة، فعُد الشاب من الشهداء الذين يزفون إلى الجنة. كان الكل يعلم أن الرصاصة لم تكن طائشة، وأن الحادث لم يكن حادثاً، بل هو عملية إعدام لجاسوس. لم يكن لدى محمد أدنى شك في كون الشاب جاسوساً، وهو ذو الطبيعة الشكاكة أصلاً، والأخوان لا يمكن أن يكونوا من المخطئين، ولكن بقي شيء في داخله يعذبه، ولم يستطع كتمانه طويلاً، فلم يجد بداً من الافصاح عنه لأمير المعسكر. وفي ذات ليلة، وبعد أن انتهوا من طعام العشاء، اختلى بالأمير، وقال له بعد تردد:

ـ هناك شيء يحيرني يا أبا معاذ، ولا أدري كيف أفصح عنه...

قل يا أبا عبد الرحمن...

ـ هل أنتم متأكدون من الشخص الذي أعدم كان جاسوساً؟

ـ ألديك شك في ذلك؟

ـ لا أخفيك... نعم... أما كان الأجدر التحقق من الأمر؟ ربما كان ذلك الشخص لا يقرأ ولكنه يتفرج على الصور، أو يقلب صفحات الكتاب فقط...

ضحك أبو معاذ وهو يقول:

ـ يبدو أن قلوبكم رقيقة يا أهل أوروبا...

ثم وهو يعبس ويقطب جبينه:

ـ نحن محاطون بالأعداء يا أبا عبد الرحمن... غلطة بسيطة قد تكلفنا الكثير، ولا نريد أن نعيش في ظلال الشك...

ثم وهو يقبض على رشاشه بقوة، وعيناه في عيني محمد مباشرة:

ـ وحتى لو لم يكن جاسوساً، فليس لدينا الوقت للتحقق... موت فرد من أجل الجماعة جائز شرعاً... فإن كان بريئاً، فقد استشهد وهو في جنات الخلد الآن، وإن كان جاسوساً، فقد لقي جزاؤه، وهو في النار وبئس القرار الآن...

ـ أما كان من الممكن أن يُطرد وحسب؟

ـ ونعيش في ظلال الشك... كلا يا أبا عبد الرحمن...

ثم وهو يضع يده على منكب محمد:

ـ قضيتنا تحتاج إلى رجال... إلى رجال... هل فهمت؟

وهز محمد رأسه بالموافقة، فيما كان أبو معاذ لا يزال قابضاً على منكبه بقوة...

* * *

كانوا يتجمعون بعد صلاة عصر كل يوم في البرية المحيطة

بالمعسكر، ويربطون أحزمة المتفجرات حول بطون تلك الكلاب الضالة، التي كانوا يسمونها اليهود والنصارى، والتي كان الصبية الأفغان يجمعونها من القرية وما حولها لقاء بضع دريهمات، ويصيحون بالتكبير وصيحات النصر وهم يرونها تتمزق اشلاءً بعد أن يضغط أحدهم على زر «الريموت كونترول» لتلك المتفجرات. كان يشعر بسعادة غامرة وهو يرى الأحشاء الممزقة متناثرة في كل مكان، ويتصور أن كل كلاب من هذه الكلاب هو أميركي أو غربي. وأحياناً، حين لا يستطيع صبية القرية العثور على كلاب ضالة، كانوا يخرجون إلى البرية، فيصطادون الأرانب حية لربط المتفجرات على بطونها. أما ما كان يسعده أكثر، فهو عندما يأتي دوره في الحراسة الليلية، حيث ينفرد بالسماء الصافية ونجومها، وبصره معلق بالأعلى، ولا يخرجه من تأمله إلاّ صوت الحارس الجوال وهو يصيح «اللّه أكبر»، فيرد عليه «اللّه أكبر»، فيعرف الحارس الجوال أنه في موقعه. وكم كان يشعر بالحماسة والفخر وهو يسمع المتدربين صفوفاً متراصة وهم ينشدون:

أنا من جنود اللّه حزب محمد

وبغير هدى محمد لا أهتدي

حاشاي أن أصغي لدعوة ملحد

وأنا فتى القرآن وابن المسجد

ولكن رغم كل هذه السعادة التي يجد نفسه فيها، إلاّ أنه ما زال قلقاً ومترقباً... متى يرى الشيخ؟ الجزء الأكبر من رحلته هذه هو لرؤية الشيخ، ولكن لا أحد يريد التحدث إليه في هذا الموضوع، وهو يعلم أنه ممنوع عليه أن يخوض فيه.

وذات يوم، وبعد أن انتهى التدريب بعدة أيام، أتاه الأخ وحش

الجهاد، أمير المعسكر الذي انتقل إليه مؤخراً، بعد صلاة الفجر وقال له:

ـ استعد يا أبا عبد الرحمن... فستسافر اليوم إلى قندهار...

أخذ قلبه في الوجيب الشديد، وبدأ جسده في الارتعاش رغم محاولته السيطرة عليه، فليس إلاّ معنى واحد للسفر هو رؤية أبي عبد الله، ولكنه أراد أن يطمئن قلبه فقال متصنعاً التعجب:

ـ قندهار! لماذا؟

فنظر إليه الأمير وهو يبتسم قائلاً:

ـ وكأنك لا تدري! لتقابل الشيخ أسامة حفظه الله، فهو ينتظرك بعد صلاة عشاء هذا اليوم إن شاء الله... واعمل حسابك... لن تمكث في قندهار إلاّ الليلة وغداً تعود إلى باكستان، ومنها إلى ألمانيا... الجهاد يحتاجكم هناك لا هنا...

عاد إلى السكن وجمع حاجياته القليلة من ملابس داخلية وقميص وبنطال ومجموعة من المساويك، وجلس بانتظار الأمر بالرحيل على أحر من الجمر...

* * *

لم يكن في عمره كله ساعات أطول من تلك الساعات التي استغرقتها الرحلة إلى قندهار، ولا من تلك الساعات التي قضاها في مضافة بيت الغمد بانتظار حلول الظلام. كان يحس بأنه أب في انتظار وليده الذي أزفت ساعة مجيئه. بعد صلاة العشاء مباشرة، أتاه الأخ عكرمة، المرافق له في الرحلة من جلال أباد، مخبراً إياه أن الموعد قد أزف. وصلوا إلى منطقة مطار قندهار، وغير بعيد عنه كانت تقبع مزارع

«ترنك» حيث يقيم الشيخ أسامة. مجموعة من مباني الأسمنت والطين تقارب الثمانين منزلاً، يحيط بها سور بارتفاع عشرة أقدام، محاطة بحراسة مشددة. وبعد أن دخلت السيارة إلى المزارع، اتجهت إلى بيت يتوسطها، أنيق المظهر، بسيط التكوين، يحيط به سور عال، دون أن يكون هناك ما يميزه عن بقية البيوت القليلة في المنطقة، إلاّ مساحته الكبيرة وارتفاع أسواره، دون أن يكون هناك أي وجود للحرس. أشار عكرمة بنور السيارة إشارتين فما لبث الباب أن فتح فتحة صغيرة أطل منها مسلح ملثم، يرتدي ملابس سوداء، ثم ما لبث أن فُتح الباب على مصراعيه. دلفت السيارة التي يقودها عكرمة ومعه محمد إلى الداخل، حتى وقفت بجانب فيلا أنيقة، وإن كانت بسيطة، وترجل الاثنان إلى داخلها، حيث قاد عكرمة محمد إلى غرفة واسعة مفروشة بالسجاد، اصطفت المساند المحشوة بالقش على جنبانها. طلب عكرمة من محمد أن يجلس، ثم خرج. بعد قليل أتاه خادم أفغاني يحمل صينية شاي وضعها أمامه ثم انصرف بهدوء.

ومر وقت خاله محمد دهراً، ثم بدأت أصوات ضحكات خافتة تصل إليه، ثم أطل أبو عبد اللّه وابتسامة عريضة تحتل كل وجهه، ثم تبعه الدكتور أيمن الظواهري فأبي حفص المصري، ورجل رابع بدين لم يعرفه محمد، وأخيراً شابان ملثمان يحملان الكلاشينكوف على كتفيهما. هب محمد واقفاً لدى رؤيته الشيخ، الذي عانقه بحرارة ثم قدم إليه مرافقيه الذين يعرفهم محمد جيداً، إلاّ ذاك البدين الذي عرف لاحقاً أنه خالد شيخ، مسؤول العمليات الخارجية في القاعدة. جلس الجميع فيما بقي الملثمان واقفين غير بعيد عن الباب. كان محمد مضطرباً لا يدري ما يقول في حضرة الشيخ، الذي لاحظ اضطرابه، فقال له مهدئاً:

ـ على رسلك يا بني. . . هدئ من روعك. . . فما نحن إلاّ أخوة في دين الله. . .

وبعد أن شرب محمد بعض الشاي، وبدأ يستعيد رباطة جأشه، بدأ الحديث متلعثماً بعض الشيء:

ـ إنه لشرف عظيم لي يا أبا عبد الله أن أجلس وإياك في مكان واحد. . .

ضحك أسامة باقتضاب وقال بصوته الخافت:

ـ جمعنا الله وإياكم في جنات النعيم يا أخ محمد. . . صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير الأجناد جند مصر، فهم في رباط إلى يوم الدين»، أو كما قال رسول الله. . . أنت يا أخ محمد من هذه الأجناد. . . أنت من أرض الكنانة حفظها الله، وطهرها من الكفر ورجس الكافرين. . . هي أطهر بقاع الأرض بعد بلاد الحرمين وفلسطين، طهرهما الله من الكفرة والمشركين. . . وكما ترى، فإن الأغلبية هنا من المصريين. . . قال ذلك وهو يشير إلى الدكتور أيمن وأبو حفص، ويضحك باقتضاب واضعاً كفه على فمه. وصمت أبو عبد الله لبرهة ارتشف خلالها بعض الشاي المنعنع، قبل أن يقول:

ـ علمت يا أخ محمد أن في رأسك فكرة تهز بها عرش شيطان هذا العصر وحضارته المادية. . .

صمت أبو عبد الله وهو ينظر إلى محمد وكأنه يقول له: «إلينا بها». وبدأ محمد في شرح فكرته، وكل الأعين مصوبة إليه تكاد تلتهمه وهو ماض في شرحه بحماسة غير خافية. وبعد أن انتهى، كان العرق الغزير يتصبب على جبهته، فيما فرض الصمت حكمه على الجميع. فرض الصمت حكمه لبضع دقائق، بعدها أخذ الجميع يتبادلون

النظرات، حتى قطع الدكتور أيمن الصمت قائلاً:

ـ فكرة في غاية الروعة... وبتوفيق من الله سوف تهز عرش أعداء الإسلام... يا الله... تصور يا شيخ أسامة، طائرة بوينغ تصطدم ببرج التجارة العالمي... رمز الجبروت الأميركي... حدث لا يقل عن حطين أو عين جالوت... سوف يتذكره العالم إلى أبد الأبدين، ويعلم أن المسلمين ليسوا من الضعف كما ظنوا...

ابتسم الشيخ أسامة وهو يهز برأسه ويقول:

ـ أتذكر يا شيخ أيمن الرؤيا التي قصصتها عليك قبل حين؟

ـ أي رؤيا يا شيخ أسامة؟

ـ ما أسرع ما تنسى يا شيخ أيمن؟ ألعلك طعنت في السن؟

قال الشيخ أسامة ذلك وهو يضحك باقتضاب، مغطياً فاه بكفه، فيما شاركه الآخرون الضحك، ورد الظواهري وهو لا يزال يضحك:

ـ طعنت في السن! إني أبحث عن زوجة جديدة، فهل ترى الطاعن في السن يبحث عن زوجة؟

وضحك الحضور مرة أخرى، فيما الشيخ أسامة يشير بيده طالباً الصمت، قبل أن يكمل حديثه:

ـ ألم أقل لك يا شيخ أيمن أني رأيت فيما يرى النائم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو يخطب بالناس من على منبره، وكأن الوحي ينزل عليه وهو يقول للناس: «لقد أذن ربي بهلاك أميركا»...

ـ الله أكبر، والعزة لله ورسوله ودينه وأتباعه، والهلاك لأعدائه ومن والاهم... بارك الله فيك يا شيخ أسامة...

قال أيمن:

ـ تذكرت الآن... رؤيا حق إن شاء الله... هذه من المبشرات بالنصر... وقد حدثني بعض الأخوان أنهم رأوا رؤى مماثلة...

وتنحنح أيمن قبل أن يقول:

ـ قبل مدة، حدثني الأخ أبو بصير الأنصاري أنه رأى فيما يرى النائم أنه واقف على شاطئ المحيط ينظر إلى أميركا، فإذا بها تنفصل عن بقية القارة، ثم تبدأ في الغرق، حتى أنه رأى ناطحات سحابها وهي تختفي تحت الماء...

ـ الله أكبر...

صاح أحد الحاضرين، فيما واصل الدكتور أيمن:

ـ وحدثني الأخ أبو قتادة المكي أنه رأى فيما يرى النائم، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد ذهب إلى أميركا، فوضع يده تحتها، ثم رفعها حتى كادت تعانق السماء، ثم جعل عاليها سافلها، وألقى بها في مياه محيط يغلي، وعندما أفاق من نومه، كان المؤذن يدعو إلى صلاة الفجر...

ـ الله أكبر...

ـ وحدثني الأخ المجاهد أبو عبادة المدني أنه رأى فيما يرى النائم، طيوراً أبابيل تقذف أميركا بحجارة من نار، وكانت أميركا تحترق، حتى غدت رماداً...

ثم وهو يضحك باقتضاب:

ـ أما الحلم الذي توقفت عنده طويلاً، فهو حلم أخينا أبو أحمد المغربي... فقد حدثني بأنه رأى فيما يرى النائم ورقة مكتوب عليها أميركا، ثم أتى أسامة بن لادن وقصها إلى سبع قطع، فاستولت كندا على واحدة، والمكسيك على واحدة، وغرقت البقية في البحر...

ـ اللّه أكبر. . . اللّه أكبر. . . اللهم اجعلنا شوكة في حلوقهم، وسبباً في هلاكهم. . .

صاح أسامة، خارجاً عن هدوئه المعتاد، فيما كان أيمن ينظر إليه، وظل ابتسامة لا يكاد يبين، يلوح على جانب فيه. ثم قال أبو حفص:

ـ يقول ابن القيم رحمه اللّه: «إذا تواطأت رؤى المسلمين لم تكذب»، ويقول ابن تيمية، رحمه اللّه: «الأحداث الكبيرة يسبقها رؤى كثيرة». . .

ـ بشرك اللّه بالخير يا أبا حفص. . . واللّه إنه لشيء يفرح قلب المؤمن، ويشجع المسلم على العمل لنصرة دين اللّه. . .

ـ اللهم عليك بأميركا وإسرائيل وكل من أراد بالمسلمين شراً. . . زلزل الأرض من تحتهم، وفرق شملهم، وشتتهم بدداً، ولا تبقي منهم أحداً. . .

ـ اللهم أمين. . . اللهم أمين. . .

ردد الحاضرون وقد أصبحوا على يقين بالنصر القريب بعد كل هذه المبشرات. وتذكر محمد أن مروان كان قبل فترة قد أخبره برؤيا رآها. فقد رأى أنه يطير في السماء مع طيور كبيرة خضراء اللون، ويرتطم بالأشياء. وعندما سأله محمد عن تلك الأشياء، قال إنها مجرد أشياء لا معالم لها. قص رؤيا مروان على الحاضرين، الذين كبروا وقد اشتعلوا حماسة وأيقنوا أن اللّه يأمرهم بغزو أميركا في عقر دارها، وأنه لهم من الناصرين. . .

ـ كنا قد فكرنا قبل ذلك بأن نقوم بعملية جوية داخل أميركا باستخدام الطائرات المحملة بالمتفجرات، وكان الفضل في ذلك بعد اللّه للأخ خالد، ولكن أن تكون الطائرة نفسها هي السلاح. . . تلك

فكرة لم تخطر على البال، ولن تخطر على بال أعداء الله... بارك الله فيك يا أخ محمد... بارك الله فيك...

وأمن الجميع على كلام أبو عبد الله، فيما كان خالد متجهم الوجه، وقد زاغت نظراته وكأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكن صوت أسامة الرقيق جاء موقفاً إياه عن الحديث المزمع:

ـ ولكن كيف يمكن تنفيذ مثل هذه العملية؟

ـ دع عنك ذلك يا أبا عبد الله...

قال خالد الذي وجدها فرصة للتعبير عما في نفسه:

ـ سوف ندرس المسألة ونحدد كافة التفاصيل...

وابتسم الشيخ أسامة وهو يقول، موجهاً الحديث لخالد:

ـ بارك الله فيك يا خالد... ولكني أرى أن العملية أكبر من أن تنفرد بها وحدك...

بان الامتعاض على وجه خالد، ولكنه كظم غيظه، فيما كانت البسمة تعلو وجوه الجميع وهم يرتشفون الشاي المنعنع، ويسود صمت حذر. كان خالد يرى أنه أهم عضو في القاعدة، وأنه لم يُمنح الفرصة كاملة لإثبات قدراته، ولأجل ذلك كان يشعر بالغيرة من تقريب أسامة لأبي حفص فيما هو أقدر منه. لذلك استغل هذه الفرصة ليقول:

ـ بارك الله فيك يا أبا عبد الله... امنحني الفرصة وسترى ما يسرك ويغيظ أعداء الإسلام... ألست أنا من خطط لتفجير اثنا عشر طائرة أميركية فوق مياه المحيط الهادئ أو كما يسمونه «مشروع برينكا»؟

وهز أسامة رأسه موافقاً:

ـ أو لست أنا من كان سيقوم بقتل اليهودي مائير كاهنا عندما كنت طالباً في أميركا؟

وهز أسامة رأسه موافقاً، فيما واصل خالد استعراض قدراته قائلاً بحماسة، وهو يتنفس بسرعة، والعرق يتصبب على جبينه:

ـ فلماذا لا أكون مسؤولاً عن هذه الغزوة إذاً؟

وساد صمت قطعه أسامة قائلاً:

ـ ونعم المجاهد أنت يا أخ خالد... فماذا تقترح؟

ـ أقترح أن نضرب البيت الأسود بطائرة مليئة بالوقود والمتفجرات...

وضحك أسامة وهو يمسد لحيته ويقول:

ـ ألم أقل لك أن العملية يجب أن تكون كبيرة جداً... لماذا تستخدم فأساً إذا كان من الممكن أن تستخدم بلدوزراً؟

ـ ماذا تعني يا أبا عبد الله؟

ـ لماذا لا تكون عشر طائرات تصطدم بأكثر من موقع؟ تقول العامة إذا أكلت بصلاً، فأكثر... ويقول المثل إذا ضربت فأوجع...

ـ الله أكبر... الله أكبر... لقد دنت ساعتك يا أميركا...

صاح سليمان فيما كان محمد ينظر إلى الشيخ أسامة بإعجاب ووله، كما المتيم وهو ينظر إلى حبيبته، في الوقت الذي كانت فيه سحنة خالد تتحول إلى امتعاض أشبه ما يكون بمن شرب عصير ليمون صاف...

ـ ولتكن أنت المسؤول عن الغزوة يا خالد... ولتنسق مع الأخ محمد، وبقية الجماعة في هامبورغ بالذات...

ـ أريد أن أكون أحدهم يا أبا عبد الله... سأقود إحدى الطائرات... لتكن العاشرة... فأنا في شوق لملاقاة ربي...

ـ بارك الله فيك يا أخي... ولكن لا... الجهاد يحتاجك في غير ذلك...

وأحس خالد بالارتياح، فهو لم يكن جاداً في طلبه، ولكنه كان يريد كسب ثقة أسامة. لقد كان خالد يشعر بأنه غير محبوب من المجاهدين، وبأنه غير موضع ثقة تامة من قبل قادة القاعدة، وكان هذا يؤلمه كثيراً، ويثير لديه الكثير من التساؤلات. ألكونه بلوشياً علاقة بالأمر؟ فهو كويتي المولد والنشأة، ولكنه لم يشعر أنه كويتي أو عربي في أي يوم من الأيام، الكل يعامله على أنه غير عربي، وهو الذي يحب العرب من أجل النبي الأكرم...

ـ ولكن...

قال أسامة موجهاً الحديث لخالد، بعد أن توقف لبرهة مسد فيها لحيته، فيما كانت الأعين تتابعه باهتمام:

ـ ولكن، عندما تختار منفذي الغزوة، احرص على أن يكونوا في جلهم من السعوديين... وإن أمكن، ليكونوا كلهم من السعوديين...

تبادل الحضور النظرات، وقد احتلت الدهشة والاستغراب عيونهم، قبل أن يقول أبا حفص:

ـ ولماذا السعوديين يا أبا عبد الله؟ كلنا مسلمون، لا فرق بين جنسية مصطنعة وأخرى، والكل يريد الجهاد في سبيل الله... لولا أني أعرفك، لقلت أنك تفضل قومك للذهاب إلى الجنة...

قال أبو حفص وهو يضحك باقتضاب، فيما ابتسم أسامة باقتضاب وهو ينظر إلى أبي حفص، هازاً رأسه:

ـ سامحك الله يا أخي... سامحك الله...

ـ كنت أداعبك يا أبا عبد الله، كنت أداعبك...

ـ ليس الأمر كما ذهبت يا أخي، فلدي أسبابي... لدي أسبابي... وسأشرحها لاحقاً...

قال أبو عبد الله بهدوء، فيما خيم الصمت على الجميع. ولم يقطع الصمت إلاّ وصول العشاء... طبق كبير من الأرز فوقه كتل اللحم، رصت إلى جانبه أطباق صغيرة من المرق الدسم وأرغفة الخبز الأفغاني. تناول الجميع العشاء بأصابعهم بصمت، ثم لعقوا أطراف الأصابع بعد الانتهاء، ومر عليهم الخدم الأفغانيون بأطباق الغسيل والمناشف، ثم أخذوا يرتشفون الشاي ويتحدثون بكل شيء إلاّ موضوع الغزوة المباركة...

* * *

في جلسة خاصة وضيقة، جمعت أسامة وأيمن وأبو حفص، شرح لهما لماذا يريد أن يكون كل القائمين بالغزوة من السعوديين إن أمكن ذلك:

ـ لعلك استغربت يا شيخ أيمن ويا شيخ عاطف إصراري على أن تنفذ الغزوة بواسطة سعوديين...

ـ نعم...

قال أيمن، فيما أبو حفص يهز برأسه موافقاً:

ـ لدي أسبابي... نعم... لدي أسبابي...

وصمت أسامة لبرهة وهو يمسد لحيته وينظر إلى الأرض، قبل أن يقول:

ـ أنا أكره السعودية أكثر من كرهي لأميركا نفسها... وأكره آل سعود هناك، أكثر مما أكره المغضوب عليهم من بني إسرائيل... كنت أحب السعودية في الله، والآن أكرهها في الله، الذي هو مناط حبنا

وكرهنا... أميركا غررت بنا ودعمتنا حين كنا نقاتل الملحدين من الروس، وعندما طردناهم من أفغانستان، وانهار كيانهم المزعوم، تخلوا عنا، ولكن ذلك كان متوقعاً... فهم كفرة... والكافر لا أمان له...

وصمت أسامة لبرهة أخرى قبل أن يقول:

ـ أما السعودية... أما السعودية... فقد ساندتنا ووثقنا بها... فقد كنا نعتقد أنها إنما تساندنا لوجه اللّه... فهي دولة الشرع وبلاد الحرمين، ولكن تبين أنها أرذل من أميركا في مقاصدها... فهي خاضعة وموالية بشكل كامل للولايات المتحدة، وأميركا تعتبر النظام السعودي فرع أو عميل من عملائها... وبخضوع النظام السعودي وولائه التام للنظام الأميركي، فإنه قد ارتكب إثماً عظيماً ضد الإسلام حيث استبدل حكم الناس والولاء لهم، بحكم اللّه والولاء له، وهو المفترض به أن يحكم طبقاً للشريعة الإسلامية، وهو الذي يستمد شرعية وجوده من هذه الشريعة، ومن هيمنته على أطهر بقعتين على هذه الأرض، ولا نتطرق إلى الأفعال الأخرى الخاطئة التي يرتكبها النظام، فعندما تنتهك شريعة اللّه فإن الفساد ينتشر في كل نواحي الدولة، الاقتصادية والاجتماعية وما إلى ذلك...

وهنا قاطعه أيمن قائلاً:

ـ كل ذلك مفهوم ومعروف يا أبا عبد اللّه... ولكن هذا لا يجيب عن السؤال: لماذا السعوديين، وحركتنا حركة إسلامية لا تعترف بالجنسيات؟

وابتسم أسامة بسمة غامضة قبل أن يقول:

ـ السعودية مجرد دمية في يد أميركا، وأميركا مجرد نمر من ورق منفوخ. الكل يعرف ذلك، ولكني أريد أن أثبت للعالم أن أهل الجزيرة

العربية ليسوا السعودية... السعودية ليست جزيرة العرب... سموا جزيرة العرب باسمهم، وجعلوا من الناس أتباعاً لهم... أريد أن أثبت أن أهل الجزيرة العربية ضد السعودية، ولكن الأهم من ذلك كله هو...

وصمت أسامة لبرهة، فيما كانت الأعين مترقبة ما سيقول:

ـ الأهم من ذلك كله هو ضرب التحالف القذر بين أميركا والسعودية، الذي يعاني منه المسلمون في جزيرة العرب وخارجها...

ـ كيف؟

قال عاطف وهو يمسد لحيته الطويلة، وقد جحظت عيناه باتجاه أسامة...

ـ عندما يقوم سعوديون بضرب أميركا، ستعلم السعودية أنها لم تعد وصية على من اعتبرتهم رعاياها... وستقوم بإعادة حساباتها مع هذا الحليف الذي كان مضموناً ومأموناً دائماً...

ثم وهو يضحك:

ـ مضمون ومطيع كالكلب وصاحبه...

ويضحك الجميع، قبل أن يواصل أسامة:

ـ وستنهار الثقة في قدرة النظام على الحفاظ على الأمن والاستقرار...

ثم يضع سلاحه في حجره ويقول:

ـ وبذلك ندق إسفيناً بين آل سعود ورعاياهم، وبين أميركا والسعودية... وعندما تصبح السعودية غير مأمونة، وتتخلى أميركا عن حمايتها للسعودية، فإنها ستصبح ضعيفة، وعندها يمكن القضاء

عليها... وعندما يقضى عليها، ستعود السعودية جزيرة للعرب، ويتمكن المسلمون المخلصون من حكمها... وسينتشر دين الله في جزيرة العرب من جديد، ويعود الإسلام لحكم الجزيرة، بمثل ما كان الوضع أيام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الهادين المهديين من بعده...

ـ صلى الله على سيدنا محمد وسلم...

ردد أيمن وعاطف، فيما كان أسامة يبتسم وينظر في عيني أيمن مباشرة، قبل أن يقول:

ـ وتعلمون كيف يمكن الاستفادة من بلد كالجزيرة العربية، بموقعها وثرواتها، في نشر الدين وانطلاق الجهاد... ليس هناك بلد من بلاد المسلمين يتمتع بثروات الجزيرة، وموقعها الاستراتيجي الذي اختاره الله لها، لحكمة يجب أن ندركها، وهي نشر دين الحق في العالم كله عندما تعود أيام الرسول وخلفائه الراشدون... وهي عائدة إن شاء الله... ولكن قبل ذلك، يجب أن تتخلى أميركا عن آل سعود، ويجب أن ينهار النظام السعودي الكافر، ويجب أن ينتقل الجهاد إلى قلب الجزيرة... في جدة والرياض والدمام والقصيم... ومن ناحية أخرى...

صمت أسامة لبرهة قصيرة قبل أن يقول:

ـ إن ضرب أميركا سوف يؤجج حركة الجهاد...

ثم وهو يرفع قبضته عالياً في الهواء:

ـ أقسم بالذي رفع السماء بغير عمد، ألا تنام أميركا قريرة العين...

قفز عاطف في هذه اللحظة، وقبل رأس أسامة، بينما كان أيمن

متكئاً على المسند دون أن يحرك ساكناً وهو ينظر إلى أسامة، وظل ابتسامة يلوح على فيه، قبل أن يقول:

ـ لم أكن أعرف أنك بكل هذا الدهاء يا أسامة... لم أكن أعرف...

ابتسم أسامة وهو يقول:

ـ من قرصه الداب يخاف من جرة الحبل، كما يقول المثل في جزيرة العرب... أو من لسعته الشوربة، ينفخ في الزبادي، كما تقولون في أرض الكنانة... علمتني الحياة كثيراً يا أيمن... علمتني كثيراً... وعلمني الأعداء أكثر...

قال ذلك، ثم عاد إلى نفسه، وأخذ ينظر بعيداً وهو يتحسس رشاشه كما تتحسس الأم طفلها، في الوقت الذي كان فيه أيمن ينظر إليه مبتسماً وهو يفكر... سبحان الله... أهذا هو أسامة الذي التقاه لأول مرة قبل سنوات في أرض الجهاد؟ كلا... ليس هذا هو أسامة الذي عرف قبل سنوات... فذاك كان ساذجاً... مؤمن شديد الإيمان نعم، ولكنه لم يكن قادراً على تمييز الأبيض من الأسود في السياسة... وهذا مؤمن صلب، وسياسي محنك... سبحان الله... سبحان الله وبحمده...

* * *

كان خالد في غاية الضيق بعد مقابلة الشيخ أسامة لمحمد، فقد كان يشعر أنه أُهين بشكل ما، فهو صاحب فكرة استخدام طائرات مدنية لضرب أهداف مدنية وغير مدنية في أعماق أميركا، أو «رأس الشعبان» كما يسميها الشيخ أسامة، ولكنه يسند الفضل اليوم لهذا المصري الدخيل الذي لا سابقة له في الجهاد ولا تاريخ. فمنذ نعومة

أطرافه وهو جندي من جنود اللّه، فقد التحق بالأخوان المسلمين وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وتدرب على القتال في مخيمات جهادية في صحراء الكويت وهو في تلك السن الصغيرة، ولكن لا صغير في الإسلام، ولا صغير على الجهاد. ومنذ تخرجه من «كلية شوان» في الولايات المتحدة عام ١٩٨٦، وهو مكرس وقته وماله وجهده للجهاد في سبيل اللّه. لقد أسهم في القتال ضد الروس في أفغانستان، وعمل جنباً إلى جنب مع شيخ المجاهدين عبد اللّه عزام، وجاهد في البوسنة، وهو صاحب فكرة «مؤامرة بوينكا»، كما يسميها إعلام الكفار، بتفجير عشر طائرات أميركية فوق مياه المحيط الهادي، وكان ينوي أن يقود الطائرة العاشرة بنفسه، ويحط بها في مطار أميركي حيث يقتل كل الركاب من الذكور، ثم يعلن لوسائل الإعلام أن العملية هي رد على دعم الولايات المتحدة لإسرائيل والفلبين والحكومات العربية. وهو الذي خطط مع ابن شقيقته رمزي لاغتيال الرئيس بيل كلنتون أثناء زيارته لمانيلا، وهو الذي قدم للشيخ مقترحات بعمليات جوية ضد أميركا حين التقاه في «تورا بورا»، ولكن الشيخ لم يكن متحمساً لذلك، وكل ما طلبه منه هو الانضمام إلى القاعدة، والانتقال بعائلته إلى أفغانستان، ولكنه رفض الانضمام إلى القاعدة، ورفض مبايعة أسامة، فهو يفضل أن يبقى حراً طليقاً يجاهد وفق ما يراه، لا وفق ما يحدده أسامة أو الظواهري أو عاطف، وليته بقي حراً طليقاً، لما كان مهاناً كما هو اليوم. ولكن قاتل اللّه ضيق اليد وسوء الحال، فقد وجد نفسه مجبراً في النهاية على الانخراط في القاعدة وهو غير راغب في ذلك، ولكن العمليات التي كانت في ذهنه ويريد لها أن ترى النور، ما كان لها أن تتم دون تمويل وتنظيم، وهو غير قادر على مجاراة أسامة في ذلك، فكان لا بدّ مما ليس منه بدٌ. وهو لم ينضم

إلى القاعدة وينتقل بأسرته إلى قندهار، إلاّ بعد أن وافق أسامة على فكرته بالهجوم الجوي على أميركا نفسها، بعد نجاح غزوة نيروبي ودار السلام، ولكنه لم يقبل أن يبايع أسامة أبداً، ولذلك فضل هذا المصري عليه، وبجله وهو عديم السابقة. نعم... لقد فضله أسامة عليه لأنه بايعه وهو لم يفعل، ولن يفعل، فلا فضل لأسامة عليه، وليس له سابقته وإخلاصه للجهاد في سبيل اللّه، فكل ما يتميز به عليه هو المال الذي أحنى الرقاب وذلّ الأنفس، ألاَ لعنة اللّه على المال... لعنة اللّه على المال... بل حتى أنه لم يقبل بفكرته إلاّ بضغط من مصري آخر... أبو حفص المصري... محمد عاطف... الذي جعله أسامة القائد العسكري للقاعدة، بعد غرق أبو عبيدة البنشيري في بحيرة فكتوريا، رغم أنه أقدر وأحق منه... لماذا يفضل أسامة هؤلاء المصريين عليه؟ كل المقربين إليه من المصريين واليمنيين، لماذا؟ ألأنه من أصل بلوشستاني؟ ربما... بل مؤكد... أهذا هو الإسلام يا شيخ أسامة؟ كلا... لن يبايع وإن عمل معه في سبيل اللّه ومن أجل الجهاد، لن يبايع... لن يبايع...

* * *

كان أول شيء فعله محمد عندما عاد إلى هامبورغ هو الابلاغ عن فقدان جواز سفره الذي خرج به من ألمانيا، واستخدمه في الدخول إلى أفغانستان، واستخرج جواز سفر جديد. لم يكن هناك داع لتغيير الجواز، ولكنه أراد ذلك من أجل مزيد من الحيطة والحذر، فنسل إبليس اللعين لا يؤمن لهم. وبعد حوالى الشهر من عودته من أفغانستان، وصلهم خبر بأن هنالك شخص مهم سوف يزورهم، فعليهم الاستعداد. لم يكن ذلك الشخص إلاّ الأخ خالد شيخ، الذي لم يرتح له محمد كثيراً، ولكن لا مجال للعواطف ومشاعر الارتياح في

جهادهم، المهم هو الإسلام ولا شيء غير الإسلام. طلب الأخ خالد الاجتماع بالخلية في بيت التابعين، حيث أخبر الجميع موافقة الشيخ أبو عبد الله على تنفيذ هجوم على الولايات المتحدة، وعلى الرموز التي تشكل القوة الطاغوتية الأميركية. لم يقرر شيخ بعد ما هي تلك الرموز، وترك تحديد ذلك لكم، على أن يوافق على ذلك، كما أكد على أنه سيكون هجوماً جوياً لا يستغرق تنفيذه أكثر من عشرين دقيقة، ولكن نتائجه ستتحدث عنها الركبان إلى يوم يبعثون، وسيقضي على هيبة أميركا المزيفة إلى أبد الآبدين. ثم طلب منهم البدء بطلبات الالتحاق بمدارس تعليم الطيران في الولايات المتحدة، وسيكون هناك أخوة آخرون يتدربون في الولايات المتحدة لنفس الغاية:

ـ فسنستخدم علمهم لقتلهم، وتقنينهم لتدميرهم. . .

قال خالد ذلك وهو يضحك بحبور.

كان محمد في غاية السعادة لسماع هذه الأخبار، ولكنه أحس ببعض الامتعاض من أن خالد أو الشيخ لم يذكر اسمه على أنه صاحب الاقتراح، ولكنه ابتلع مرارته وهو يقنع نفسه بأن المهم هو النتيجة وخدمة الإسلام ودمار الشيطان الأكبر في هذا العالم، وهو مجرد خادم بسيط لهذه المهمة المقدسة. ولكن شيئاً في النفس يشعر بالمرارة، فهو وإن كان خادماً للإسلام، إلاّ أن ذكر اسمه كصاحب للإقتراح سوف يجعله أكثر سعادة. ولكنه في ذات الوقت يشعر بالإثم لمجرد تمنيه ذكر اسمه، فيحاول التجرد من أنانيته الشيطانية المتسللة إلى أعماقه، ومن تلك النفس الأمّارة بالسوء، فيستغفر الله كثيراً، ولكن المرارة لا تريد أن تريم. إنه يريد الشهادة ومقعده في الفردوس الأعلى، ولن يتم ذلك إلاّ بالنكران الكامل للذات، ولكن الشيطان لا يريد تركه وشأنه، فهو يحاول النفاذ إليه من خلال حبه لنفسه، وهو الحب الذي يحاول أن

يقتله في داخله، ولكنه غير قادر على ذلك تماماً. الشيطان يجري في بني آدم مجرى الدم... كم بوده لو يستطيع أن يغير دمه كله، ولو علم أن ذلك سينجيه من شر الوسواس الخناس، لفعل ذلك دون تردد. صلى ما طاب له من الصلاة، وقرأ من القرآن ما شاء له أن يقرأ، ولكن هناك وخزات من حب النفس لا زالت عالقة في تلافيف نفسه، وكان ذلك يحزنه كثيراً، ويجعله أكثر صرامة وقسوة مما هو عليه...

لم يمكث خالد في هامبورغ إلاّ يومين، عاد بعدهما إلى أفغانستان، فيما بدأ محمد ومروان وزياد ورمزي بمراسلة مدارس الطيران الأميركية للحصول على قبول ومن ثم الحصول على تأشيرة الدخول. وبعد أقل من شهر، حصل الجميع على قبول من مدرسة هوفمان للطيران في فلوريدا، فتقدموا للحصول على تأشيرة الدخول للأراضي الأميركية، فحصلوا عليها إلاّ رمزي فقد رفض طلبه. حاول رمزي التقدم مرة ثانية وثالثة للحصول على التأشيرة، ولكن لا فائدة، فقطع الأمل وهو في غاية الحزن، فلن يكون من المسافرين إلى الجنة مع بقية الأخوة، وأورثه ذلك حسرة لا تريم.

* * *

ـ يا لجمال حلب... أشعر أنني خارج الزمان والمكان هنا...

نظرت إليه أمل بعينيها الواسعتين، وابتسامة واسعة تملأ فمها الدقيق، وارتشفت بعضاً من عصير البرتقال أمامها قبل أن تقول:

ـ حلب! حلب هي الدنيا، ومن لم يعش في حلب، فهو لا يعرف الدنيا... غاب أبو الطيب عنها كثيراً ساعياً وراء طموحاته، ولكن حلب بقيت هي المكان، وحلب بقيت هي الزمان... هل تحب شعر أبي الطيب يا محمد؟

ـ ليس كثيراً... ففيه من الكفريات الشيء الكثير...

فغرت أمل فاها وهي تقول:

ـ كفريات؟ أبو الطيب؟

ـ نعم...

قال محمد:

ـ فيكفي أنه المتنبي...

ـ أحياناً أنا لا أفهمك يا محمد... أبو الطيب مما تفخر به حضارتنا...

ـ نعم... بعد أن غربت شمس الإسلام...

ـ وأي حضارة هذه التي لا تعترف بأبي الطيب؟

ـ الإسلام هو محمد وصحبه... وغير ذلك هراء...

ـ إذاً نلغي تاريخنا كله؟

ـ نعم... التاريخ لا قيمة له... القيمة للمبادئ... للعقيدة...

ـ ولكن التاريخ هو تجسد هذه المبادئ والعقيدة...

ـ نعم... عندما يتخذ المسار الصحيح...

ـ وهو؟

ـ وهو أن يسود شرع الله وتسقط الطواغيت...

ـ لا أفهمك يا محمد... المهم... أنا أحب حلب، وأحب كل ذرة تراب فيها...

ـ غريب أن يصدر هذا الكلام من فلسطينية... كنت أظنكم لا تحبون أي شيء خارج فلسطين؟

ـ أنا سورية رغم أني من أصل فلسطيني. . . لا تنس ذلك. . .

قالت أمل وبسمة صافية تحتل شفتيها الورديتين، كاشفة عن صف أسنان كاللؤلؤ المنضود:

ـ ثم لا تنس أنه لا فرق بين سوريا وفلسطين، فكلها بلاد الشام، ولكن الاستعمار هو الذي مزقنا. . . بل أن كل العرب بلاد واحدة لولا الغرب اللعين. . .

ـ ولم لا تقولين بلاد الإسلام؟

تنهدت أمل بعمق وهي تقول:

ـ ليكن. . . المهم أن الغرب هو سبب كل مصائبنا. . .

أمن محمد على كلامها وهو لا يستطيع تحويل عينيه عن وجهها الطفولي الجميل، وشعرها الذهبي المتمرد على الحجاب الأبيض. . .

ـ صحيح. . .

قالت أمل:

ـ صحيح. . . كل شيء خارج فلسطين لا طعم له ولا رائحة. . . أنا لم أُولد في فلسطين، ولكن لا يمكن أن أنساها وكأني عشت فيها. . .

كم يحب هذه الفتاة ويتمناها زوجة له، فهي فتاة محتشمة ملتزمة بدينها رغم بعض النقائص، ولكن فيها شيئاً من التمرد لا يليق بالمرأة. لم تكن أمل تسميه تمرداً بقدر ما تسميه استقلالاً في الشخصية، ولكنه بالنسبة لمحمد خصلة لا يجوز أن تكون في امرأة مسلمة. كان كلما انتهى من دراسته، يتنزه هو وإياها في شوارع حلب التي تعبق بأريج سيف الدولة وأبي فراس، ويتكلمان الساعات الطوال دون أن يشعرا بحاجة إلى الجلوس. لم يكن يفضل الشوارع الحديثة في حلب بقدر ما

كان يعشق البلدة القديمة، فهناك فقط يحس بنفسه. كانت نزهته المفضلة هي التي يجول فيها في السوق الرئيسي، حيث يبدأ من القلعة في وسط المدينة، حتى ينتهي إلى باب أنطاكية، متأملاً السقف الحجري المقبب بفتحاته الجميلة، ومنتشياً بذاك الضوء الذي يأتي من تلك الفتحات. هذا هو المعمار الحقيقي الذي يجمع الجمال والصلابة، وليس المعمار الذي بثه الغربيون وهم يشوهون معالم العالم، ولذلك كان يكره أن يرى المدينة الحديثة التي يعتبرها تشويهاً لما هو أصيل. وفي كل يوم جمعة، كانت متعته الاستحمام في حمام يلبغا الناصري، قبل صلاة الجمعة، ثم يخرج إلى أسواق وشوارع المدينة القديمة. أما المتعة الكبرى لديه فكانت حين يتجول في جنبات القلعة، وهو يتصور نفسه جندياً يحارب أعداء الدين على الثغور.

كان واضحاً أنه معجب بأمل، وكان واضحاً أنها معجبة به أيضاً، لولا تلك القسوة غير المبررة التي تكسو وجهه، وتلك الأفكار الغريبة التي لا تعجبها منه، كما قالت له عدة مرات. طلبها للزواج في الأسبوع الأخير من إقامته في حلب، عارضاً عليها أن تأتي معه إلى هامبورغ، ثم العودة إلى القاهرة بعد أن يتخرج، آمراً إياها بأن تلتزم بالنقاب التزاماً تاماً قبل ذلك، ولكنها رفضت بحزم، فهي لا تريد الارتباط بشخص يبدو لغزاً بالنسبة لها، رغم الإعجاب بشخصه وأخلاقه واستقامته ووسامته. اندهش من ردّها، وهو الذي كان يعتقد أنها سوف تكون في غاية السرور لعرضه، وستوافق فوراً وتقبل كل شروطه. أحس أنه قد أُهين برفضها له، وشعر بأن بغضاء الدنيا كلها تتجمع في صدره تجاهها، فنعتها بالساقطة الرخيصة وهو يدير ظهره لها متجهاً إلى غير مكان، غير عابئ بدموعها التي انفجرت، ولا بمدى الجرح الذي سببه لها بنعته ذاك. زاد مقته للنساء بعد رفض أمل الزواج

منه، فصمم على عدم الزواج ما بقي له من عمر، رغم أن ذلك فيه ترك لسنة مؤكدة، وفيه تمام الدين.

* * *

أعلنت المضيفة الأرضية عن موعد إقلاع الرحلة رقم ٩٣، والمتجهة إلى لوس أنجلوس، وطلبت من المسافرين التوجه إلى بوابة الخروج استعداداً للسفر. اصطف الجميع أمام كاونتر البوابة وقد حملوا بطاقات الدخول في أيديهم. مد زياد بطاقة الدخول إلى الشقراء التي كانت تبتسم للجميع، ووضع حقيبته الظهرية على جهاز الأمن ومر بسلام. وكاد زياد يفقد توازنه عندما أطلق جهاز الأمن صفارة إنذار عند مرور حقيبة ابن الجراح، فواصل طريقه بهدوء وهو في غاية التوتر، مردداً أدعية مأثورة، وهو يكاد يقع على الأرض من القلق والتوتر. فتشوا حقيبة أحمد عدة مرات، وأخضعوها لجهاز كشف القنابل، ولم يجدوا شيئاً مريباً، سوى سكين لقطع الأوراق لم تعن لهم شيئاً، فتركوه ونظرات الشك تقبع في عيونهم. تأكد زياد أن الله معهم، وأن ملائكته تحيط بهم وتحرسهم، فولج الطائرة وهو على ثقة بأنهم اليوم في حفلة عرس يزفون فيها إلى الحور العين. نعم إن الله وملائكته معهم اليوم، فما حدث قبل قليل، وما حدث للأخ عروة يؤكد ذلك. فقد كان الأخ عروة يحمل عدداً من المشارط التي كشفها جهاز التفتيش، وفيما كان رجل الأمن يهم بتفتيشه، إذ بامرأة حسناء تمر من الجهاز بعده، فانشغل بها رجال الأمن، وسمحوا للأخ عروة بالمرور، كما أخبره أبو عبد الرحمن في المكالمة الأخيرة. يا لهم من عبيد للغرائز والجسد هؤلاء الكفرة. نعم إن الله معهم وها هو يسخر لهم كل شيء، حتى غرائز هؤلاء الكفرة. استقر في مقعده، وأخذ ينظر

حوله مطمئناً إلى أن كل شيء على ما يرام، ثم فتح حقيبته وأخرج منها المشرط ووضعه في جيبه، وحاول الاسترخاء بانتظار إقلاع الطائرة. . .

* * *

أخذت سيارة الهونداي الفضية تطوي مسافة الثلاثمائة ميل بين مدريد وتاراغونا في ذلك اليوم الحار من شهر يوليو، وسائقها أكثر حرارة من أجواء يوليو. كان محمد في غاية السعادة وهو يمر عبر الجبال وتلك المناظر الخلابة بين المدينتين، وهو يستعيد ماضي العرب في تلك الديار، وكيف أن المسلمين أضاعوا فردوسهم عندما أضاعوا دينهم وأضاعوا وحدتهم، ولكن عودة الإسلام قريبة إن شاء الله، فنحن عائدون يا أندلس. . . نحن عائدون. . . هكذا كان يحدث نفسه طوال الطريق. لم تكن سعادته حقيقة نابعة من جمال المناظر من حوله، أو من ذكريات ماضٍ مجيد يفرض نفسه، بقدر ما كانت نابعة من جمال تلك المشاعر التي استولت عليه. مشاعر من السعادة والحماسة ومتعة غريبة لا يستطيع وصفها. لقد عاد لتوه من فلوريدا، بعد التأكد من أن كل شيء على ما يرام: فالأخوان قد اكتمل عقدهم وأصبح الجميع في أميركا استعداداً للغزوة الكبرى، والخطة تسير وفق ما ينبغي، ولم يبقَ إلاّ تحديد ساعة الصفر ولمسات أخيرة سوف توضع في اجتماع تاراغونا الذي هو في طريقه إليه. لم يكن يعلم وهو في طريقه من أميركا إلى اسبانيا أن الاجتماع سيكون في تاراغونا، بل لم يكن يعلم أنه مسافر إلى إسبانيا إلاّ في اللحظات الأخيرة. بعد التأكد من أن كل شيء على ما يرام ويسير وفق الخطة الموضوعة. في مطار مدريد استقبله الأخ إقبال، ومن خلاله عرف بما يجب عليه عمله في إسبانيا.

في الصباح التالي لوصوله إلى مدريد، استأجر هذه السيارة، ودفع

أجرتها ببطاقة ائتمان جديدة أعطاها إياه الأخ إقبال. كان طوال الطريق يفكر فيما هو مقدم عليه، ويشعر بالفخر لأنه في النهاية سيقوم بعمل يضرب به عدة عصافير بحجر واحد. فهو من ناحية سينتقم لصديقه القديم أحمد وكل المسلمين الذين لم يكن أحمد إلاّ رمزاً لإذلالهم على يد الغرب وسيدته المتغطرسة أميركا. وهو سينتقم للفسلطينيين وما تفعله بهم أميركا بيد اليهود. وهو سيعلم أميركا درساً لن تنساه، فضعف المسلمين اليوم لا يعني أنهم قد قبلوا الذل والمهانة، بل أنهم قادرون على الرد، فقوتهم ليست في السلاح ولكنها في الإيمان. ولكن فوق كل شيء فإنه يفعل ما يفعل في سبيل الله وحده... الله الذي نسيه المسلمون فنسيهم. كان يشعر ببعض الخوف مما هو مقدم عليه، ولكنه كان يلجأ إلى الأدعية وآيات من كلام الله يشد بها أزره ويطمئن نفسه المضطربة بأن له الجنة في النهاية إن شاء الله... وابتسم وهو يذكر الجنة وما فيها من النعيم المقيم الذي لا نهاية له، ويذهب خوفه تماماً وهو يشعر بأنها باتت قريبة جداً. كل متعة دون الجنة ليست بمتعة، وكل جمال دون الجنة ليس بجمال، فمن ذا الذي يرضى بالأدنى دون الأعلى، وبالفاني دون الخالد، وبالمتعة العابرة دون المتعة الصافية والدائمة؟ رويدك يا جنة الرحمن، فنحن قادمون... نحن قادمون...

أوقف السيارة أمام باب فندق «ديانا كازادورا» بالقرب من مطار تاراغونا، وسجل اسمه في سجل النزلاء في الفندق. صعد إلى غرفته وهو لا يشعر بأي تعب بعد هذه المسافة الطويلة إلى المصيف الإسباني الجميل. كانت غرفة جميلة تطل على البحر من بعيد، ونسمات هواء عليل كانت تهب من النافذة التي فتحها. فرغم أن الغرفة كانت مكيفة إلاّ أنه كان يفضل الهواء الطبيعي على الهواء «الأميركي» المُصنع، كما كان يسمي هواء المكيفات. استلقى على السرير بعد أن شغل جهاز

التلفاز على محطة السي إن إن، وأغفى وهو يتابع برنامجاً عن الحروب المنسية في أفريقيا. استيقظ مرعوباً على رنين جرس التلفون في غرفته، فقد كان يحلم بكابوس شنيع. رأى في الكابوس أن مخطط الغزوة قد كُشف وقبض عليهم جميعاً، وأن الشيخ أسامة قد أُعدم، فصحا مذعوراً. نظر حوله وهو لا يدري أين هو لوهلة، ثم أدرك أين هو فيما كانت الشمس ترسل آخر خيوط من أشعتها الذهبية إلى الغرفة. استعاذ بالله من الشيطان الرجيم عدة مرات قبل أن يلتقط سماعة التلفون. اتاه الصوت من الجانب الآخر داعياً إياه إلى المقابلة بعد نصف ساعة في قاعة الفندق، فقد اكتمل عقد الأخوان. كان المتحدث هو الأخ بركات، حلقة الوصل بينهم في أوروبا وبين القيادة في أفغانستان. غسل وجهه بسرعة وغير ملابسه ونزل إلى قاعة الفندق بسرعة. هناك كان في انتظاره الأخ بركات والأخ رمزي القادم لتوه من هامبورغ. تعانق الجميع وهنأ بعضهم بعضاً بسلامة الوصول، وطلب محمد بعض السندويشات الخفيفة وشاياً، فقد تذكر أنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح الباكر حين غادر مدريد. أخبره بركات بأن الفندق رفض استقبال رمزي بحجة أنه لا يوجد أماكن فارغة، مع يقينه بأن ذلك لم يكن السبب الذي أرجعه إلى أن هيئة رمزي كانت مثيرة للشبهة بالنسبة لهم، بلحيته الكثة وملابسه الفضفاضة، قال ذلك وهو يضحك. لذلك فإنه سيغادر هو ورمزي إلى شقة على البحر حيث بقية الأخوان، وعلى محمد أن يوافيهم هناك في الصباح الباكر. أراد محمد أن يرافقهم ذات الليلة، ولكن بركات منعه، إذ أن ذلك قد يثير الشبهات حين يغادر في نفس اليوم الذي وصل فيه، وهم الآن في اللحظات الأخيرة لهذا العمل الكبير، وهم لا يريدون أن يُجهض بسبب أخطاء بسيطة. بل أن على محمد وبعض الأخوة أن يقيموا في الفنادق، ولا يبقى في الشقة إلاّ

شخص أو شخصين، وذلك زيادة في الحذر والحيطة. اقتنع محمد بكلام بركات، وواصل شرب شايه فيما الآخران يغادران الفندق بهدوء... في صباح اليوم التالي، وقبل أن يذهب محمد إلى شقة الاجتماع، انتقل إلى فندق آخر، فندق سان جوردي، في داخل تاراغونا، حيث وضع أغراضه القليلة، ثم انطلق إلى شقة الاجتماع...

* * *

اكتمل عقد الستة في ذلك الصباح الدافئ من شهر يوليو في شقة صغيرة غير بعيد عن الشاطئ المزدحم بالمصطافين من العراة عبيد الجسد، حسب وصف رمزي، الذي لعن هذه الحضارة وسلوكياتها، رغم أن الوقت لا يزال مبكراً. جلس الجميع على الأرض، وقد توسطهم ابريق الشاي، وابتدأ رمزي الحديث بتلاوة آيات من سورة التوبة، ثم حمد الله وأثنى عليه، وصلى وسلم على خير البرية محمد بن عبد الله، ثم دخل في صلب الموضوع:

ـ تعلمون يا أخوان أن الشيخ أسامة وأخوته نذروا أنفسهم للاستشهاد في سبيل الله، ومحاربة شيطان هذا الزمان، الولايات المتحدة، وقد تم التخطيط لغزوة جوية تدمر رموز حضارتهم الزائفة منذ ثمانية عشر شهراً، وكان لي شرف حضور اجتماع في كوالالمبور اتفقنا فيه على تدمير المدمرة كول، والبدء في التخطيط لغزوة أميركا. لقد أصبحتم الآن من الطيارين المتمكنين بعد تعلمكم فن الطيران في أميركا نفسها، وقد حان وقت التنفيذ، وأبشركم أن قد تم اختيار ثلاثة عشر مجاهداً من كتيبة الشهداء في القاعدة، بالإضافة إلى اخوتنا السبعة من هامبورغ، الذين سيتولون قيادة الغزوة، فيما يساندهم الثلاثة عشر كعضلات قوية. وعلينا في هذا الاجتماع والاجتماعات اللاحقة خلال

الأيام التي سنقضيها هنا، أن نحدد الأهداف والموعد، بما لا يزيد عن شهرين من الآن، فكلما أسرعنا في الغزوة كان ذلك ضمانة لنجاحها إن شاء الله، بالطبع لن نحدد الموعد الدقيق من الآن، وذلك لأسباب أمنية كما تعلمون، ولكننا سنحدد الفترة الملائمة التي يمكن تحديد الموعد الدقيق فيها. . .

وصمت رمزي وهو ينتقل بنظره بين الجميع، وكان أول المتكلمين أبو طارق:

ـ أنا أعتقد أن البيت الأبيض يجب أن يكون هو أول الأهداف، فهناك تصنع القرارات التي تذل الإسلام والمسلمين. . . هناك يقبع رأس الأفعى. . .

ـ وأنا أقترح أن تكون وزارة الدفاع الأميركية هي أحد الأهداف، فهناك ترسم خطط قتل المسلمين. . .

قال أبو القعقاع. وأخذ الجميع يقترحون أهدافاً أخرى، فيما كان محمد غارقاً في صمته، يحتسي الشاي بهدوء، حتى قطعه عليه رمزي قائلاً:

ـ وأنت يا أخ أبو عبد الرحمن. . . ألا تقترح شيئاً؟

شرب محمد ما بقي في كأسه من شاي، ثم عدل من جلسته قليلاً قبل أن يقول بهدوء، وبصوت كأنه قادم من حلم بعيد:

ـ أظن أن برجَي مركز التجارة في نيويورك هما أفضل هدف. . . وقد أصاب الشيخ أيمن حين ذكرهما كهدف. . .

فغر الجميع أفواههم باستغراب، وكل يريد أن يتكلم، حتى أوقفهم رمزي بإشارة من يده، وهو يوجه كلامه إلى أبو عبد الرحمن:

ـ ولماذا برجي مركز التجارة يا أخ محمد؟ ما قيمتهما أو أهميتهما أمام البيت الأبيض أو البنتاغون أو الكونغرس أو مقر السي اي أيه؟

لاحت بسمة باهتة على فم محمد وهو يقول:

ـ كلنا نعرف قصة النمرود الذي ادعى الربوبية، فلما دعاه سيدنا إبراهيم أبى واستكبر، فقرر أن يقتل إله إبراهيم، إله السماء، فربى نسوراً على اللحم والخمر حتى أصبحت قوية، ثم صنع لنفسه محملاً وربطه بالنسور التي طارت به إلى عنان السماء، ملاحقة اللحم الذي وضعه على طرف عصا ممتدة أمامها. وعندما وصل إلى أبعد نقطة تصل إليها النسور، أطلق سهامه تباعاً، فعاد إله أحدها ورأسه ملطخ بالدماء، وهنا أيقن أنه قتل إله السماء، فعاد إلى قصره منتشياً بالسعادة، معتقداً أنه أصبح الإله الوحيد. وبعد مدة من ذلك، دخلت بعوضة في أنفه، وأصبحت تسبب له صداعاً حاداً لا يهدأ إلاّ عندما يُضرب بالنعال على رأسه، ثم مات من عبث هذه البعوضة في رأسه. وعندما خرجت هذه البعوضة من رأسه، خيرها اللّه بين ملك الدنيا أو إعادة جناحها، فاختارت الجناح، وهنا ندرك كيف أن الدنيا لا تساوي عند اللّه جناح بعوضة...

وصمت محمد لبعض الوقت وهو يملأ كأسه بالشاي من جديد، فيما كان البقية يتبادلون نظرات الاستغراب، فهم لا يدركون إلى ماذا يرمي الأخ أبو عبد الرحمن، وما علاقة النمرود بأميركا وأبراج التجارة، ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة، حتى جاء صوت محمد من جديد:

ـ أميركا هي نمرود هذا الزمان، تعتقد أنها رب هذا العالم، وناطحات سحابها رمز لتطاولها إلى السماء، فهي تريد أن تقول أنني قادرة على فعل كل شيء، بما في ذلك مقارعة الخالق في سمائه... برجي التجارة هما أهم رمز لحضارة أميركا الجاهلية، وبتدميرهما نكون

قد دمرنا رمز هذه الحضارة الشيطانية، فنحن ضد الحضارة الجاهلية المعاصرة وطواغيتها، هكذا يجب أن نكون، أما الباقي... البيت الأبيض، البنتاغون، الكونغرس، فهو مجرد تفاصيل... سنكون تلك البعوضة التي قتلت النمرود في النهاية...

وصمت الجميع لبضع دقائق، ثم قطع أبو القعقاع الصمت قائلاً بصوت تكاد الحماسة أن تخنقه:

ـ أحسنت أيها الأمير... أحسنت... فواللّه لو كان بين المسلمين عشرة مثلك، لما كانت هذه هي أوضاعنا... كان رمزي ينظر إلى محمد وهو يحك لحيته الكثة، وظل ابتسامة يلوح على شفتيه وهو يقول:

ـ بارك اللّه فيك يا أبا عبد الرحمن... بارك اللّه فيك... لقد أحسنت الاختيار فعلاً... بقي أن نحدد بقية الأهداف... واستمر الاجتماع دون أن يصلوا إلى تحديد بقية الأهداف. وفي اليوم الأخير من وجودهم في تاراغوانا، وبعد اجتماعات مضنية ومتواصلة دامت أكثر من أسبوع، توصلوا إلى تحديد الأهداف المختارة: برجي مركز التجارة، البنتاغون، والكابيتول. واتفقوا على أسماء رمزية لهذه الأهداف في مراسلاتهم: برجي مركز التجارة هو كلية التخطيط العمراني، والبنتاغون هو كلية الفنون الجميلة، والكابيتول هو كلية القانون. ثم جاءت المهمة الأصعب، تحديد وقت التنفيذ...

ـ يجب أن تتم الغزوة قبل انتهاء فصل الصيف... في بحر شهرين من الآن على أكثر تقدير...

قال رمزي وهو ينظر في عيني محمد بالذات، فيما تبادل الخمسة الآخرون نظرات الاستغراب، فقد كانت أول مرة يُسألون فيها عن رأيهم، فقد جرت العادة على أن تأتي الأوامر فتُنفذ دون إبداء رأي أو

نقاش حول موضوع الأوامر، أما اليوم فالحالة مختلفة. كان أول المتحدثين هو زياد الذي حبذ أن يكون ذلك في شهر أغسطس، والثاني من أغسطس لو أمكن، لتوافقه مع دخول العراق إلى الكويت، وبذلك تكون غزوتهم رداً على عاصفة الصحراء. واقترح آخرون تواريخ مختلفة، إلاّ أن مروان كان له رأي آخر:

ـ الثاني عشر من أغسطس... أظن أنه الأفضل...

ـ لماذا يا أخ أبو القعقاع؟

ـ شهر أغسطس هو الشهر الثامن من تاريخهم، وعندما نجمع ثمانية مع اثنا عشر نحصل على عشرين، وهو عدد من سيقومون بالغزوة... وهذا فأل طيب... وفي الأثر: «تفاءلوا بالخير تجدوه»...

وبدون شعور منه، هب رمزي مقبلاً جبين مروان، وهو يقول:

ـ بارك اللّه فيك... بارك اللّه فيك... لا ذُلت أمة فيها أمثالك...

كان محمد وزياد ينظران إلى مروان بحبور، وهما يرتشفان الشاي البارد بهدوء...

ـ كلا...

قال محمد وهو ينظر إلى رمزي بعينيه الباردتين:

ـ شهر أغسطس ليس مناسباً على الاطلاق...

ـ ولماذا يا أبا عبد الرحمن؟

ـ لسبب بسيط...

قال محمد، وهو يحرك الملعقة الصغيرة في كوب الشاي:

ـ الكونغرس الأميركي لا يستأنف نشاطه إلاّ بعد الأسبوع الأول

من سبتمبر، ونحن لا نريد أن ندمر مبناً فاخراً فقط... يجب أن تكون الغزوة كاملة، نثخن فيها ونقتل في سبيل الله...

وران الصمت على الجميع، وهو ينظرون إلى الأرض لا يحيرون جواباً، فيما كان رمزي ينظر إلى محمد، وظل ابتسامة يحتل فاه... يا له من فتى... قال رمزي في نفسه... كنا نعرف أنه يهتم بأدق التفاصيل، ولكن أن يصل اهتمامه إلى هذه الدرجة! فهذه مسألة تثير الإعجاب فعلاً... وبعد صمت مر كأنه دهراً، قال رمزي:

ـ يبدو أننا لن نصل إلى نتيجة هنا... سوف أرفع تقريراً إلى القيادة حول اجتماعاتنا، وسوف نترك لهم أمر تحديد الزمان المناسب...

ثم وهو ينظر إلى محمد ويبتسم:

ـ سأذكر لهم وجهة نظر أبي عبد الرحمن بوجه خاص...

* * *

غادر محمد تاراغوانا إلى مدريد، فبرلين، ثم أطلنطا، بعد أن اتفقوا على سؤال القيادة عن الموعد المحدد للتنفيذ، الذي لم يلبث أن جاء بترك الأمر للأخ أبو عبد الرحمن المصري وأخوته في مجلس شورى الغزوة لتحديد الموعد المناسب. وتم تحديد الموعد في صباح الثلاثاء، الحادي عشر من سبتمبر لعدة أسباب. فهو يشكل البداية الفعلية للأسبوع، وفيه يعود أعضاء الكونغرس إلى أعمالهم، كما أن له قيمة رمزية. فهو يوم أحد عشر، وذلك يشابه برجي التجارة الذين يشكلان رقم أحد عشر. وبعدم استطاعة رمزي الحصول على تأشيرة للدخول إلى أميركا، وبعد القبض على زكريا، فإن عدد القائمين بالغزوة سيكون تسعة عشر، وهو رقم يرد في كتاب الله، وكأن الله

يريد أن يكون العدد تسعة عشر، وهذا مما يدعو للتفاؤل. بعد أن اتفق مجلس الشورى على الموعد المحدد للغزوة، قاموا أيضاً بتقسيم مجموعة التسعة عشر إلى أربعة فرق، تتولى كل فرقة عمليتها الخاصة. ففريق أبو طارق يضم كل من الأخوة: ابن الجراح، وأبو هشام، ومعتز، وهم من سيقوم بالهجوم على كلية القانون. وفريق الأخ عروة يضم كل من الأخوة: سنان، وربيعة، والأحنف، وبلال، وسيهاجمون كلية الفنون الجميلة. وفريق الأخ أبو القعقاع، يضم كل من: جليبيب، عمر، عكرمة، أبو أحمد، ومهمتهم تدمير البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي. أما الفريق الرابع، فريق أبو عبد الرحمن، فيضم كل من: أبو العباس، عزمي، أبو سلمان، وأبو مصعب، ومهمته تدمير البرج الشمالي، أو كلية التخطيط والعمران. تم كل شيء، تحديد الموعد والمنفذين، ولم يبقَ إلاّ ابلاغ القيادة بما تم التوصل إليه.

«حبيبتي جيني... لا تتصورين مدى اشتياقي إليك، وكلي تطلع إلى ذلك اليوم الذي نجتمع فيه من جديد حيث السعادة الحب. حبيبتي... سيبدأ الفصل الدراسي الأول بعد ثلاثة أسابيع، وليس هناك أي تغييرات تذكر، وكل شيء يسير على ما يرام، وكلي حماسة وتطلع إلى الفصل الجديد، فلدي الكثير من الأفكار المفيدة، كما أن هناك الكثير من المبشرات الجديدة: مدرستان للدراسات العليا وجامعتان، تسعة عشر شهادة للدراسات الخاصة متاحة، وأربعة امتحانات قادمة. كل شيء يسير بشكل طيب، وسوف أتحدث معك عن بعض التفاصيل، فيبدو أنه سيكون صيفاً حاراً جداً. سلامي للأستاذ، وإلى الملتقى». ابتسم رمزي وهو يقرأ هذه الرسالة التي جاءته بالإيميل من محمد، ودعا الله بأن يوفق المجاهدين وفي الحلق غصة، فكم تمنى لو أنه كان معهم الآن يستعد للسفر إلى جنة الخلد، ولكن الخيرة فيما

اختاره اللّه. . . الخيرة فيما اختاره اللّه، أخذ يردد بينه وبين نفسه وهو يغادر مقهى الإنترنت في ذلك اليوم الحار من أواخر أغسطس. . .

* * *

كان كل شيء هادئاً في شارع «مارين شتراسا»، فجر ذلك اليوم من أغسطس، وبعد عشرة أيام من رسالة محمد لحبيبته «جيني»، وكان رمزي يغط في نوم عميق، عندما أخذ جرس الهاتف يدق بعنف، موقظاً رمزي من نومه. التقط رمزي سماعة الهاتف وهو يردد: «اللهم اجعله خير. . . اللهم اجعله خير. . .»، وهو يفرك عينه محاولاً أن يكون في غاية الانتباه. . .

- السلام عليكم. . . نعم. . .

- السلام عليكم. . . أنا أبو عبد الرحمن. . .

وتحول رمزي إلى كتلة من الانتباه وهو يسمع صوت محمد مجتازاً المحيط والقارة ليصل إليه، وأخذ قلبه يدق بقوة، فقد أدرك أن القضية مهمة جداً، وإلاّ ما كان محمد يتصل، فهو قليل الكلام، قليل الاتصال، يتمتع بحس أمني عال يجعله متحفظاً أكثر من اللازم بعض الأحيان. . .

- أهلاً أخي أبو عبد الرحمن. . . خيراً إن شاء اللّه؟

وجاءته ضحكة غريبة من الطرف الآخر، أعقبها صوت محمد وهو يقول:

- كل الخير إن شاء اللّه. . . فيه واد صحبي مديني لغز وتحداني إن كنت أقدر أحله، وأنا في الحقيقة مش قادر أحله، قلت مفيش غير أبو الرموز هو اللي يقدر يحله. . .

أحس رمزي بالغيظ يجتاحه، وكادت صورة محمد تنقلب في ذهنه، فرد ونبرة الغضب واضحة في صوته:

ـ حسبي اللّه عليك يا أبو عبد الرحمن. . . تصحيني من أحلاها نومة عشان أحل لك لغز سخيف؟

ـ صبرك عليّا يا أبو الرموز. . . اسمع اللغز الأول وبعدين نام تاني. . . لا يحل اللغز إلاّ أنت. . .

وهنا أدرك رمزي أن القضية لا علاقة لها بلغز أو غيره، وكان عليه أن يدرك ذلك منذ البداية، فمحمد ليس من العابثين أو ممن يبحثون عن اللهو. كان في غاية الاستنفار هذه المرة، غير أنه أجاب محاولاً إضفاء عدم الاكتراث على صوته:

ـ طيب يا سيدي. . . أيش هو اللغز؟

ـ لا مؤاخذة يا أبو الرموز، أنت صحبي بقى وما فيش غيرك يحل اللغز. . . اللغز يا سيدي بيقول عصايتين وبينهم شرطة، وكعكاية منها عصا مدلاية. . . يعني أيه؟

ـ حسبي اللّه عليك. . . مصحيني من النوم علشان هذا اللغز السخيف. . . هيا. . . مع السلامة. . .

وضع رمزي سماعة التلفون وقلبه يدق بشدة، وأدرك أن اللغز هو تحديد موعد الغزوة. . . فالعصايتان هما ١١، والكعكة المدورة التي يتدلى منها عصا هي ٩، وبذلك تكون ساعة الصفر هي يوم الثلاثاء، الحادي عشر من سبتمبر. . . لا بدّ من ايصال الخبر إلى كابول. . . لا بدّ من ايصال الخبر إلى أبي عبد اللّه. . . هكذا كان رمزي يحدث نفسه في ذلك الصباح الباكر الذي مرت ساعاته على «مارين شتراسه»، دون أن يدرك أحد من النائمين ماذا كانت الأيام تحمل في أحشائها.

حبيبتي جيني. . . يعلم اللّه كم أكابد من الشوق لرؤياك،
ولكن الفرج قريب، ولا بدّ أننا ملتقون. حبيبتي. . . كل شيء

على ما يرام، والدراسة تسير على أفضل حال، وأنا أبذل جهدي دون أن أنسى أخذ نصيبي من الدنيا. غداً، ستبدأ المباراة الهامة التي كنت بانتظار متابعتها منذ جئت إلى هذه الديار، وسأحضرها أنا وثلة من الأصدقاء، وأنا واثق أن فريقنا سوف يفوز في هذه المباراة. كل الشوق والحب، وسلامي لأستاذنا الغالي، وإلى اللقاء قريباً.

قرأ رمزي هذه الرسالة الإلكترونية، فأخذ جسده يتصبب عرقاً غزيراً، وأحس أن قلبه يكاد يخرج من جوفه، وترددت أنفاسه بسرعة وكأنه يصعد جبلاً، فلم يتمالك نفسه دون أن يصرخ: «اللّه أكبر... اللّه أكبر...»، فالغزوة غداً إذاً... السفر إلى الجنة ونعيمها غداً إن شاء اللّه... كم كان يتمنى لو أنه من المسافرين إلى الجنة مع أبو عبد الرحمن وأبو العباس وأبو طارق وأبو القعقاع وصحبهم، ولكن قاتل اللّه الطواغيت الذين حرموه من تأشيرة الدخول إلى جوف الأفعى لقتلها والفوز بالشهادة والجنة... وطاف في ذهنه حديث رسول اللّه: «للشهيد عند اللّه سبع خصال، يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»... قاتلهم اللّه، قاتلهم اللّه، حرموه من كل هذا، ولكن في العمر فسحة، والشهادة قادمة في لا ريب فيها إن شاء اللّه... اللهم إنا نسألك عيش السعداء، والنصر على الأعداء، وموت الشهداء، ومرافقة الأنبياء، يا سميع الدعاء... وانتبه لنفسه، فأسرع الخطى إلى أبي عبد اللّه وهو يكبر، يحمل إليه البشرى...

* * *

كان أسامة في غاية التوتر وهو يجلس إلى جانب الراديو، ومؤشر الراديو يشير إلى إذاعة لندن، عصر ذلك الثلاثاء من يوم الحادي عشر من سبتمبر، بل كان الجميع في حالة ترقب وعيونهم مشرئبة إلى الراديو، وقد تحولوا إلى أذان صاغية: أيمن الظواهري، ومحمد عاطف، وخالد شيخ، وسليمان غيث، فقد كان الجميع يترقب الخبر الموعود. لم يكن يعرف بساعة الصفر أحد، حتى ولا الشيخ أسامة، فكل ما يعرفه هو وأيمن وعاطف، أن اليوم هو اليوم ولا أكثر من ذلك. أما الآخرون الذين اكتظ بهم المجلس، فقد كانوا يعلمون أن هنالك حدثاً منتظراً، ولكنهم لا يعلمون كنهه أو متى يكون. كانت الأخبار تتوالى: «وكشفت حركة الجبهة الثورية لتحرير الشعب أن الذي نفذ العملية الانتحارية في اسطنبول هو أبور بلبل، وكان واحداً من المشتركين في الاضراب عن الطعام... لا زالت هذه الأنباء تأتيكم من لندن، هيئة الإذاعة البريطانية». ووصل التوتر إلى غايته لدى أسامة، وأخذت يده تتحسس رشاشه الذي لا يفارقه بتوتر ظاهر، فيما كان أيمن وعاطف في غاية الهدوء وهما يتابعان الأخبار، بينما كان داخلهما يغلي. وفجأة، قطع المذيع قراءة الخبر الذي كان بين يديه وقال: «وردنا هذا النبأ العاجل الآن... أفادت الأنباء الواردة من الولايات المتحدة أن طائرة ركاب اصطدمت بالبرج الشمالي من مبنى مركز التجارة العالمي في تمام الساعة الثامنة وخمس وأربعون دقيقة من صباح هذا اليوم، بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأميركية، وقد أحدث الاصطدام حريقاً هائلاً في الأدوار العليا من المبنى، ولا زالت النيران مشتعلة...»، فصرخ أسامة وهو يرفع سلاحه في الهواء: «اللّه أكبر... اللّه أكبر... وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً... صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده... اللّه

أكبر... الله أكبر....»، وخر ساجداً إلى الأرض شكراً لله، في الوقت الذي تعالت فيه صيحات التكبير في كل مكان، وخر الجميع ساجدين شكراً لله. ثم توالت الأنباء عن ارتطام طائرة أخرى بالبرج الجنوبي، وأخرى بالبنتاغون، وسقوط الرابعة في بنسيلفانيا، وموت جميع من فيها.

لم يشعر أسامة بسعادة في حياته بمثل ما شعر بها اليوم، فها هم جنود الرحمن يدكون «رأس الأفعى» في عقر دارها، وينتقمون لإذلال الإسلام والمسلمين، بل وينتقم أسامة لنفسه من أميركا التي تخلت عنه بعد طرد السوفيات من أفغانستان. وبدون شعور منه، وجد نفسه رافعاً رشاشه الذي لا يفارقه عالياً، وقد انتصب في وسط المجلس وهو يرقص وينشد أبياتاً لأحد المجاهدين:

باسم الجهاد مضينا نحو عزتنا
وباسمه راية الإسلام تنتصب

فالغرب يرهبه والشرق يخذله
وهيبة الأمم الرعناء تضطرب

يا عام سر إننا نمضي على مهل
إلى المعالي وأعداء الهدى عطبوا

غداً نعيد لأرض القدس بسمتها
وينتهي عن أذاها البغي والشغب

غداً ندكدك روما في معاقلها
وتستكين لنا الرومان والعرب

غداً تعود الأمجاد قاطبة
ويرفع العدل خفاقاً وينتصب

لكن بقوم كرام لا تزعزعهم
دنيا اللذائذ أو يغريهم الذهب

ولم يلبث أيمن أن قفز من مجلسه، وانضم إلى أسامة وهو ينشد:

فحي على جناب عدن بقربهم
منازلك الأولى بها كنت نازلا
ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا
وقفت على الأطلال تبكي المنازلا
فدعها رسوماً دارسات فما بها
مقيل فجاوزها فليست منازلا
رسوم عفت يفنى بها الخلق كم بها
قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا
وخذ يمنة عنها على المنهج الذي
عليه سرى وفد المحبة آهلا
وقل: ساعدي يا نفس بالصبر ساعة
فعند اللقا ذا يصبح زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي
ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

وتوالت الأنباء عن سقوط البرجين بالكامل، فلم يعلق أسامة على ذلك إلا بالقول باسماً:

ـ ذاك أبعد مما كنا نتوقع ونتمنى... كنا نتوقع سقوط طابقين أو ثلاثة، أما كامل المبنى! إنها ملائكة الرحمن تحارب معنا... فالحمد

لله... الحمد لله... إن ينصركم الله فلا غالب لكم...

* * *

أخذت سمية تقلب صفحات الجريدة وهي تحتسي قهوتها المفضلة، الكابتشينو، في أحد مقاهي هلسنكي، في ذلك اليوم المشمس من سبتمبر، كعادتها دائماً حين تدفأ الأجواء، وتبتسم الشمس ولو لدقائق معدودة، والكل من حولها يقلب صفحات الجرائد، فقد كان العالم كله منشغلاً بذلك الحدث الذي هز أميركا وهز العالم في أول يوم من النصف الثاني من الشهر. لقد كان البعض من المهووسين يتوقعون نهاية العالم مع نهاية الألفية الثانية لميلاد السيد المسيح، ولكن الألفية الثالثة بدأت بسلام، وبقي العالم سليماً كما كان دائماً. ولكن أحداث أميركا أعادت أساطير نهاية العالم إلى الأذهان، فربما كان من أعد التقويم مخطئاً في تحديد وقت ميلاد المسيح، وبالتالي فإن نهاية الألفية الثانية لم تكن حسب التقويم، ولكنها في هذا الشهر. لم يكن أحد يتوقع أن تُهاجم أميركا في عقر دارها، وأن يُدمر رمز عظمتها الاقتصادية، وينهار برجي التجارة العالمي بتلك السهولة التي نقلتها الصور التلفزيونية. لقد انهار البرجان وكأنهما قصور رمال على شاطئ تتصارع أمواجه وتتعارك رياحه، وليس كأقوى مبنيين على وجه الأرض. كان حدثاً مفزعاً، أعاد إلى الأذهان مشاهد يوم القيامة كما حذرت منها كل الأديان، ونسيها الناس المشغولون بتفصيلات حياة لا يدري أكثرهم ما معناها.

أخذت سمية ترتشف قهوتها بهدوء، وهي تنفث دخان سيجارتها بتلذذ واضح، وهي تقرأ موضوعاً عن تفاصيل ما حدث في نيويورك في ذلك الصباح الحزين من يوم الثلاثاء، الحادي عشر من سبتمبر، لعام

ألفين وواحد من ميلاد المسيح. وبدون شعور منها، صدرت عنها صرخة حادة لفتت انتباه الجالسين حولها، رغم محاولتها كتمان الصرخة بكفها، وأحست بأن قلبها قد توقف عن الخفقان، ثم أخذ يخفق بقوة، وكادت أن تغص بدخان سيجارتها، وأخذ الفنجان يهتز في يدها، وهي تقرأ أسماء التسعة عشر الذين قاموا بالعملية... إنها تعرف أحدهم... نعم تعرفه... بل إنها أحست نحوه بعاطفة عنيفة خلال الأيام الماضية... إنه هو... محمد... الشاب المصري الذي تعرفت إليه قبل عام عبر «غرف الدردشة» في الإنترنت. قرأت الاسم مرة ثانية وثالثة، حتى تأكدت من أنه هو لا شك في ذلك. ألقت الجريدة جانباً، وأشعلت سيجارة جديدة أخذت تمتصها بقوة، وهي لا تستطيع التحكم برعشة شديدة أخذت تهز جسدها كله. طلبت كأساً من المارتيني ألقته في جوفها دفعة واحدة، وطلبت آخر أخذت تشربه بهدوء. أحست بالذنب يجتاحها وهي تشرب الخمر لأول مرة بعد إسلامها منذ أكثر من عشر سنوات، ولكنها لم تستطع المقاومة، فقد كانت الصدمة أقوى مما تحتمل. طوال معرفتها بمحمد لم يكن يخطر ببالها أنه من الممكن أن يقوم بعمل كهذا، حتى أنها قد أحبته وهي لم تره، رغم أنها في أواخر العقد السادس من عمرها، وكان هو في أوائل العقد الرابع من عمره. طوال عام كامل كانت على اتصال به من خلال الإنترنت، وقد كان في غاية الدماثة والذوق الرفيع والإحساس المرهف، حتى أنهما كانا يتبادلان العواطف بشكل غير مباشر عن طريق أبيات من الشعر. لقد كان مولعاً بالحديث عن العمارة وتخطيط المدن، وكان لا يتورع عن التعبير عن كرهه لنمط العمارة الغربي الحديث، الذي في رأيه يلغي الهوية الأصلية للمدن في كل أنحاء العالم، وخاصة العالم الإسلامي الذي له خصوصية يجب الحفاظ

عليها. فالنمط الغربي للعمارة شيء لا هوية له ولا يعبر عن أي نوع من الأصالة أو التلاحم بين الإنسان والبيئة، كما هو الحال في النمط الإسلامي، الذي يعكس روح الوحدانية الإلهية بشكل لا مثيل له في أي نمط آخر. كانت تحب أحاديثه وتستمتع بها، فهي دارسة للآثار، وتشاركه الكثير من آرائه في فقدان الهوية في النمط المعماري الحديث. أمن المعقول أن يفعل محمد شيئاً كهذا؟ مستحيل. . . مستحيل. . . أخذت تحدث نفسها بصوت يكاد يكون مسموعاً. . . لا بدّ أن في الأمر خطأ ما، وستجلو الأيام ما يبدو غامضاً هذه الأيام.

ألقت الصحيفة جانباً، بعد أن ألقت في جوفها بقية الكأس، وأخذت تسير في شوارع هلسنكي على غير هدى، وهي تحدث نفسها بصوت مسموع، غير عابئة أو مكترثة أو منتبهة لنظرات المارة المندهشة وهي تتابعها. كل حياتها أخذت تمر أمامها في سلسلة من صور سريعة، وكأنها تشاهد فيلماً سينمائياً لا علاقة لها به. طفولتها وشبابها في بلدها استراليا، وهجرتها إلى فنلندا قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وتعرفها إلى بعض المسلمين في هلسنكي الذين أقنعوها بالإسلام، فغيرت اسمها إلى سمية تيمناً بأول شهيدة في الإسلام، وتعرفها إلى محمد من خلال الإنترنت. كل ذلك مر سريعاً أمامها حتى أحست بالدوار يكاد يلقي بها أرضاً، فألقت بنفسها على أول كرسي وجدته في أول مقهى صادفها. ذهب الدوار سريعاً، فطلبت كأساً من البراندي وهي تمسح دموعاً لم تستطع كبحها، وأخذت ترتشف الكأس بهدوء، وأبيات من عمر الخيام تطوف في ذهنها بالرغم منها: «ولى الدجى قم هات كأس الشراب، كأنما الياقوت فيها مذاب. واحرق من العود بخوراً وخذ، من غصنه المعطار واصنع رباب. خير لي العشق وكأس المدام، من ادعاء الزهد والاحتشام. لو كانت النار لمثلي خلت،

جنات عدن من جميع الأنام». . . نهضت عجلة وهي تمسح دموعها، وقد عزمت على أن تفعل شيئاً. لن يموت محمد دون أن تفعل له شيئاً ولو صغيراً. استقلت سيارة أجرة وطلبت منه أن يذهب إلى مبنى إحدى الجرائد.

بين دموعها المتساقطة، جلست إلى طاولة محرر قسم الإعلانات في الجريدة، وخطت بحروف كبيرة: «إلى راحل عزيز»، وخرجت الأحرف من دهاليز ذاتها محاولة التعبير عما تحس به تلك اللحظة من ألم وغصة لا تعلم أين تبدأ وأين تنتهي. دفعت المال والنعي، وخرجت إلى شوارع هلسنكي لا تدري إلى أين تقودها قدماها، وهي تردد بينها وبين نفسها بصوت كالصراخ: «لماذا فعلتها يا محمد. . . لماذا. . . لماذا. . .». كم تود لو أنها كانت قادرة على اختراق حجب الغيب ومعرفة لماذا فعلها محمد، وهو الشاب الذي كانت تبتسم له الدنيا، ويعانقه المستقبل، وتضحك له الأقدار. وغابت في زحام البشر وحضارة الأسمنت، كما كان يسميها محمد، وأبيات الخيام تلاحقها. . . في الوقت الذي كانت روحها تتساءل. . . ما الذي جرى؟ ما الذي جرى؟ هل نبدأ من جديد. . . هل نبدأ من جديد؟ فيأتيها صوت كالصدى من داخلها، مردداً وهو يصيح: نعم. . . حسناً. . . فلنبدأ من جديد. . . لنبدأ من جديد. . . ثم وهي تحدث نفسها. . . وهل لنا إلاّ أن نبدأ من جديد. . . إن لم يكن الجديد، فليس إلاّ الدمار. . . الدمار. . .

انتهت

هذه مجرد رواية... فيها الكثير من الحقائق، وفيها الكثير من الخيال أيضاً... ولكن المهم أن فيها الكثير من السؤال، وأقل القليل من الجواب... تطابُقُ بعض الأسماء والوقائع والمواقع قد يعني كل شيء، وقد لا يعني أي شيء، بقدر ما يعني تمازج الحقيقة والخيال... والهدف؟ أن نعرف لماذا يموت الشباب... بل لماذا ينتحرون وهم سعداء... لماذا يبحثون عن السعادة في الموت وبين القبور؟ سؤال يحتاج إلى أن نُنَقِّب في تلافيف المخ... فالعلة تكمن هناك... في الرأس... فعندما يفسد الرأس، فكل شيء فاسد...




ISBN-978-1-85516-494-9



